منهج الهداية

رسالة في هدف ومنهج الدعوة الربانية

محمد سليمان القائد

دار الكلمة الطيبة

Goodword.com

Tel. +911141827083

Fax:+911145651771

info@goodwordbooks.com

الطبعة الثالثة: 2013م.

ISBN:978-9959-0-4

الإيداع المحلي

212-377

الدار الوطنية للكتب

طبع في دار الطالب

مقدمة الطبعة الثالثة

يسعدنا أن نقدم الطبعة الثالثة من كتاب "منهج الهدايـة" للقـارئ العربي، وهو جملة من المقالات كتبها المؤلف في أواخـر الثمانينـات من القرن الماضي، ونشرت لأول مرة بالقـاهرة سـنة 1991م، وهـذا الكتاب ثمرة حوار بناء جرى بين المؤلف والعديد من الشباب الليـبي المتحمّس لخدمة دين الله الإسـلام، وتم بعـد اكتمـال رؤيـة المؤلـف المنهجية الحق لنصـرة دين اللـه نظريـاً وعمليـاً، فقـد قضـى الشـيخ أغلب سـنوات عمـره بين الكتب والأسـفار، ثم انخـرط في عمـل الـدعوة والتعليم الديني المباشـر في روانـدا بقلب أفريقيـا لسـنوات طويلة، وكان من فضل الله عليه أن عاين في هذه التجربـة الدعويـة صدق رؤيته الفكرية، وتحقق فتح ونصر الله بدخول عشآلاف للإسلام ، وشاهد بأم عينه الصـدق العملي للأفكـار الـتي آمن بهـا وعمـل في ضوئها.

المؤلف يطرح فكراً تجديـدياً وبنـاءً ، يـدعو من خلالـه إلى توجيـه جهود الشباب المسلم الصادقة إلى ميدان العمل الحقيقي، بعيداً عن أسـاليب ردود الفعـل النابعـة من الـدوافع السـلبية، مقـدماً تصـوراً متكاملاً لإظهار الرسالة القرآنية، من خلال بناء وعي حقيقي وصـحيح لهدف ومنهج الدعوة الإسلامية في ضـوء التحـديات القائمـة في هـذا العصر، ويقدم من خلال هذا الكتاب معالجة فكريـة لجـذور التطـرف في الفكر الإسـلامي المعاصـر، السـبيل الحـق للقضـاء على ظـاهرة الإرهاب والتطرف باسم الإسلام، الذي عـانت منـه العديـد من الأمم والشعوب، ولاسيما في بلدنا الحبيب ليبيا، فقـد نغص علينـا التطـرف والمغالاة فرحة النصر، ويعمل على وأد أحلامنـا في بنـاء وطن كـريم يسع الجميع وننعم فيه بالأمن والاستقرار والسلام.

والمؤلف عندما يتناول مسألة الخروج على السلطة أو الثـورة، لا يتناولها على إطلاقها، بل يقتصر عليها في ميـدان العمـل والانخـراط

في نصـرة الـدين فهـو لا يقـر بصـحة من اعتـبر الكفـاح السياسـي المسـلح السـبيل الأمثـل لإظهـار ونصـرة الـدين، ويطـرح الهـدف الحقيقي للرسـالة القرآنيـة هـو الإنـذار والتبشـير بالحقـائق الأبديـة (الجنـة – النـار)، وليس مسـألة رفـع الظلم والاضـطهاد المـؤقت والمحدود في الحياة الدنيا.

لقـد عـرفت المؤلـف منـذ نعومـة أظـافري، ولازمتـه في ريعـان الشباب وتقاسمنا محنة السجن، والتي قضى فيها نحبه عام 1996 م، وأنـني واللـه أشـهد بـأنني رأيت فيـه من الصـفات مـا يصـعب علي حصرها، وهي صفات الرجل المـؤمن المجاهـد الصـادق، الـذي وهب نفسه وعرضه لله وخدمة دينه وإعلاء كلمتـه، فقـدم مسـتقبل الـدين على مسـتقبله وضـحى بالغـالي والنفيس لإظهـار رسـالة القـرآن، ويكفي أنه انبرى للدعوة إلى الله في أحلك فترات العمـل الإسـلامي في ليبيا ففي الثمانينات فتح بيته وصدره للشباب يلقاهم ويجتمع بهم ويجالسـهم ولم يمنعـه عن ذلـك قسـوة النظـام ولا رجـاء الأهـل والأحباب .

فجزى الله المؤلف، وجزى أهله وذريته كل خير، عما تحملـوا من العبء الأكبر من تلك التضحية الغالية.

طارق الشارف بن ساسي

طرابلس 2013 م

saadtareq@gmail.com

facebook: Tareq Ben Sasi

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِيٓ أَنـزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا (1) قَيِّمًا لِّيُنـذِرَ بَأْسًـا شَـدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّـرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُـونَ الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (2) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (3) ﴾

(الكهف : 1- 3)

وصلى الله على نبيه الكريم وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد إن هذه الرسالة محاولة للإجابة عن السؤال التالي : مـا هـو هدف الدعوة الإسلامية الحقيقي ومنهج الهداية إليه في ضوء القـرآن وتعاليم الرسول الكريم وسيرته الشريفة ؟

والمؤلف ينطلق من الشعور بوجود قضية نظريـة وعمليـة مُلحَّة، وهي فقـدان منهجيـة فكريـة صـحيحة تتمتـع بالمصـداقية الشـرعية والعقلية بين صفوف العاملين في حقل الدعوة الإسـلامية، ويـرى أن وضع هذه المنهجية من ألزم الواجبات لإحياء رسالة القـرآن، ونصـرة الــدين الإلهي على أكمــل وجــه. ولعــل من أخطــر أزمــات الفكــر الإسلامي المعاصر، عدم وضـوح هـدف رسـالة الـدعوة، الأمـر الـذي أدَّى إلى الحـــيرة والتمـــزق والاختلاف وضـــياع الأجيـــال الجديـــدة المتحمسة، وتسخير طاقاتهـا وإمكانياتهـا في غـير المجـال الصـحيح. ومهمة هذا الكتاب محاولة بالدرجة الأولى لإنقاذ سفينة "الدعوة" من الغرق بعد أن أخذها تيار الفتنـة الجديـدة بعيـداً عن هـدفها الصـحيح. وكأي محاولة تعمل ضد تيار الفتنـة الجـارف فـإن المهمـة شـاقة ولا يمكن النجاح في إنقاذ سفينة الدعوة حـتى تصـل إلى بـر الأمـان، إلا بعون الله وحده.

ومن أجل توضيح أقرب، لفكرة هذا الكتاب أريد أن أضع الحقـائق التالية أمام القارئ:

أولاً : إنَّ في مقدمة أهداف هذه الرسالة إثبات أن منهج الهداية الربانية يقوم على أساس الوعي بخطة الله، المبينة في كتابه وتعاليم رسوله، وتبينُ هذه الخطة الحقائق الأبدية التي تقتضى على الداعية أن يصوغ فكره في ضوئها، وأساس هذه الحقائق أننا مخلوقين للآخرة، وهذا هو الهدف الأساسي الذي يجب أن نركز عليه كافة نشاطاتنا، والأمور الأخرى موقفنا منها يعتمد على الظروف والأحوال التي تحيط بنا في وقت ما، وفي مكان ما.

إنَّ فـوز الإنسـان وخلاصه يكمن في إقامتـه العلاقـة الصـادقة والصحيحة بالله، فإذا نجح في هذا الأمر فإنه قد وضـع الشـروط النفسية لصلاح أعماله وسائر نشاطاته الدينية والدنيوية، بمـا في ذلك الشؤون السياسية والاجتماعيـة والاقتصـادية – فهـو يتحـرك في دنيا تضم كل هذه المؤثرات والجوانب، وسوف يكون موقفه منها على ضوء معيارين، المعيار الفكري الذي يؤمن به والمعيـار الثاني موضوعي نابع من الواقع الذي يتحـرك فيـه، ففي المعيـار الأول الاجتهاد للبحث عن الصواب النظـري، ولا ينجح العمـل في شروطه الإسلامية والموضوعية إلا بأن يكـون صـواباً من الناحيـة النظريـة والناحيـة العمليـة بعـد أن يقـوم على أسـاس الإخلاص الكلي والعلاقة الصادقة مع الخالق. تلك هي خلاصة الحكمة التي من وجدها أصاب خيراً عظيماً :

 وَمَن يُـؤْتَ الْحِكْمَـةَ فَقَـدْ أُوتِيَ خَيْـرًا كَثِـيرًا وَمَا يَـذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

(البقرة : 269)

ذكـر الإمـام الطـبري في تفسـيره معـنى كلمـة الحكمـة في الآيـة "الإصابة في القول والعمل" (5 /577) أي موافقة الصواب النظري للصواب العملي.

والملاحظـة المهمـة الأولى على الدراسـات الـتي تنـاولت منهجيـة الدعوة هي وقوعها في خطأ جسيم عندما تعرضـت إلى الـدعوة من خلال المؤسسة السياسية التي ظهرت في التأريخ الإسلامي بمعــزل عن الإطار الفكري النظري للدعوة الإسـلامية والخطـة الإلهيـة الـتي بسببها خلق الإنسان والحقيقة أن خطة اللـه واضـحة في كتـاب اللـه الذي هو في صميمه رسالة من الله للنوع البشري وهي في جوهرها قمة الرحمة والشفقة والتذكير:

 يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ فَلَا تَغُـرَّنَّكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُور إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَـدُوًّا إِنَّمَا يَـدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ

(فاطر : 5 - 6)

ولكن لأسباب عديدة ضاعت حقيقة الرسـالة القرآنيـة في الفكـر الإسلامي المعاصر وأخطر من ذلك بروز البدعة الجديدة وهي ظهـور تفسير سياسي لرسالة الدين جعل المسألة السياسـية تنـال الدرجـة الرئيسية في الأهمية وفي ضـوء ذلـك فُسِّـرت كـل الحقـائق الدينيـة وصارت تابعة للقضية السياسية وتحولت (السلطة) في هذا التفسـير فصارت هي الهدف المطلق لإقامة (رسالة الـدين) أي تحـول الجـزء الإضافي في الدين إلى الحقيقة الأساسية فيه، فالسياسة ذات أهمية ولكن ليست هي حقيقة الدين الأساسية وهذا الكتاب يحاول أن يـبين نوعية الخطأ، الذي وقعت فيه جهود المصـلحين في العصـر الحـديث عندما تحولت السياسـة إلى هـدف الـدعوة الأصـلي وضـاعت قضـية الآخرة. وتحاول هذه الدراسة نقد الاتجاه السياسي في تفسـير وفهم الدين والقضايا المتعلقة به، فالمعالجة في الأساس استهدفت القيام

بتحليل نقدي للأفكار غير الصحيحة الـتي نشـأت تحت تـأثير التفسـير السياسي للدين وأيضاً إثبات القضايا التالية :

- عــدم مشــروعية الخــروج السياســي باســم الأمــر بالمعروف والنهي عن المنكر أو باسم الدين عمومـاً. بـل هو في الحقيقة يؤدي إلى مس الدين في جوهره كرسالة إلهيـة تتطلب الجـو الملائم لتصـل إلى عبـاد اللـه بـدون عوائق وعقبات من طرف الدعاة على الخصوص.

-عدم مصـداقية التفسـير السياسـي للـدين ونقـد مفهـوم (الحاكمية) وفق تصور المودودي وإثبات أنَّ هذا التفســير لا يتطـابق مـع القـرآن والسـنة، وأنَّ أساسـه الفكـري لا يقوم على دليل أو حجة شرعية.

- إثبـات أن منهج الـدعوة إلى اللـه لا يقـوم على أسـاس التكفـير والإدانـة والحكم على عبـاد اللـه بـل يقـوم على أسـاس النصـيحة والتـذكير والحـوار وأن طـابع الـدعوة الإسـلامية السـلم لا العنـف وهي في جوهرهـا رحمـة لا نقمة.

- التأكيـــد على أنَّ منهج الـــدعوة الحقيقي يؤخـــذ على أساس عقلي ، قـائم على التفكـير واسـتخدام العقـل في اسـتقلالية عن التقليـد والتعصـب. كمـا أن تعـاليم الـدين تؤخذ من مصادرها عن طريق التدبّر والاعتبـار والدراسـة العميقة على أسس منهجية لمن يتصدى إليها حتى لا يقـع في محظور التأويل الخاطئ.

وإذا اسـتطاع هـذا الكتـاب أن يوقـظ إحسـاس القـارئ بأهمية الخطة الإلهية وضرورة العمـل في ضـوئها وكـذلك اكتشـاف القـارئ للقـرآن كرسـالة إلهيـة وكتـاب دعـوة

بالدرجة الأولى فإن المؤلف يعتبر نفسه قد نجح في تبليغ ما يريده للقارئ.

ثانياً : لعل بعض الذين يتجاوزون موضوع المعالجة الأساسية للقضـية المطروحـة ويطرحـون تسـاؤلات بخصـوص الأهـداف القوميـة بصورة خاصة، ومن أجل دفع الالتبـاس الـذي ربمـا يحـدث من هؤلاء أريد أن أؤكد أن المعالجة قد تركـزت في جوهرهـا على منهج الداعية بالدرجة الأولى وعلى مضمون الدعوة والجوانب المتعلقة بصورة مباشرة بهذه القضية – أمَّا ما يتعلق بالأهداف الوطنية والقومية فإنَّ معالجتها تتركز إمَّا بصورة مستقلة كليـاً عن الدعوة، أو بصـورة مشـتركة معهـا. ففي الحالـة الأولى لا حاجة بنا إلى الخوض فيها، وفي الحالة الثانيـة نريـد أن نوضـح النقطة التالية :

إنَّ الموضوع المطروح في مفهوم الجهاد المتعلق بالدعوة قـد بينا أن قانونه الدفاعي فيه خيارات متعددة وأساسه دائماً رؤية الهـدف الأصـلي للرسـالة والتخطيـط على ضـوئه وإذا كـانت الحالة القائمة تتمثل في صورة عدوان خارجي على الأمة فإنَّ الدفاع الوطني والقومي هنا مشـروع بصـورة طبيعيـة ويـدخل الـدفاع في مفهـوم الجهـاد الإسـلامي، ويكفي الآيـة القرآنيـة التالية دليلاً على ذلك:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾

(البقرة : 190)

ففي كل الأحوال فإنَّ القرآن يؤكد أنَّ القتال المشروع صـورة من صور الدفاع ضد من بدأ العدوان : ﴿ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (التوبة : 13)

ثالثاً : لقد أحاطت بكتابة هـذا الكتـاب ظـروف عديـدة وأسـتطيع أن أتـذكر أن أول مـا بـدأت أسـجل أفكـاري على الـورق نتيجـة مناقشات مستمرة كانت تدور بيني وبين بعض الشباب وكـانت النتيجـة النهائيـة للمناقشـة شـعوري بأهميـة وضـع منهج تفكـير للداعية، وكانت بعض فصول الكتاب كتبتها استجابة لـدعوة من بعض الأخوة لتوضيح قضية ما، ولا شـك أنَّ فـترة العمـل الـتي قضيتها في المنطقـة الاسـتوائية الإفريقيـة (روانـدا) . بـالمركز الثقافي الإسـلامي بكيغـالي كـانت عـاملاً أساسـياً في أنَّ أولى هذه القضية الاهتمام اللازم خصوصاً أن في المركز المذكور قد تركـز واجـبي في العمـل في مجـال الـدعوة وإعـداد الـدعاة والإشراف عليهم وكنت خلال ذلـك قـد شـعرت بحاجـة الـدعاة إلى منهج يوضح معـالم طريـق الـدعوة، ومن هنـا فـإنني أنتهـز هذه الفرصة لأقدم هذا الكتاب إلى أولئك الـدعاة الـذين عملت معهم في فترة من أخصب فـترات عمـري ولا أنسـى أن أذكـر بالشكر أولئك الذين سـاعدوني في هـذه المهمـة من العـاملين معي وعلى رأسـهم مـدير المركـز الإسـلامي الأسـتاذ ***محمـد بشير المغيربي*** والأستاذ ***الطاهر الشويهدي*** الأمين العالم للهيئة المشتركة لتأسيس المراكز الثقافية الإسـلامية إذ وجدت منهما كل مساعدة في سبيل تأدية واجبي بما لا يسـعني ألا أن أذكـر لهمـا هـذا الصـنيع، ولكـل أعضـاء الهيئـة مهـدياً لهم هـذا الكتاب ولكل الدعاة الذين يعملـون على نصـرة الإسـلام وعلى تبليغ رسالة القرآن عسى أن تكون هـذه المحاولـة المتواضـعة منهجاً أولياً ينير سبيل العمل في طريق الهداية الربانيـة هدايـة النَّبي العربي الخاتم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَـدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَـةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنَا إِنَّكَ جَـامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)﴾

(آل عمران : 8-9)

محمد سليمان القائد

القاهرة في 16/8/1990

(1) الرسالة القرآنية

إن بعض المفكـرين المسـلمين المعاصـرين لم يكتشـفوا حقيقـة الرسالة القرآنية، ولأسباب خاصة فسروا المهمة التي أرسل الله من أجلها الرسل تفسيراً سياسياً فجعلوا هـدف إقامـة الدولـة الإسـلامية هو الهدف الأصلي – وجعلوا هدف إقامة النظام الإسلامي هـو هـدف الرسالة الإسلامية الأول، ومع أنَّ هذا الهدف لا غبار عليـه فيمـا يبـدو من الناحية الظاهرية، إلا أنَّه لو سلمنا بهذا سوف يطرأ تحريـف كلي لحقيقة الرسالة القرآنية التي قامت على أساسها خطـة اللـه لإنـذار النوع البشري :

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

(الفرقان : 1)

والتبرير بأنَّ الرسول أقام دولة بالمدينـة اسـتدلال خطأ على هـذه الدعوى. فالدولة وهي مؤسسـة سياسـية – لم تكن هـدفاً أصـلياً في وقت من الأوقات لنبي من الأنبياء ويكفي أن نعلم أن عـدداً محـدوداً جداً منهم تسنى لـه إقامـة سـلطة إسـلامية كاملـة فهـل كـان سـائر الأنبيـاء على غـير الهدايـة الكاملـة أو أنهم قـد فشـلوا في مهمتهم. والحقيقة أنَّ من يجعـل الدولـة هـدفاً أصـلياً ومقياسـاً نهائيـاً لرسـالة الأنبيـاء سـوف يقـع في هـذا الخطـأ ويتـوهم أنَّ الرسـل الـذين لم يؤسسوا دولة كانوا على غير الهداية الكاملـة واللـه سـبحانه وتعـالى يؤكد أنهم كانوا على الهداية وأمر الرسول بالإقتداء بهم :

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ)

(الأنعام : 90)

ولعل هذا ما ينفي الإدعاء الأجوف بأن الرسالات السابقة للأنبيـاء (ويضرب عادة المثل برسالة المسيح عليه السـلام) رسـالات ناقصـة

لعــدم ظهــور المؤسســة السياســية فيهــا والملاحظــة المهمــة على الدراسات التي تناولت منهجية الدعوة هي وقوعها في خطأ جســيم، عندما تعرضت إلى هدف الدعوة من خلال المؤسسة السياسية التي ظهـرت في التـأريخ الإسـلامي، متجـاهلين الإطـار النظـري للـدعوة الإسلامية كمـا هي في كتـاب اللـه وسـيرة وتعـاليم رسـوله الكـريم، فالحقيقة الأساسـية أن الداعيـة إلى اللـه لا يصـوغ فكره على ضـوء التـأريخ بـل يقـوم فكره على دراســة الهـدف الجـوهري النـابع من المصادر الأساسـية لرسـالة الـدعوة بالدرجـة الأولى ومعـنى هـذا أنَّ الداعيــة من اكتشــف الحقيقــة عن طريــق الــوعي بحقيقــة الــدين واكتشاف (إسلام العقيدة) لا (إسلام التأريخ) فـالوعي بالحقيقـة غـير الـوعي بجوانبهـا الإضـافية الـتي تظهـر في مرحلـة مـا دون مرحلـة أخرى. إنَّ كافة الأنبياء قامت رسالتهم على الحقيقـة الأصـلية للـدين وفي نفس الوقت نجد أنَّ كل نبي ترك لنا تاريخاً متميزاً تبعـاً لظهـور الحقيقة في تاريخه الخـاص بـه ولا نسـتطيع أن نتخـذ تـاريخ نـبي مـا كمعيار نهائي لحقيقة الدين، فهناك من الأنبياء من قام بتبليغ الرسالة ولم يؤمن به سوى نفر قليل، وهناك من آمنت به جماعة أقـامت في نفسها شعائر الدين المتعلقـة بالعبـادة فقـط، وهنـاك من وصـل إلى مرتبة أعلى فظهر الدين على مستوى دولة طبق فيها الدين الشامل للمعاملات، وهناك من تآمر عليه قومه ومضى إلى سبيل ربِّه شهيداً، كل هذه الصور هي عبـارة عن الجـوانب الإضـافية المتعلقـة بحقيقـة الرسـالة الـتي في جوهرهـا الإنـذار من اليـوم الآخـر والـدعوة إلى التوحيد:

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ)

(غافر : 15)

والملاحظــة العامــة التاليــة إن فكــر الــدعوة لا يقــوم على ردود الفعـل الوقتيـة الـتي قـد تكـون في مرحلـة مـا ذات أهميـة متعلقـة بظروفها، ذلك لأن الداعية إلى الله هو من يعمل تحت تأثير الحقـائق

الأبدية وهو من قد أدرك بوضوح خطة الله التي وضعها لإنقـاذ عبـاده من النار فيعمل على منهج النبوة وهداها الحق: ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ ﴾

(آل عمران : 73)

فما هي حقيقة الرسالة القرآنية ؟

إنَّ في معرفـة الجـواب عن السـؤال السـابق مـا يحـدد نوعيـة المهمة التي ينبغي علينا أن نعالج كافة المسائل الأخرى في ضوئها.

ولكن لا حاجة بنا إلى أن نستنتج الجـواب أو نعتمـد على القيـاس والظن لأنَّ القرآن يقـدم لنـا هـذا الجـواب بصـورة واضـحة وقاطعـة ويكفي هذه الآيات لذلك:

- ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

(الفرقان : 1)

- ﴿الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنـزَلَ عَلَىٰ عَبْـدِهِ الْكِتَـابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (1) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّـالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْـرًا حَسَـنًا (2) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾

(الكهف : 1 - 3)

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾

(الشورى : 7)

- ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(يس : 69 - 70)

- ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (87) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾

(ص : 87 – 88)

- وغير هذه الآيات التي تحدد بصورة لا مجال فيها للاختلاف مهمة الرسالة القرآنية.

وهي في نفس الوقت مهمة النبي العـربي خـاتم الرسـل (صـلي الله عليه وسلم): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا (45)ـ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46)ـ وَبَشِّرِ الْمُـؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47)﴾

(الأحزاب : 45 – 47)

إن الإنــذار من الآخــرة هي حقيقــة الرســالة القرآنيــة والمهمــة الأصلية التي تضيء سائر جوانب هذه الرسالة.

إنَ اعتبار الإنذار من الآخـرة هـو المحـور الأساسـي للـدعوة جـاء نتيجة أن سعى الإنسان الأبدي يتقـرر في الآخـرة طبقـاً لأعمالـه في الدنيا، وليس هناك خيار لنجاته سوى دين الإسـلام، وأي أسـلوب في الدعوة يهمل قضية الآخـرة لن يَـفِ بـالواجب الأساسـي، وهـو إطلاع الناس على حقيقة الاختبار الذي يواجه الإنسان، فالهدف النهائي هــو أن يعلم الإنسان أنَّه سوف يقف أمام خالقه للحساب:

﴿ يوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَـوْمِ الْجَمْـعِ ذَٰلِـكَ يَـوْمُ التَّغَـابُنِ وَمَن يُـؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَـارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ (9) وَالَّذِينَ كَفَـرُوا وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (10) ﴾

(التغابن : 9 – 10)

ومن هنا ندرك أن هدف الرسالة القرآنية ليس هدفاً سياسياً كمــا شـاع في هـذا العصـر، بـل هـو هـدف أخـروي لقيـام الحجـة وتبليـغ الرسالة، ولهذا فإنَّ المهمة تنتهي عند البلاغ :

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾

(الشورى : 48)

وفي نفس الوقت هي دعوة مجردة من أي حقوق مادية بالنسـبة للدعاة :

﴿ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴾
(الأنعام : 90)

وهذه المهمة ليست هينة بـل هي أعظم مهمـة على وجـه الأرض ويتخذ الله من هؤلاء المبلغين شهداء يوم القيامة :
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ)

(البقرة : 143)

وهي أعلى مرتبة وتأتي بعد مرتبة النبيين :
﴿ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾
(الزمر : 69)

ونصرة الله متحققة بصورة مستمرة للذين يقومون بهذه المهمـة في الدنيا والآخرة :

﴿إِنَّا لَنَنصُـرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَيَـوْمَ يَقُـومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾
(غافر : 51 – 52)

الرسل يبلغون الرسالة إلى الأمم

إنَّ عهد الله وميثاقـه لتبليـغ رسـالته للنـوع البشـري ظـل أمانـة ومسؤولية مستمرة يقوم بها الأنبياء وأتباعهم من بعدهم الذين ورثوا الكتب السماوية:
﴿ يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَـأْتِيَنَّكُمْ رُسُـلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّـونَ عَلَيْكُمْ آيَـاتِي فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْـلَحَ فَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ (35)ـ وَالَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (36) ﴾

(الأعراف : 35 – 36)

وسبيل النجاة الوحيد هو إقامة التوحيد الخالص وهي الغايـة الـتي خلق الله من أجلها الإنسان :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56)﴾

(الذاريات : 56)

ولأهمية الإنذار وإعلام البشر بخطة الله ونظامه فإنَّ الله سبحانه وتعالى اختار في الماضي بني إسـرائيل لتأديـة مهمـة الشـهادة على الأمم في الماضي وتوالت رسالة النبوة فيهم لهذه المهمة :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُـونَ (24) ﴾

(السجدة : 24)

ولما طال الأمد على بني إسرائيل قست قلوبهم وضيعوا الرسالة واقترفوا جريمة الكتمان :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْـدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ)

(البقرة : 159)

وما حـل ببـني إسـرائيل في التـأريخ كـان تنفيـذاً للعقوبـة الإلهيـة العادلة، وهي جزاء لكتمانهم رسالة اللـه وإحجـامهم عن تبليغهـا بعـد أن أخذ الله عليهم الميثـاق لـذلك : ﴿ إِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُـورِهِمْ وَاشْـتَرَوْا بِـهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187)﴾

(آل عمران : 187)

ويقص علينا القرآن بداية العهد القديم الذي عقـده مـع نـبي اللـه إبراهيم عليه السلام :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَـالَ إِنِّي جَاعِلُـكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾

(البقرة : 124)

وكان هذا جوهر العهد القديم الذي أبـرم مـع أهـل الكتـاب، فلمـا تخلى عنه أهل الكتاب بعث الله سـيدنا محمـد **(صلى اللـه عليـه وسلم)** الرسول الخـاتم لكي يقـوم بمهمـة التبليـغ وتقـوم أمتـه من بعده بهذا الدور إلى يوم القيامة :

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِّتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُـونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾

(البقرة : 143)

ومعنى "وسط" أن يكون أتباع الرسول "وسط" بين اللـه وخلقـه تماماً كما هو الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** "وسط" بين الله والأمة الإسلامية.

وقال المفسـر المعـروف، أبـو حيـان في تأويـل الآيـة : " لتنقلـوا إليهم ما علمتموه من الوحي والدين كما نقله رسول الله صـلى اللـه عليه وسلم "

(البحر المحيط 1 / 422)

وذكر وهب بن منبه وصف الله لأتبـاع وأمـة الرسـول الخـاتم في التـوراة : " فرضـت عليهم الفـرائض الـتي افترضـت على الأنبيـاء والرسل "

(البداية والنهاية)

ومعنى ذلك أنَّ الله قد فرض على هذه الأمة الدعوة التي فرضها على الرسول :

(قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

(يوسف : 108)

قال الربيع بن أنس : " حـق على من اتبـع رسـول اللـه أن يـدعو كالذي دعا إليه رسول الله **(**صلى الله عليه وسلم) وأن ينـذر بالـذي أنذر " وعن معمر بن قتادة : في قوله تعالى :
﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾
(الأنعام : 19)

إنَّ رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** قال : " بلغوا عن الله، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله " وعن محمد بن كعب في تأويل الآية قال : "من بلغه القرآن فقد بلغه محمد (صلي الله عليه وسلم)" .
(تفسير ابن كثير 12/ 2)

وأقوال الرسول **(صلى الله عليه وسـلم)** تفيـد وجـوب تبليـغ الرسالة وتأديتها عنه ومن ذلك قوله لأصحابه:

"إنَّ الله بعثني رحمـة للنـاس كافـة فـأدُّوا عـني رحمكم اللـه ولا تختلفوا".
رواه الطبراني (عن مسور بن مخرمة).

وغـير ذلـك من الأحـاديث المشـهورة الجاريـة على الألسـن مثـل قوله : "فليبلغ الشاهد منكم الغائب" وقوله: " بلغوا عـني ولـو آيـة " وقولـه: "لإن يهـدي اللـه بـك رجلاً واحـداً خـير لـك من حمـر النعم " وقوله: " أنتم شهداء الله في الأرض".

إنَّ سبيل نجاة الإنسان الوحيد هو قبوله الإسلام وهو دين الرحمة التي أرسل بها الرسول لكافة البشر، ﴿ وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلا رَحْمَـةً لِلْعَـالَمِينَ ﴾ . والقرآن هو المصدر الوحيـد لهدايـة (الإسـلام) دين اللـه الحـق الـذي أرسل به كافة الرسل، وذلك بعـد أن فقـدت سـائر الكتب السـماوية مصداقيتها الإلهية لما حدث فيها من تحريـف بيـد الإنسـان، فـالقرآن وحده المصدر الموثوق فيه للهداية الربانية، هداية الإسلام . ومسـألة تبليغـه للنـاس أهم مسـؤولية تقـع على عـاتق الأمـة الإسـلامية، لكي يتسنى للناس معرفة دين النجـاة من العـذاب الأبـدي، وبـذلك وحـده

تقوم عليهم الحجة ويكونوا على بينة تامة من أمر الله، وما كان اللـه ليعذب الناس بدون إقامة الحجة : وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ولقد تواصلت الرسالات السماوية في النوع البشري لهذه المهمـة بالدرجة الأولى.

الرسالات السماوية

كانت أوِّلُ رسالةٍ أرسلها الله للنوع الإنساني هي رسالةُ نوحٍ عليه السلام وذلـك في الأرض الواقعـة بين دجلـة والفـرات، وكـانت آهلـةً بذرية آدم عليه السلام بعد خروجه وزوجته من الجنة.

ويتضح – من القرآن – أنَّ قوم نوح كانوا يقترفون جريمة الشرك فدعاهم نـوح إلى توحيـد اللـه بالعبـادة، ولكنهم أصـرُّوا على الشـرك ولم يؤمن منهم بنوح سـوى عـددٍ قليـلٍ، فـأمر اللـه نوحـاً بـأن يصـنع سفينةً هائلةً يحمل فيها من كل زوجين اثنين ومن آمن معـه، ثمَّ حـلَّ العذاب الإلهي في شكل طوفانٍ هائـلٍ أغـرق الأرض ومن فيهـا، ولم ينجُ إلا من ركب مع نوحٍ في السفينة، ولقد سجل القرآن نهايـة قـوم نوح :

فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـاهُ وَالَّذِينَ مَعَـهُ فِي الْفُلْـكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ

(الأعراف : 64)

وبعد هلاك قوم نوحٍ استخلف الله بعدهم قوم عادٍ وكانوا يسكنون الأحقـاف جنـوب الجزيـرة العربيـة، وكـانوا قـد اشـتهروا بضـخامة أجسامهم، وطول أعمارهم، وشدة بطشهم، ومتانـة مسـاكنهم الـتي كانوا ينحتونها في الجبال، وانتشرت عبادة الأوثان بينهم، فظهر بينهم رسـول اللـه هـود عليـه السـلام يـدعوهم إلى توحيـد اللـه فرمـوه بالسفاهة وقد ردَّ عليهم قولهم في قوله تعالى :

 قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (67) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (68)

(الأعراف : 67 – 68)

ولكن قوم هود قد أصروا على تكذيب رسولهم الناصح الأمين فكانت عاقبتهم محزنة إذ أرسل الله عليهم ريحاً :

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

(الأحقاف : 25)

وبعد هودٍ أرسل الله نبيه صالحاً عليه السـلام إلى قـوم ثمـود في شمال الجزيرة العربية وجعلهم الله خلفاء بعد قوم عادٍ، وقد دعــاهم صـالحُ إلى التوحيـد ونبـذ عبـادة الأوثـان فكـذبوه فلم يكن مصـيرهم بأفضل من مصير قوم نوحٍ وقوم هودٍ، إذ أرسل اللــه عليهم الصـيحة فلم ينجُ منهم سوى المؤمنين :

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(النمل : 52)

فنهايــة الأمم المكذبــة بالرســل – كمــا يبــدو من الآيــة – كــانت متشابهةً وهي الهلاك المبين :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ كُلَّ مَا جَـاءَ أُمَّةً رَّسُـولُهَا كَـذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(المؤمنون : 44)

وهكـذا فلقـد سـجل القـرآن نهايـة الأمم الـتي رفضـت الحقيقـة الإلهيــة، وفي كــل مــرة كــان الشــرك يعــود ليســيطر على الحيــاة الإنسانية بعد انقراض الموحـدين الـذين كـانوا قلـة في كـل العصـور التأريخيـة حـتى ظهـور رسـول الإسـلام محمـد **(صلى اللـه عليـه وسلم)** إذ كان مجيئه نقطة تحول في التأريخ البشري لأن الله أراد نصرته نصرة خاصة، وإظهار دينه عالمياً كما قال سبحانه:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا)

(الفتح : 28)

تبليغ الرسالة

إن تبليغ رسالة الإسلام أهم مسؤولية في خطة خالق الكون، ولهذا أنزل الكتب السماوية، وأرسل الرسل :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء : 165)

وفي ضوء هذه الخطة أرسل الله الرسول العربي الخاتم (محمد بن عبد الله (صلي الله عليه وسلم) للناس كافة) :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سبأ : 28)

ولقد حمَّل الله أتباع النبي الخاتم مسؤولية تبليغ الرسالة من بعده وذلك لإقامة الشهادة وإتمام الحجة فقال :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

(الحج : 78)

ولقد بلغ الرسول رسالة الإسلام كما أمره الله بدأ بقومه العرب ثم من يليهم من الأمم، ولقد أرسل وفوداً ورسائل إلى ملوك عصره يدعوهم للإسلام، وعلى سبيل المثال: كتب إلى هرقل هذه الرسالة :

" من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ! سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد ! فـإنِي أدعـوك بدعايـة الإسـلام، أسـلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين.

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَـإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران : 64)

وبعد وفاة الرسول (صلى الله عليه **وسلم)** بذل الصحابة كل ما في وسعهم من أجل تبليغ الرسالة في جميع أنحاء المعمـورة، وبكـل ما يملكون من وسائل في ذلك الوقت وبفضل ذلك دخل النــاس في دين الله أفواجاً" .

ومسؤولية تبليغ الرسالة لا زالت قائمة حتى قيام الساعة .

ولا زال أتباع الرسول العـربي هم المسـؤولون عن ذلـك في كـل مكان، ومعلوم أن إتمام الحجة، وإقامة الشهادة لا يتم إلا بالجهاد في تبليغ هذه الرسالة عن طريق الإنذار والتبشير أسـوة بعمـل الرسـول حتى يتهيأ لكافـة النـاس الاسـتعداد لليـوم الآخـر عن طريـق الإيمـان والعمل الصالح وحين يتخلى المسلمون عن أداء هذا العمل الهام لن يكون لأي عمل آخر أهمية عند الله، والقرآن قـد نبـه على أن اللعنـة تحيق بمن يقترف جريمة الكتمان للبينات بعد نزولها.
وما حـلَّ ببـني إسـرائيل في التـأريخ كـان تنفيـذاً للعقوبـة الإلهيـة العادلة. وفي ذلك عبرة لأولي الألباب.
قـال تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

(آل عمران : 187)

إنك لو درست القرآن بدون خلفيـات وأفكـار مسـبقة فسـتجد أنَّ أعظم قضية في القرآن هي قضية الآخرة، وأهم مسؤولية هي إعلام الناس بهذا النبأ العظيم ومضمون هذا النبأ أن الإنسـان سـوف يقـف أمام خالقه ليحاسب عن أعماله :

 وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (39)ـ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَـوْفَ يُـرَىٰ (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ (41)

(النجم : 39 - 41)

فمن عمل صالحاً فسوف ينعم بـدار السـلام ومن أسـاء وصـرف حياته في غير طاعة خالقه فسوف يصلى النار الأبدية لا يمـوت فيهـا ولا يحيا، ولهذا السبب فإن مسؤولية إعلام البشر بهـذه القضـية تقـع على حملة الكتاب الإلهي (القرآن الكريم) ويقوم أتباع الرسول بهـذه المهمة نيابة عنه لأنَّ الله يريد من الإنسان أن يكون على بينة كاملـة وأن يكون في نفس الـوقت قـد وجـد من يبلغـه في كـل وقت بهـذه الحقيقة ذات الأهمية البالغة. ومسألة تبليغ الرسالة تنال أهمية بالغـة حتى عند النفير العام :

 وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَـةٌ لِّيَتَفَقَّهُـوا فِي الـدِّينِ وَلِيُنـذِرُوا قَـوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُـوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

(التوبة : 122)

ورد في سـبب نـزول الآيـة السـابقة أنَّ المسـلمين من القبائـل العربية كانوا يفدون إلى المدينة حيث رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** للمشاركة في القتال الدائر ذلك الوقت ضـد الـروم ونظـراً لأنهم كـانوا يعيشـون في أوسـاط المشـركين الـذين لم يعتنقـوا بعـد الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى أمر أن تكون هنـاك طائفـة من كـل فرقة منهم تقوم بتبليـغ رسـالة الإسـلام كتب المفسـر ابن كثـير في تأويل الآية :

قال ابن عباس : "كان ينطلق من كل حي من العـرب عصـابة فيأتون النبي **(صلى الله عليه وسلم)** فيسألونه عما يريدون من أمور دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي **(صـلى اللـه عليـه وسلم)** ما تأمرنا أن نفعلـه ؟ وأخبرنـا بمـا تـأمر عشـائرنا إذا قـدمنا عليهم، فقال فيأمرهم نبي الله بطاعـة اللـه وطاعـة رسـوله ويبعثهم إلى قومهم بالصـلاة والزكـاة، وكـانوا إذا أتـوا قـومهم قـالوا : إن من أسلم فهو منا وينذرونهم، حـتى أن الرجـل ليفـارق أبـاه وأمـه وكـان النبي **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** يخـبرهم وينـذرهم قـومهم فـإذا رجعــوا إليهم يــدعونهم إلى الإســلام وينــذرونهم النــار ويبشــرونهم بالجنة."

(تفسير ابن كثير 3/474)

فالإسلام هو قبـل كـل شـيء (دين الرسـالة) وكمـا يعـرِّف عـالم الاجتماع ماكس مـولر (Max Muller) دين الرسـالة فيقـول : " هـو الـدين الـذي يسـمو فيـه نشـر الحـق وهدايـة الكـافرين إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده ... إنها روح الحق في قلوب المؤمنين الـتي لا تسـتقر حـتى تتجلى في الفكـر والقـول والعمل ولا تقنع حتى تؤدي رسـالتها إلى كـل نفس إنسـانية وتعـرف أفراد الجماعة الإنسانية بما يعتقد أنه الحق"
(توماس أرنو لد : الدعوة إلى الإسلام ص 25)

إن عذاب الله في غاية الشدة ولا حدود له .. ولا نهاية لـه .. وهـو حق وسـيحيط بكـل نفس لم تسـلم لـه في الحيـاة الـدنيا فمن يعـبر بوابة الموت دون هداية الإسلام سوف تلحقه الخسارة الأبدية :
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْـلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَـلَ مِنْـهُ وَهُـوَ فِي الْآخِـرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(آل عمران : 85)

إن أغرب واقعة في تـاريخ الإسـلام هي اختفـاء فكـر الـدعوة من العلوم الإسلامية حتى إنك تجد كتب الحـديث والفقـه شـاملة لجميـع

الأبواب إلا باب الدعوة وكان من الطبيعي بعد هذا أن تختفي الـدعوة كهدف أساسي عند علماء الأمـة وتتلاشـى عاطفـة إبلاغ رسـالة اللـه للبشـر حـتى أنَّه لا توجـد حركـة جـديرة بالـذكر قـامت لهـذا الهـدف الرباني وهكذا طويت السُنَّة الكـبرى لخـاتم النبـيين من حيـاة اتباعـه فما هو السبب الرئيسي لهذا الإهمال والتقاعس، يجيب وحيـد الـدين خان:

" إنَّ الـذين آمنـوا بـالقرآن في عصـر الإسـلام الأول واكتسـبوا تربيتهم من رسول الله مباشرة، كانوا يتدفقون حماسة لإبلاغ رسـالة الله إلى كل البشر عباد الله، ودارس التـأريخ الإسـلامي في العصـور التالية يرى، بدهشة أنَّ هذه العاطفة قد خبت وتلاشت بمـرور الأيـام وحين تعرض المسلمون للانهيار السياسي في القرون الأخيرة قامت لدينا حركات عظيمة الشأن لاستعادة السـيادة والمجـد الغـابر، ولكن لم تظهر حركة جديرة بالذكر لأجل الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسـالة، إن القرآن الذي كان يقرؤه الصحابة والتابعون، هو القرآن ذاته الـذي قرأته أجيالنا التالية، إذاً فما السبب في أنَّ القـرآن الـذي ألهب همم الأوائـل للـدعوة إلى الله لم يحث الأواخـر على القيـام بمسـؤوليات الدعوة؟

ليس من سبب لهذه النتيجة سوى أن القـرآن كـان مصـدر علـوم الـدين في صـدر الإسـلام بصـورة مباشـرة بينمـا اختفى وجـوده في أكوام العلوم، التي اخترعتها عقول البشر في العصور التالية".

(وحيد الدين خان الإسلام والعصر الحديث : بيروت، دار النفائس 1978)

إن دعوة الله في القرآن هي في جوهرها قمة الرحمة والشـفقة والنصح للنوع البشري، وهي متواصلة ومستمرة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْـدَ اللَّهِ حَـقٌّ فَلَا تَغُـرَّنَّكُمُ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (5)ـ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَـدُوٌّ فَاتَّخِـذُوهُ عَـدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

(فاطر : 5 - 6)

إنَّ أساس خلاص الإنسان يتم عن طريـق التوحيـد الخـالص وهـو عبادة الله وحده لا شريك له كما اتفق على ذلك جميع الرسـل، قـال الله تعالى محدداً رسالة الدعوة ومضمونها الأساسي :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰـهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء : 25)

والعبادة معنى جامع يتضـمن الخضـوع والـذل والمحبـة والخشـية والرجاء والإنابة والاسـتعانة فالتوحيـد الخـالص هـو أن تكـون العبـادة خالصة لله وحده :

﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾

(المائدة : 72)

والتوحيد ليس قضية فلسـفية أو لفظيـة بـل هـو قضـية اختباريـة بالدرجة الأولى:

﴿ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلً﴾

(الملك : 2)

ونجاح الإنسان في هذا الاختبار هو أن يجعل الحيـاة الـدنيا مجـالاً لإثبات عظمة الله في نفسه، ولا يفـوز الإنسـان إلا بالإيمـان والعمـل الصالح فمن جعل حياته القصـيرة في الخضـوع للـه وحـده واسـتقام على الإيمان والعمل الصـالح فسـوف ينـال البشـرى بالجنـة قبـل أن يموت :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْـتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَـةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾
(فصلت : 30)

(2) الرسالة الربانية

" هلاك أمتي في الكتاب يتأولونـه على غـير تأويلـه" (جـامع بيـان العلم)

تمهيد

إنَّ أخطر انحراف وقع في الفكر الإسلامي المعاصـر هـو تفسـير الإسـلام تفسـيراً سياسـياً، وتأويـل رسـالة القـرآن وتعـاليم الرسـول **(صلى الله عليه وسلم)** وتاريخ الإسلام في ضـوء هـذا التفسـير، الذي نجم عنه حركات دينية سياسـية متطرفـة، تعمـل ضـد الأنظمـة السياسـية القائمـة إسـلامية كـانت أو غـير إسـلامية بـدعوة إقامـة الحكومة الإلهية، ووصـل الأمـر إلى خطـورة قصـوى، إذ أن الشـباب المسـلم في الـوطن العـربي أو خارجـه بـدأ يتـأثر بهـذه التفاسـير السياسية المتطرفة فيـؤدي دور المواجهـة السياسـية، ليتحطم على صـخرتها بـدون فائـدة متوهمـاً أنـه قـد أدى دور الجهـاد في سـبيل الإسلام، وهذه الظـاهرة السـائدة في كـل مكـان تقريبـاً تقـدم أسـوأ نتيجة للتفسير السياسي لرسالة القـرآن، والحقيقـة أنـه لا مصـداقية شرعية ولا عقلية لمثل هذه التفاسير فهي قد نجمت عن تأويل خطـأ لرسالة القرآن، وتطبيق غير سليم لها، وسوء فهم للتـاريخ الإنسـاني والإسلامي والانخداع بسراب الأماني.

والسؤال الهام: كيف نشأ هذا التفسير السياسـي الخطـأ لرسـالة الإسلام ؟! إن في الجواب على هذا السـؤال البدايـة لتصـحيح مسـار الوعي والعمل برسالة القرآن.

ظهور التفسير السياسي

إنَّ بداية ظهور التفسير السياسي كانت مـع أبي الأعلى المـودودي (1903 ـ 1979) عندما قدم تصوراً في إحدى المحاضرات التي ألقاها في مدينة "لاهور" في سنة (1939) حول "نظرية الإسلام السياسية"

فطبعت منها عشرات الآلاف من النسخ باللغة الأردية وترجمت إلى اللغة الإنجليزية وكثير من اللغات الهندية وظهرت الترجمة العربية لأول مرة سنة (1946) في لاهور، ومن هناك وزعت في البلاد العربية وظهرت الطبعة الثانية لها في القاهرة سنة (1950).

وفي هذه المحاضرة أشار المودودي إلى معالم النظرية السياسية في الإسلام (كما فهمها)، والتي ارتكزت على تفسيره لمعاني (الإله) (الرب) – بالمعنى السياسي، وأن مهمة الرسل الحقيقية هي دعوة الناس إلى النظام الإلهي وهذا معنى التوحيد – عند المودودي – الذي وقف عليه الرسل حياتهم، وهو جوهر النزاع بين الرسل والملوك والحكام في كل العصور، وفي ضوء هذا المفهوم فسر النزاع بين النمرود ونبي الله إبراهيم عليه السلام، ولقد أشار المودودي بأن – النمرود لم يكن منكراً لله أو لربوبيته ولكن كان منكراً لتطبيق شريعته التي سوف تفرض عليه التنازل عن سلطانه الأرضي.

فمن يرفض الحكم بما أنزل الله إنما يرفض ألوهية الله، فجعل أساس دعوتهم للتوحيد في هذه الدنيا أن يقيموا الدولة الإلهية، وهو الأمر الذي ليس له دليل في القرآن أو في السنة.

إنَّ المودودي أخضع القرآن وتعاليم الرسول وسيرته لفكرة الحاكمية لدرجة أنه قدم تفسيراً جديداً للإسلام أساسه الدعوة إلى الانقلاب السياسي وهي مهمة الرسل : "لم يكن بينهم خلاف في وجود الله وفي أنه خلق وبيده ملكوت كل شيء فمن الظاهر أن الرسل ما جاءوهم ليدعوهم إلى تلك العقيدة التي كانوا يعتقدونها ويعترفون بها".

(نظرية الإسلام وهديه ص : 16)

وعندما ترجمت أعمال المودودي إلى اللغة العربية خصوصاً (نظرية الإسلام السياسية) و(الجهاد في سبيل الله) وكتابه الهام

(المصطلحات الأربعة)، قام الكاتب والناقد الأدبي (سيد قطب) بتبني هـذا التفسـير السياسـي والـدعوة إليـه في تفسـيره المشـهور (في ظلال القرآن) في الطبعة الثانية منه.

يقول فهمي هويـدي : "ونحن لا نكـاد نعـثر على إشـارات لمعـنى الحاكميـة أو لفظهـا في الكتابـات الإسـلامية المبكـرة للأسـتاذ سـيد قطب وطبقـاً لمـا هـو متـاح من مصـادر بين أيـدينا، فـإنَّ أول ظهـور لفكرة الحاكمية في كتبه كان تفسيره للقـرآن المعـروف "بـالظلال" الذي صدر بعد محنة اعتقاله الأولى سنة (1954). إذ نجده يقــول في تعقيبه على الآية :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(المائدة : 44)

إن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله، فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها **الحاكمية التشريعية**".

(ندوة التيارات الإسلامية المعاصرة في الوطن العربي ، طرابلس، رسالة الجهاد، ص : 133)

"ونظراً لأن المودودي هو المؤسس لهذا التفسير في البداية وأن سيد قطب قد قام بتبنيه ونشره خصوصاً في تفسيره. وكتابه (معالم في الطريـق) والـذي ذهب فيـه مسـافة أبعـد في تنظـيره لمسـألة الحاكميـة، حـتى صـارت هـذه الفكـرة تحتـل الـركن الأساسـي في الكتاب". (المصدر السابق ص 134)

فسـوف يكـون النقـد لهـذا التفسـير الجديـد بالاقتصـار على أهم المؤلفات التي عرضت لهـذه النظريـة عنـد المـودودي وسـيد قطب، ومن خلال النقـد التحليلي سـوف تظهـر بـإذن اللـه حقيقـة الرسـالة الربانية.

الرسالة الربانية

ليس في منهج الرسل والأنبياء أن تكون السلطة السياسية هدفاً مباشــراً لــدعوتهم وليس من منهجهم الســعي للإطاحــة بالأنظمــة السياسية القائمة بدعوى إقامة "حاكمية الله". بـل إن اللـه قـد حـدد غاية إرسال الأنبياء والرسل وهي إقامة التوحيد الذي يعـني الخضـوع له وحده وإفراده بالألوهية "العبادة".

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰـهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء : 25)

ونظراً لأن الله خلق الحياة الـدنيا للاختبـار، فهـو قـد أرسـل الرسـل ليقيموا الحجة على خلقه:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء : 165)

ولهذا فقد جعل أساس الدعوة وقاعدتها الجوهرية هو الإنــذار من اليوم الآخر :

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الـرُّوحَ مِنْ أَمْـرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَـاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

(غافر : 15)

وينطبـق الأمـر على خـاتم الرسـل (صـلى اللـه عليـه وسـلم) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَـوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

(الشورى : 7)

ولكن بعض المفكرين المسـلمين زعمـوا أن اللـه أرسـل الرسـل لتقريـر : "حاكميـة اللـه القانونيـة" على البشـر، وأن هـذا هـو جـوهر النزاع الذي وقع بين رسـله والفراعنـة والنمـاردة أو أقـوامهم الـذين أرسلوا إليهم، وأن الهدف هو رد هـذه الحاكميـة المغتصـبة إلى اللـه، وزعم هـؤلاء المفكـرون أن أصـل الخلاف : من يحكم ؟ يقـول أبـو

الأعلى المـودودي "لم يكن الخلاف في وجـود اللـه وفي أنـه خلـق الخلق وبيده ملكوت كل شيء، فمن الظاهر أن الرسل مـا جـاءوهم ليدعوهم إلى تلك العقيدة التي كـانوا يعتقـدونها ويعـترفون بهـا، فلم كانت بعثتهم وعلى أي شيءٍ قام النزاع بينهم وبين من أرسـلوا إليهم من الأمم؟".

(نظرية الإسلام وهديه، ص : 15)

وجـواب المـودودي على أن قضـية الـنزاع ليسـت عبـادة الأوثـان والأصنام والكواكب والنجوم، لأن هذه كلهـا لا تنطـق ولا تسـتطيع أن تأمر الإنسان بأن يعبدها من دون الله يقول المودودي : "تحسـب أنَّه يوجد شـيء فيمـا خلـق اللـه من السـموات والأرض يقـوم في وجـه الإنسان، ويقول له : إني إلهك وربك فاعبدني ؟ أيـدعى ذلـك الحجـر أو الشجر أو الحيوان أو الشمس أو غيرها من الأجرام السـماوية. لا، لا، واللـه لا يقـوم في وجـه الإنسـان شـيء من هـذا يـدعى الألوهيـة والربوبية، بل إنمـا الإنسـان وحـده الـذي يبعثـه حب السـلطة وهـوى الأثرة على أن يجعل نفسه إلهاً لغيره من أبناء نوعه يستعبدهم وينفذ فيهم أمره".

(المصدر السابق : 17)

ومعلوم أن القرآن الكريم والسنة والتأريخ يثبت أن الإنسان عبـد كل هذه المعبودات من دون الله، ولكن المودودي يجعل أصل النزاع بين الرسل والأمم التي أُرسلوا إليها هو: "حاكمية البشر" عن طريق حصولهم على السلطة : "إنمـا الإنسـان وحـده هـو الـذي يبعثـه حب السلطة وهوى الأثرة على أن يجعل نفسه إلهاً لغيره من أبنـاء نوعـه يستعبدهم وينفذ فيهم أمره" ويقوم المودودي بتبرير نظريته هذه من خلال عرضه كمثال على ذلك النزاع الـذي حـدث بين إبـراهيم وملك العراق النمرود والذي ورد في القرآن الكريم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْـرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَـالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَـالَ إِبْـرَاهِيمُ فَـإِنَّ اللَّهَ يَـأْتِي بِالشَّـمْسِ مِنَ الْمَشْـرِقِ فَـأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْـرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة : 258)

ويعلق المودودي

"فـالنزاع لم يكن في أنــه من رب السـموات والأرض ومن بيـده ملكوت كل شيء بل كان جدالـه من هـو مالـك رقـاب النـاس عامـة والذين منهم في بابل خاصة؟ فلم يكن من دعواه أنـه اللـه بـل كـان يقول إني رب هذه البلاد وأهلها "

(نظرية الإسلام وهديه ص : 19)

وهذا التأويل ليس لـه أصـل عنـد المفسـرين كافـة وأهـل اللغـة. وعلى سبيل المثـال، يقـول المفسـر ابن كثـير في تفسـير الآيـة : "﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْـرِي فَأَوْقِـدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾، (القصص : 38) "

(أنظر تفسير ابن كثير : 1/556)

وحين يبحث صاحب "مفهوم الحاكمية" على دليـل أو قرينـة تثبت ما يقـول لا يجـد إلا أن يسـتدل بمقالـة فرعـون لملإه ليصـرفهم عن أتباع موسى :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (34) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (35)﴾

(الشعراء : 34 - 35)

يقول سيد قطب : "ولقد أدرك فرعون وملأه خطـر الـدعوة إلى رب العـالمين وأحسـوا أن توحيـد الربوبيـة معنـاه سـلب سـلطان فرعون، وسلطانهم المسـتمد عنـه فعـبروا عن هـذا الخطـر : ﴿ قَـالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (109) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (110)﴾ (الأعراف : 109 - 110)"

(في ظلال القرآن 9 / 9)

ومعلـوم أنـه لا يمكن أن يحتج بقـول فرعـون أو ملإه على معـنى توحيد الربوبية، لأن فرعون حين أعجزته الحيلة في مواجهـة التحـدي الذي كشفه موسى عن قـدرة اللـه لم يجـد بـداً من أن يصـرف هـذا الأمر إلى قضية وقتية وهي أن موسى يريد السـلطة ويريـد إخراجـه من مصر، وهو بلا شـك محض افـتراء وخديعـة اعتـاد الـذين ينكـرون الحق أن يستخدموها عنـدما يعجـزون عن إقامـة الـدليل على بطلان الحق، ومن العجيب أن يتجاوز المفسر معـنى الربوبيـة الحقيقي إلى المعنى الذي أراده فرعون وملأه.

فالمودودي يخالف المفسرين كافة في تأويلـه لمفهـوم **الربوبية** فهو يقول عن النمرود: " لم يكن منكراً لله بـل يعتقـد أن اللـه سـيد الكون وبيده مقاليد السماوات والأرض"

(نظرية الإسلام وهديه ص : 19)

وفي الألوهية يقول المودودي : "خلاصة القول أن أصـل الألوهيـة وجوهرها هو السلطة".

(المصطلحات الأربعة : ص 24 – ط 4)

أما سيد قطب فيقول – عن مفهوم الربوبيـة - : "إن رد الربوبيـة كلها لله سبحانه معناه رد الحاكمية كلهـا للـه، فالحاكميـة هي مظهـر ربوبية الله للناس. ويقول بنـاءً على هـذا التفسـير لمعـنى الربوبيـة : "لقد أدرك فرعون وملأه خطـر الـدعوة إلى رب العـالمين، وأحسـوا أن توحيد الربوبية معناه سلب سلطان فرعون ... أو كما يقال اليـوم في قوانين الجاهلية لمثل هذه الدعوة بذاتها أنها محاولة لقلب نظـام الحكم".

(في ظلال القرآن 9 / 9)

كيف يمكن أن يطالبا النمرود وفرعون بالحكم بما أنزل الله وهما لا يؤمنان بالله بل كانا يزعمان بألوهيتهما فضلاً عن أنه لا يوجد دليـل على أن الشـريعة قـد نـزلت على إبـراهيم أصـلاً حـتى يطـالب بهـا

النمرود، ومعلوم أن موسى لم تنزل عليه التوراة إلا بعد خروجه مع قومه من مصر، إن التفسير الصحيح هو أن خطاب إبراهيم وموسى عليهما السلام ودعوتهما ليس المقصود منها نزع سلطان النمرود أو فرعون أو الإطاحة بنظام السلطة القائمة في العراق ومصر، بل كان الخطاب دعوة للإيمان والتصديق بالله وإفراد العبادة له وحده، وهذا هو التفسير المجمع عليه من المفسرين كافة والشراح، ولقد تقدم المودودي أكثر في تفسيره لمعنى لا إله إلا الله بمعنى الحاكمية المشار إليها. فجعل أصل النزاع بين المشركين وخاتم الرسل – أيضاً – يدور في هذه الحلقة :

فيؤكد المودودي وكذلك صاحب الظلال أن معنى "لا إله إلا الله" لا يخرج عن مدلول "الحاكمية" أو أولى خصائص الألوهية. "لقد كان العرب يعرفون من لغتهم معنى "إله" ومعنى "لا إله إلا الله" كانوا يعرفون أن الألوهية تعني "الحاكمية العليا" وكانوا يعرفون أن توحيد الألوهية وإفراد الله – سبحانه – بها معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان و مشيخة القبائل والأمراء والحكام ورده كله إلى الله ... كانوا يعلمون أن "لا إله إلا الله ثورة على السلطان الأرضي الذي يغتصب أولى خصائص الألوهية".

(معالم في الطريق : ص 22)

وخلاصة الأمر عند أصحاب نظرية الحاكمية أن أصل دعوة الرسل إثبات حاكمية الله على البشر وهو ما كان المشركون ينكرونه، فهم يقبلون بربوبية الله، وينكرون حاكميته مثل فرعون والنمرود لأنهما كانا ينكران تنفذ شريعة الله، ولقد وصل الأمر بأن جعل المفسر (المودودي) الحكام كافة الذين لا ينفذون شريعة الله في مرتبة فرعون والنمرود "فهذه الألوهية التي ادعاها فرعون والنمرود ليست بقاصرة عليهما بل نجد كل الملوك في كل أرض وفي كل زمان ينتحلون تلك الألوهية ويدعونها" وينطبق الشرك من جهة أخرى على الناس، وكان الناس يقومون لهم بجميع ما يكون

آداب العبودية ... وما زال النـاس في العصـور الغـابرة سـائرين على هذه الخطة وكذلك حالهم اليوم في معظم أقطار العالم"

(انظر نظرية الإسلام وهديه 19 – 21)

الفرق

ومن أجـل دفـع الالتبـاس على القـارئ، في إدراك معـنى توحيـد الربوبيـة وتوحيـد الألوهيـة نشـير إلى الفـرق بينهمـا معتمـدين على القرآن وعلى شروح المفسـرين، وفي مقـدمتهم : الإمـام ابن تيميـة من خلال مؤلفاته كـ "رسالة العبودية".

أولاً : معنى توحيد الربوبية : هو إثبات وجود الله، وإثبـات صـفات الخلـق لـه، والملـك، والإحيـاء، وهـو الـذي يحـيي ويميت، وهـو رب السـموات والأرض. وكـان هـذا النـوع من التوحيـد لا ينكـره جـل المشـركين في العصـور القديمة، والقـرآن والرسـالات السـماوية السابقة تجعل هذا التوحيد أساسـاً لـدعوتهم إلى نبـذ عبـادة الأصـنام والأوثان وما يعبدون من دون الله إلى عبادة الله وحـده ومثـال ذلـك من القرآن :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَـخَّرَ الشَّـمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (61)ـ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62)ـ وَلَئِن سَـأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُـولُنَّ اللَّهُ قُـلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (63)﴾

(العنكبوت : 61 - 63)

وقال تعالى : ﴿ قـل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُـونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85)ـ قُـلْ مَن رَّبُّ السَّـمَاوَاتِ السَّـبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87)﴾

(المؤمنون : 84 – 87)

ثانياً : توحيد الألوهية، وهو الذي يلزم أو يأتي تبعاً لتوحيد الربوبيـة فهو الأخص وإذا كان توحيـد الربوبيـة يتعلـق بإثبـات الخـالق وأفعالـه

وصفاته، فتوحيد الألوهية يتعلق بأفعال العبد تجاه خالقـه وربـه الـذي آمن بـه، و الألوهيـة – في اللغـة – بمعـنى العبـادة، وهي المطلـوب الأصلي من العبد تجاه ربه، وهي أصل الدعوة الإسلامية عند الرسـل كافة :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰـهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾

(الأنبياء : 25)

ومعنى **"لا إله إلا الله"** لا معبود بحق سـوى اللـه، وعنـدما يقـرّ العبد بصـدق بهـذه الحقيقـة فإنَّه يكـون قـد نفى عن نفسـه الشـرك وأثبت أن العبـادة و الألوهيـة من حـق اللـه وحـده، أي لا ينبغي أن تصرف لغير الله، والعبادة بمعنى التذلل والخضوع للمعبود، وتشـتمل على الحب والخشـية، والعبـادة واقـع شـعوري، ولا يمكن أن تكـون عبـادة المسـلم ناقصـة أو غـير مقبولـة عنـد اللـه إذا لم يكن الحكم بالشريعة قائماً، يقول الإمام ابن تيمية : "وعبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره أو اسـترقه فـاجر بغـير حـق لم يضـره ذلـك إذا كـان قائمـا بمـا يقـدر عليـه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه له أجران، ولـو أكـره على التكلم بـالكفر فتكلم بـه وقلبـه مطمئن بالإيمـان لم يضره ذلك، وأما من استعبد قلبه فصار عبـداً لغـير اللـه فهـذا يضـره ولو كان في الظاهر ملك الناس".

(رسالة العبودية : ص 20)

وكما نلاحـظ أنَّ دعـوة الرسـل تقـوم على أسـاس إثبـات توحيـد الربوبية والألوهية معاً لله، وكان الأسـلوب الـذي انتهجـوه هـو إثبـات الربوبية لإثبات الألوهية كما هـو في حـوار موسـى عليـه السـلام مـع فرعون :

﴿ قَـالَ فِرْعَـوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَـالَمِينَ (23)ـ قَـالَ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24)ــــ قَــــالَ لِمَنْ حَوْلَـــــهُ أَلَا تَسْــتَمِعُونَ (25)ــ قَــالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَــائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)ــ قَــالَ إِنَّ رَسُــولَكُمُ الَّذِي أُرْسِــلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُــونٌ (27)ــ قَــالَ رَبُّ الْمَشْــرِقِ وَالْمَغْــرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُــونَ (28)ـ قَـالَ لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29) ﴾

(الشعراء : 23 – 29)

يعلق ابن كثـير على هـذا الحـوار: "يقـول تعـالى مخـبراً عن كفـر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله :

﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وذلك أنه كان يقول لقومه ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾

(القصص : 23- 38)

﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾

(الزخرف : 54)

وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا، ويعتقـدون أنَّ لا رب لهم سـوى فرعون، فلما قال لـه موسـى : إني رسـول رب العـالمين . قـال لـه فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنَّه رب العالمين غيري ! هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف . حتى قال السدى :

هذه الآية كقوله تعالى :

﴿ قَـالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَـىٰ (49)ـ قَـالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُـلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (50)﴾

(طه : 49 – 50)

ومن زعم من أهل المنطق وغـيرهم أن هـذا سـؤال عن الماهيـة فقد غلط، فإنَّه لم يكن مقراً بالصـانع حـتى يسـأل الماهيـة بـل كـان جاحداً له بالكلية فيما يظهر.

(تفسير ابن كثير : 5 / 178)

والقرينة التي يسوقونها أيضاً للتدليل على نظرية الحاكمية قوله تعالى :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾

(الأنعام : 57)

وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾

(آل عمران : 154)

ومعلوم أن الأمر في مثل هذه السياقات لا يقصد به (الحكم السياسي) أو القانوني، بل هذه صفة من صفات الربوبية للخالق، وتعني مطلق القدرة على التصرف والقضاء في مخلوقاته، وهو ما يسميه الإمام ابن تيمية وغيره " الأمر القدري أو الحكم الكوني" وهو غير الحكم الشرعي، ويقول الإمام ابن كثير في تفسيره للآية: ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ في سورة يوسف عليه السلام: أخبرهم – يوسف لصاحبيه في السجن – إن الحكم والتصرف والمشيئة كله لله "تفسير ابن كثير" ولهذا فلا يصح القول أن هؤلاء الحكام اغتصبوا "حكم الله" لأن حكم الله المطلق بيده، وهي صفة من صفات الربوبية

﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾

(الكهف : 26)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

(المائدة : 1)

ولو سلمنا بتأويل هؤلاء المفكرين لصار الأمر لغير الله، ولصار الحكم بيد البشر، ولو كان ذلك حقيقياً كما يزعم هؤلاء المفكرون إذن لكانوا أرباباً فعلاً، وهذا كما هو واضح عند كل المفسرين المتدبرين في القرآن، قياس فاسد، وهو قياس لا يقول به إلا من

جعـــل معـــنى (الحكم) في الآيـــات (الحكم السياســـي) أو (الملـــك الأرضي) الذي هو بيد الله وليس بيد غيره حسب منطوق الآية :
 قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْـكَ مِمَّن تَشَاءُ

(آل عمران : 26)

ويقدم المودودي قرينة أخرى في غير سياقها، وهي الآية التالية – في وصف أهل الكتاب "النصارى" - :

 اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُـبْحَانَهُ عَمَّا يُشْـرِكُونَ (31)

(التوبة : 31)

وعبادة أهل الكتاب لأحبـارهم ورهبـانهم " كمـا فسـرها الرسـول **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** لعـدي بن حـاتم الطـائي" بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم".
(ابن كثير 3 / 385)

إنَّ أهم نقطـة في خطـأ الاسـتدلال بهـذه الآيـة لتـدعيم نظريـة الحاكمية، أن العبادة المشار إليها صرفت للأحبار والرهبان أيّ رجـال الدين عند النصارى وليس لذوي السـلطة فيهم لسـبب واضـح وجلي وهو أنّ الطاعة الدينية تقدم لمن يفـترض فيهم القدسـية والعصـمة، وهي انحراف خطير وقع في أهل الكتـاب لتقديسـهم الأعمى لرجـال دينهم، ولقد أورد الإمـام ابن تيميـة الأثـر التـالي عن أبي العاليـة في تفسير الآية بما يؤيد هذا الواقع :

"كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهـوا عنه، فقالوا لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنـا ومـا نهونـا عنـه

انتهينا لقولهم، فاستصحبوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهـورهم". (الإيمان : 64)

فهذا الحكم ينطبق على رجال الدين بالدرجة الأولى ولهـذا يقـول أحد العلماء المعاصرين : "والحق أن قداسة أولى الأمر أو عصـمتهم أو الظن أن أوامرهم كأوامر الله تعالى أو أنّ لهم أن يحلوا ما حرمـه اللـه أو يحرمـوا مـا أحلـه اللـه ذلـك كلـه معـدوم الوجـود بين غـالب المسلمين". (دعاة لا قضاة : ص 105)

وكمـا أدى الاسـتدلال بالآيـة السـابقة إلى إلصـاق "الشـرك" بالمسلمين المعاصرين، كذلك استدلوا بالآية :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾
(المائدة : 44)

فزعموا على ضوء هذه الآية أن الحاكم بغير ما أنزل الله قد كفـر فهـو "طـاغوت" وقـالوا : إن الكفـر بالطـاغوت لازم (ومن لم يحكم بكفر هذا الأخير فهو بدوره لم يحكم بما أنزل الله فهـو كـافر)، ولقـد ذكـر الإمـام ابن تيميـة في صـدد تأويـل هـذه الآيـة قـول السـلف أنّ الإنسان يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر "فكذلك في قولهم أنه يكون فيه إيمان وكفر ليس هو الكفر الذي ينقل عن الملة كمـا قـال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى :

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، قالوا كفـر لا ينقل عن الملة وقد تبعهم على ذلك الإمام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة".

(أنظر : الإيمان 184 – دار الكتاب العربي)

ولقد أورد الطبري رواية عن طاوس بن كيسـان عن أبيـه، قـال : سئل ابن عباس عن قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم ﴾ قال : به كفر، قـال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال الثوري عن ابن جريح عن عطاء أنه قال : كفر دون كفر وظلم دون ظلم.

(أنظر تفسير الطبري – في موضع الآية وابن كثير في تفسيره 2 / 579)

نتيجة التفسير الخطأ

وفي ضوء التفسـير السـابق تقـدم صـاحب الظلال ليطلـق صـفة الجاهليـة على كـل المجتمعـات الإنسـانية المعاصـرة بمـا في ذلـك المجتمعـات المسـلمة الـتي تـدين بالإسـلام ولكن هـذا الإسـلام عنـد صاحب الظلال لا يعترف به ولا مشروعية له: "إنه يـرفض الاعـتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها وشرعيتها في اعتبـاره". (معـالم في الطريق : ص 93)

ويقدم صاحب الظلال تعريفاً للمجتمع الجاهلي في ضوء "نظريـة الحاكمية" :

"وهو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطـار المجتمـع الجـاهلي جميـع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض"
(المصدر السابق : ص 88 – 89)

ويضع المؤلف كافة المجتمعات القائمة اليـوم في مسـتوى واحـد من الجاهلية.
"المجتمعـات الشـيوعية والوثنيـة ... واليهوديـة والنصـرانية .... وأخيراً يدخل في إطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تـزعم لنفسها أنها مسلمة".
(المصدر السابق : ص 91)

والمجتمع الجاهلي في نظر المؤلـف ليس تعبـيراً رمزيـاً أو صـفة مجازية بل تعبير محدد يعني :"الشرك" وهو الشرك نفسه الذي كان عليه أهل الجاهلية الأولى، يقول المؤلف : "وهذا مـا ينبغي أن يتبينـه الذين يريدون أن يكونوا "مسـلمين" فلا تخـدعهم عن حقيقـة مـا هم

فيه خدعة أنهم مسلمون اعتقـاداً وتعبيـداً. فـإن هـذا وحـده لا يجعـل الناس "مسلمين" ما لم يتحقق أنهم يفردون الله سبحانه بالحاكميـة، ويرفضون حاكمية العبيد ويخلعون ولاءهم للمجتمع الجاهلي ولقيادتـه الجاهلية، إن كثيراً من الطيبين تخدعهم هذه الخدعة .. وهم يريــدون لأنفســهم الإســلام ولكنهم يخــدعون عنه، فــأولى لهم أن يســتيقنوا صورة الإسلام الحقيقية .. والوحيـدة وأن يعرفـوا أن المشـركين من العرب الذين يحملون اسـم "المشـركين" لم يكونـوا يختلفـون عنهم في شيء ! فلقد كانوا يعرفون الله بحقيقتـه كمـا تبّين ويقـدمون لـه شفعاء من أصنامهم، وكان شركهم الأساسي يتمثل – لا في الاعتقـاد – ولكن في الحاكمية."

(في ظلال القرآن : 3 / 265 ط.5)

وهكذا يتـبين مـدى الانحـراف الفكـري الـذي وقـع فيـه المؤلـف، والواقع أنّ إطلاق صفة الجاهلية المطلقة على المجتمعات المسـلمة لم يحدث لها نظير في التأريخ الإسلامي بأسره إلا عند طائفة واحـدة هي طائفـة الخـوارج والغلاة منهم ، وإنـه من المسـلم بـه أن تكـون بعض شعب الجاهلية أو سـننها قـد وجـدت أو توجـد في المجتمعـات المسـلمة في وقت ما، ولكن أن توضـع كافـة المجتمعـات المسـلمة على قدم المساواة مع مجتمعات الجاهلية المشركة قديماَ أو حــديثاً، فهو تجاوز لحدود العدل والقصد، وأحرى بالمسـلم كائنـاً من كـان أن يتوقَّى هذا الغلوّ.

يقول الإمام ابن تيمية: "فالنـاس قبـل مبعث الرسـول **(صلى اللـه عليه وسلم)** كانوا في حال جاهلية منسوباً إلى الجهل فإن ما كانوا عليه من الأقوال والأعمال إنما أحدثه لهم جهّال، وإنمـا يفعلـه جاهـل وكذلك ما يخالف مـا جـاء بـه المرسـلون من يهوديـة ونصـرانية فهي جاهلية .... وتلك كانت الجاهلية العامة فأما بعدما بعث الله الرســول **(صلى الله عليه وسلم)** فالجاهلية المطلقة قد تكـون في مصـر دون مصــر كمــا هي في دار الكفــار، وقــد تكــون في شــخص دون شخص كالرجل قبل أن يسـلم فإنّـه يكـون في جاهليـة وإن كـان في

دار الإسلام فإما في زمان مطلق : فلا جاهلية بعد محمد **(صلى الله عليه وسلم)** ."

(اقتضاء الصراط المستقيم : ص 78)

ولخطورة الحكم بالشرك أو الكفر على المسلمين فلقد حذر الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** من ارتكاب هذا الخطأ الذي يؤدي إلى اقتراف جريمة قتل المسلمين بدون حدود، فلقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال، قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)**: إنَّ مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه وكان رداؤه الإسلام فاعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك.

"قال حذيفة: قلت يا نبي الله أيّهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي، قال : "بل الرامي".(قال الحافظ بن كثير : إسناده جيد)،

(أنظر تفسير ابن كثير 3 / 252)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)**: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر باء بها أحدهما فإن كان كما قال، وإلا رجعت عليه ".(متفق عليه)

وقال **(صلى الله عليه وسلم):** من دعا رجلاً بالكفر أو قال يا عدو الله وليس كذلك إلا رجعت عليه".(متفق عليه)

وقال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** يحذر من استباحة دماء المسلمين :

"من خرج على أمتي يضرب برّها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهدها فليس مني ولست منه"
(روه مسلم / باب الإمارة والنسائي في تحريم الدم وابن ماجة في الفتن / باب المعصية)

ومع أهمية ووجوب العمـل من أجـل تطـبيق الشـريعة الإسـلامية عند وجود حرية الاختيار الاجتمـاعي للمجتمـع الإسـلامي، فإنـه ينبغي ملاحظة الفرق بين الدين الأساسي وهو التوحيد الدين المتفـق عليـه بين كافة الرسل والأنبياء، والذي أمر الله بإقامته وعدم التفـرق فيه، ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾، في سورة الشـورى، الآيـة (13)، وسورة البينـة، الآيـة (5)،ـ ﴿ وَمَا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُـدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـينَ لَـهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُـوا الزَّكَـاةَ وَذَٰلِـكَ دِينُ الْقَيِّمَـةِ﴾، ومن بين الأمور الفرعية للـدين (الرسـالة السياسـية) وهي الـتي اصـطلح عليها العلماء بـإسم الإمامة، وباتفاق وإجماع الأمة إنّ نظرية الإمامة ليست من أصول الدين بـل من الأمـور الاجتهاديـة، وهي ليسـت من العقائد بل من الفـروع، ولقـد رد الإمـام ابن تيميـة على من زعم أن قضية الإمامة أهم المطالب في الدين وأحكم المسائل، فقال : "بأنه كذب بإجماع المسلمين سنيهم وشـيعيهم بـل هـو كفـر فـإن الإيمـان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة"

(منهاج السنة : 1 / 48)

وقـال أيضـاً : "إنهـا ليسـت من أركـان الإسـلام الخمسـة ولا من أركان الإيمان الستة ولا هي من أركان الإحسان"

(منهاج السنة : 1 / 70 – 72)

ولهذا السبب فإن الخلاف في الإمامة لا يقتضي الكفر أوالإيمـان:

"واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شيء منه التكفير"

(الغزالي / فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ص 15)

ويقول الغزالي أيضـاً : "إن نظريـة الإمامـة ليسـت من المهمـات (الأصول) وليست من فن المعقولات، بـل من الفقهيـات" (الأمـور الاجتهادية).

(الاقتصاد في الاعتقاد : ص 134)

ويقول الإمـام الجويـني إمـام الحـرمين : "إن الكلام في الإمامـة ليس من أصـــــــــــــــــول الاعتقـــــــــــــــــاد".
(الإرشاد : ص 410)

لقد بدأت دعوة الرسول في مكة وقامت أساساً على التوحيد ولم يؤثر عن الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** أن طرح قضية السلطة السياسية على قريش أو على من أسلم معه، وفي هذا يقول الإمام ابن تيمية : "من المتواتر أن الكفار على عهد رسول الله (صلي الله عليه وسلم) كانوا إذا أسلموا أجرى عليهم أحكام الإسلام ولم يذكر لهم الإمامة بحال ولا نقل عن الرسول (صلي الله عليه وسلم) أحد من أهل العلم ولا نقلاً خاصاً ولا عاماً بل نحن نعلم بالاضطرار أن النبي (صلي الله عليه وسلم) لم يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة لا مطلقاً ولا معيناً فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين"

(منهاج السنة : 1 / 49)

والحقيقـة أن خصـومة خـاتم الرسـل لقـريش لم تكن حـول من يحكم، ولم تكن سياسية بل هي واضحة كما أعلنها القرآن : "الإنذار" من اليوم الآخر والـدعوة إلى التوحيـد والإيمـان برسـالته ومسـاعدته لتبليغها للناس كافـة وحين عرضـت قـريش على الرسـول أن يكـف عن الدعوة للتوحيد مقابل الموافقة على أي مطلب آخر يريده، قـال الرسول (صلي الله عليه وسـلم) : "مـا جئتكم بمـا جئتكم بـه أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثـني رسـولاً وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونـذيراً فبلغتكم رسـالة ربّي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

(ابن كثير / البداية والنهاية : 3 / 50)

وكان موقف الرسول من قضية السـلطة السياسـية أنهـا في يـد الله يؤتيهـا من يشـاء وذلـك هـو رده على قبيلـة كنـدة عنـدما قـالت

لرسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** "إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعـدك؟"ـ فقـال الرسـول : إنّ الملـك للـه يجعلـه حيث يشـاء" (البداية والنهاية).

فلم يستغل هذا العرض حتى بدعوى إمكانية نشر الدين أو تطبيق الشريعة بل مضى على منهجه الكريم في تبليـغ الرسـالة كمـا أمـره ربه :

 ادْعُ إِلَىٰ سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُم بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَـنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَـلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ

(النحل : 125)

 فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22)

(الغاشية : 21 - 22)

عقبة الشرك

في الماضي كانت الدعوة إلى التوحيـد تواجـه عقبـة عظيمـة هي فتنة الشـرك، ولم يكن في ذلـك الـوقت الشـرك عبـارة عن عقيـدة شخصية لفرد مـا بـل كـان العقيـدة المسـيطرة على جـوانب الحيـاة الفكرية والاجتماعية للإنسان كافة، وكان اختيار التوحيد عقيدة معناه مواجهة فتنة عظيمة تبدأ بالاضطهاد والقهر والعذاب وتنتهي بالتشـرد والقتل وعلى سـبيل المثـال عنـدما أعلن السـحرة في زمن فرعـون الإيمان :

آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (طه : 70)

كان جواب فرعون :

 فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْـدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَـلِّبَنَّكُمْ فِي جُـذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ

(طه : 71)

وهكـذا الحـال كـان من أصـحاب الأخـدود مـع الـذين آمنـوا باللـه وحده :

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾
(البروج : 8)

كان هذا هو جزاء أهل التوحيد في عصـور الظلمـات عنـدما كـان الشرك مرتبطاً أشد الارتباط بكل جوانب الحياة الدينية والاجتماعية.

وعندما بعث الرسول الخاتم **(صلى الله عليـه وسـلم)** واجـه هو وأصحابه الموقف نفسه من قومه الـذين كـانوا يـدينون بالشـرك، ولقد تعرض الرسول والصحابة الذين آمنوا به في مكة لفتنة الشـرك حتى أمر الرسـول المؤمـنين بـالهجرة إلى الحبشـة ثم إلى المدينـة، وكان غاية الهجرة هي الحصول على الأمن لعبادة الله وتوحيده الـتي كانت غير ممكنة في مكة في ذلك الوقت وهو ما يسمى في العصـر الحديث بـ (حرية العبادة)، ولقد دلل القرآن على هذا :
﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُـذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ كَثِـيرًا وَلَيَنصُـرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُـرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾
(الحج : 40)

فلم تكن هجرة الرسول والصحابة لأسباب سياسية، ولم يكن الرسول والصحابة يمثلون دور المعارض السياسي لقريش بل كان الباعث دينياً بحتاً وهو حرية العبادة وتبليغ الرسالة الإلهية للناس، وذلك ما رفضت قريش السماح به لرسول الله عليه السلام حتى وصل الأمر إلى حد التآمر على قتله ولكن الله فتح باب النصرة لرسوله في المدينة وقصة ذلك أن الرسول عندما شعر باستحالة تبليغ الرسالة في مكة طلب النصرة والحماية من قبائل العرب كافة لهذا الأمر ومن أجل ذلك كانت رحلته للطائف وعرضه لنفسه على أحياء العرب في مواسم الحج كما ورد في كثير من الروايات في السيرة وعلى سبيل المثال، عندما عرض نفسه على قبيلة بني عامر

بن صعصعة فقال لهم : "إني رسول الله وآتيكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ولا أكره أحداً منكم على شيء."

(أنظر البداية والنهاية : 3 / 141)

ولقد وافق الوفد من القبيلة في البداية معلنين "ولكنا لا نطــردك ولا نؤمن بك وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربـك" ولكن منعهم من ذلـك بحيرة بن فراس من قبيلتهم: "أتعمدون إلى زهيق قـد طـرده قومـه وكذبوه فتؤونه وتنصرونه فبئس الرأي رأيتم"

(أنظر البداية والنهاية : 3 / 141)

ولهذا السبب وحده أمر الله بالقتال لإزالة فتنة الشرك الجارح :
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾
(الأنفال : 39)

ولقد فسر الصحابي عبد الله بن عمر هذه الآية في ضوء سـياقها التـأريخي، فمـيز بين القتـال لإزالـة فتنـة الشـرك، والقتـال لأغـراض سياسية، وهو الأمر الذي جهله كثير من بعـده، لقـد ورد في البخـاري أن سعيداً بن جبـير قـال: خـرج علينـا عبـد اللـه بن عمـر فرجونـا أن يحدثنا حديثاً حسناً، قال : فبادرنا إليه رجل فقال : يا أبا عبد الـرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول :
﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَـإِنِ انتَهَـوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فقال (عبد الله) : "هل تدري مـا الفتنـة ثكلتـك أمـك، إنمـا كـان محمـد (صـلى اللـه عليـه وسـلم) يقاتـل المشــركين وكــان الــدخول في دينهم فتنـــة وليس كقتــالكم على الملك". وحين دعي للمشاركة في الفتنـة الـتي وقعت في زمن عبـد الله بن الزبير وتليت عليه الآية : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾... قال : "قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله" وفي رواية أخرى قال عبـد الله بن عمر : "فعلنا ذلك على عهد رسول الله **(صلى اللـه عليـه**

وسلم) حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنـة". هـذه الروايـات كلهـا قـد وردت في صحيح البخاري.
(في تفسير سورة البقرة، ووردت كذلك في تفسير ابن كثير 1 / 403).

وكما يتضح من هذه الآثـار فـإن الجهـاد القتـالي كـان موجهـاً في الأساس لإزالة فتنة الشرك، وأن الوضع قد تغير بعد جهـاد الرسـول والصحابة بعد القضـاء على الفتنـة، وفقـد الشـرك سـيطرته التامـة، وكما قال عبد الله بن عمر : "قاتلت وأصحابي حتى كـان الـدين كلـه لله، وذهب الشرك ولم تكن فتنة".
(ابن كثير 3 / 317)

وكان ذلك أعظم تغيير حـدث في التـأريخ الإنسـاني لأن اللـه قـد أراد بإرسـال الرسـول الخـاتم (صـلى اللـه عليـه وسـلم) إخـراج النـاس من الظلمـات إلى النـور : ﴿ الر كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾
(إبراهيم : 1)

ولقد تحقق هـذا الوعـد الإلهي عنـدما أصـبح التوحيـد ظـاهراً في الأرض وأصبح اختياره كعقيدة لا تنجم عنه فتنة ما، ولم تعـد للشـرك السـيطرة الـتي كـانت لـه في الماضـي، وأصـبح عبـارة عن اختيـار شخصي.

وفي مثل هذا الجو ساد الدين الإسلامي وانتشر في بقــاع الأرض ودخـل النـاس فيـه أفواجـاً في كـل زمن حـتى هـذا الـوقت. وبوسـع الإنسان المسلم في ظل مبدأ حريـة العبـادة أن يعيش في دول غـير مسلمة وأن يـزاول عبادتـه بمسـاعدة السـلطة القائمـة الـتي تكفـل حرية الدين والعبادة للجميع.

إن رسالة الدعوة والجهاد يجب أن تقـوم الآن بكـل قـوة وليـدفع فيها الغالي والرخيص دون حاجة إلى سفك الدماء، بل إن المطلـوب

هـو العكس تمامـاً وهـو تجنب أي عمـل يؤدي إلى إعـادة الفتنـة إلى الأرض، ولقد كان عبد الله بن عمر محقـاً عنـدما قـال لأولئـك الـذين جعلوا "السـلطة" هـدفاً لعملهم ونـزاعهم : "قـد قاتلنـا حـتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله، وأنتم تريدون أن تقـاتلوا حـتى تكـون فتنـة ويكون الدين لغير الله".

(تفسير ابن كثير : 3 / 317)

الفريضة الغائبة

وكما تبين لنا من السابق أن العمل على نزع السلطة أو منازعــة أولي الأمر ليس فريضة من فـرائض الـدين، فإنـه جـدير بنـا أن ننبـه على أن الفريضة الحقيقية المطلوبـة من الأمـة الإسـلامية هي تبليـغ رسالة الإسلام للناس كافة وهـذا هـو العمـل الهـام الـذي تخلى عنـه المسلمون في العصور المتأخرة.

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾
(البقرة : 143)

ومعنى (الأمة الوسط) الأمة الـتي تقـوم وسـطاً بين اللـه وخلقـه لتبليغ رسالته إليهم، ولتكون شـهيدة عليهم يـوم القيامـة بـذلك، كمـا يكون تماماً الرسول محمد **(صلى الله عليه وسلم)** شـهيداً على الأمة الإسلامية.

وقد اختار اللـه الأمـة الإسـلامية لتقـوم مقـام الرسـول إلى يـوم القيامة، كما اختار الله الرسل في الماضي لتبليغ رسالاته السـماوية، وقد أمر الله الأمة الإسلامية بالجهاد في سبيل هذه المهمة :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

(الحج : 78)

وجهاد الأمة الإسلامية يكمن في بذل أقصى الجهود في تبليغ هذه الرسالة للناس كافة ليتبين لهم طريقة الهداية الربانية كما هي في (القرآن الكريم). وهو نفس الجهاد الذي أمر الله به رسوله : ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا)

(الفرقان : 52)

وكما هو معلوم في اللغة العربية أن معنى الجهاد هو بذل الوسع والطاقة أو أقصي الجهد، وهو المطلوب الأساسي من أجل نشر رسالة الدين عن طريق الدعوة والمجاهدة بالقرآن حتى لا يكون لأحد حجة يوم القيامة بأنه يجهل الهداية الإلهية التي هي وسيلة الإنقاذ من عذاب الله والفوز بنعيم الجنة الأبدي. وهذا هو هدف شهادة الحق "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" الآية.

وأسلوب الإنذار والتبشير هو الأسلوب الحقيقي الذي شرعه الله من أجل توضيح الرسالة القرآنية أيضاً وهو الذي اتبعه الرسول والصحابة التزاماً بتعاليم القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46)﴾

(الأحزاب : 45 - 46)

ولقد أمضى الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** حياته في سبيل تبليغ الرسالة الإسلامية بكل ما أوتي من جهد وقوة، وأمر أصحابه بأن يبلغوا عنه هذه الرسالة كما أراد الله:

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾
(يوسف : 108)

العمل على ضوء الخطة الربانية

إن أخطـر مـا يواجـه الـدعوة الإسـلامية في العصـر الحاضـر هـو الخصومة التي تنشأ باسم الدين وتحت راية الاحتجاج بمطالب دينيـة. إن هذه الخصومة تتحول إلى عقبة كبرى أمام قيام الـدعوة، والعـالم العربي والإسلامي يقدم في العصر الحديث أمثلة شاهدة على ذلـك، فلقد نشـأت خلال هـذا القـرن حركـات إسـلامية وقفت في مسـتوى الخصم السياسي للحكومات، ولقد حدث بسـبب هـذا اصـطدام كـان من نتيجته فسـاد جـو الـدعوة والعمـل الإسـلامي، ولقـد وصـف أحـد المفكرين هذا الواقع بالكلمات التالية :

"لم يحدث في تاريخ الإسلام بأكمله واقع مؤلم كهذا الواقع، وهـو أن جميــع الحركــات الإســلامية رأت أن المواجهــة السياســية هي المطلوب الوحيد فجعلت من الإسلام نداً للسلطة".

(وحيد الدين خان إمكانيات جديدة للدعوة : 24)

والسبب الأساسي لهذا الصدام يعود إلى تفسير الإسلام تفســيراً سياسياً وبالتالي تحولت كل الجهودٍ والطاقـات إلى ميـدان السياسـة الصـدامية. لا ريب أن هنـاك خطـأً كبـيراً في فهم حقيقــة الرسـالة الإسـلامية، وهي في جوهرهـا هدايــة النـاس إلى خـالقهم ودعـوتهم لتوحيده وتنبيههم عن طريق الإنذار والتبشير بقضية اليوم الآخر حتى تقوم عليهم الحجة، وهذا هو معنى العمـل في ضـوء الخطـة الربانيـة التي بينها القرآن لإنذار الناس من اليوم الآخر، وتبشيرهم بوعـد اللـه الحق الجنة، ودعوتهم للإيمان والتوحيـد الخـالص، إن الآخـرة ليسـت قضية هينة أوتافهة كمـا يظن كثـير من المسـلمين ونعـني مفكـريهم وزعمائهم بل هي أخطر قضـية تواجـه الوجـود الإنسـاني، وجهنم هي الكارثة الكونية التي لا يمكن بأي حال من الأحوال وصف أهوالها وما تحملـه من هلاك بيّنٍ، إن هـذه الحقيقــة هي الــتي يسـميها القــرآن "الطامــة الكــبرى" أو "النبــأ العظيم" ومعنـاه أن أي نبـأٍ لا يمكن أن

يرقى إلى مستوى هذا النبأ، والحياة الـدنيا عبـارة عن ميـدان اختبـار ومن شروط الاختبار امتلاك الحرية، فالفساد الـذي يواجهنـا في هـذا العـالم مـع أن اللـه يمقتـه ولا يحب أهلـه إلا أنـه جـاء نتيجـة لامتلاك الإنسان حرية التصرف فهو لازم لسوء استعمال الحريـة، ولقـد أعلم الله ملائكته بذلك حين خلق الإنسان:

 قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الـدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَـبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

(البقرة : 30)

إن الذي أمهل رأس الشر والفساد في الأرض – وهو الشيطان – يمهـل الـذين يقتفـون سـلوك الشـيطان، إن الشـيطان يـدعو حزبـه ليكونوا من "أصحاب السـعير" واللـه يـدعو إلى "دار السـلام" وأهـل الإيمان وورثة الرسالة الإلهية ينبغي أن يقوموا على مسـتوى الخطـة الربانية، وليس على أسـاس ردود الفعـل الوقتيـة وليس من الخطـة الإلهية أن تكون الدنيا مجالاً للكمال البشري طالما أن حرية الإنسـان واردة، وسـوء اسـتعماله للحريـة يقـوده للخطـأ في كـل حين، لـذلك فالمطلوب من المسلمين أن يصبروا كما صـبر اللـه على ذلـك كلـه، وأن يعملوا وفق هدف الأنبياء وهو الإنذار من يوم اللقاء :
 يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ

(غافر : 15)

ويوم القيامـة سـيكون العـذر قـد قطـع على الكفـار، وذلـك حين يواجهون الكارثة الرهيبة:

 وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ

(الزمر : 71)

وهكذا فإن الدعوة الإلهيـة عبـارة عن إتمـام الحجـة على النـاس، وفتح أبـواب الرحمـة الإلهيـة أمـامهم عن طريـق الإيمـان والعمـل الصالح، والداعيـة الربـاني يصـوغ فكره وسـلوكه في ضـوء الحقـائق الأبدية العليا وليس في ضوء الانفعال الوقتي وردود الفعـل الفوريـة، ولا يمكن تسمية ردود الفعل أو وصفها بأنها "جهـاد في سـبيل اللـه" إن تلك التسمية غير صحيحة مهما كانت النوايا حسنة.

القرآن الكريم يذكر أن مسألة تمكين الأمة الإسـلامية في الأرض يأتي كجزاء لوفائها بالهدف المطلوب منها، فهو إنعـام يسـتحقه أهـل الإيمـان لوفـائهم بمسـؤولياتهم، واللفـظ القـرآني الخـاص بـذلك هـو "الوعد".

 وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْـــــــــتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَـوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُـدُونَنِي لَا يُشْـرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

(النور : 55)

وفي قصة نبي الله يونس عبرة عظيمة أمر الله بالاستفادة منها.

لقد أرسل الله يونس إلى قرية نينوى في العـراق الحاليـة، وبعـد أن قضى يونس عليه السلام فـترة من الـزمن يـدعوهم إلى التوحيـد أعرضوا وكذبوا فتركهم قبل إقامة الحجة عليهم، ولقد فاجأه العقـاب الإلهي ووجد نفسه في بطن الحوت:

 فَاصْـبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَـاحِبِ الْحُـوتِ إِذْ نَـادَىٰ وَهُـوَ مَكْظُومٌ (48) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (49)

(القلم : 48 - 49)

وحين أنجاه الله من هذه المحنة ورجع إلى قومـه لـدعوتهم رفـع الله بأسه عنهم بعد أن استجابوا وآمنوا :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَـوْمَ يُـونُسَ لَمَّا آمَنُـوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾

(يونس : 98)

أن الله يتصف بالكمال ومن صفاته الحسنى (الرحمة) فهو رحمن رحيم ومن رحمته إنجاد عباده بكل وسـيلة للهدايـة حـتى يكونـوا من أصحاب الجنة :

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ ﴾

(يونس : 25)

ومما يتعارض مع صفة الرحمة ترك الناس بدون هداية الرسل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(الإسراء : 15)

وحين لا يقوم أتباع الرسول الخاتم بدور الهداية فكيف يسـتحقون من اللـه التمكين والنصـر والعصـمة من أعـدائهم، ولقـد جعـل اللـه العصمة في تبليغ الرسالة :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُـولُ بَلِّغْ مَا أُنـزِلَ إِلَيْـكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَـلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾

(المائدة : 67)

إن عمل الدعوة وتبليغ الرسالة من أهم الأعمـال عنـد اللـه لأنهـا السبيل للعذر وإقامة الحجة في الحـديث : "لا أحـد أحب إليـه العـذر من الله، من أجل ذلك بعث النبين مبشرين و منذرين "

(رواه البخاري ومسلم)

ولا زال أتباع الرسول العـربي هم المسـؤولون عن ذلـك في كـل مكان، ومعلوم أن إتمام الحجة، وإقامة الشهادة لا يتم إلا بالجهاد في تبليغ هذه الرسالة عن طريق الإنذار والتبشير أسـوة بعمـل الرسـول حتى يتهيأ لكافـة النـاس الاسـتعداد لليـوم الآخـر عن طريـق الإيمـان والعمل الصالح، وحين يتخلى المسـلمون عن أداء هـذا العمـل الهـام لن يكون لأي عمل آخـر أهميـة عنـد اللـه، والقـرآن قـد نبـه على أن اللعنة تحيق بمن يقترف جريمـة الكتمـان للبينـات بعـد نزولهـا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُـونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَىٰ مِن بَعْـدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۙ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾

(البقرة : 159)

(3) خطأ في المنهج

إن القـرآن وتعـاليم الرسـول همـا المعيـار الأصـلي لـدين الله، وانحراف المسلم عن الدين الإلهي ليس بالضرورة أن يكـون بـرفض الدين، ولكن بالخضوع إلى تفسير غـير مطـابق لحقيقـة الـدين، فـإذا كان القرآن هـو منبـع تفسـيرك ودينـك فسـوف يكـون هـذا التفسـير المصدر المعـبر عن فكـرك كلـه، وإذا كـان تفسـيرك وفهمـك للـدين مقتبسـاً من مصـدر آخـر فسـوف يكـون ذلـك المصـدر هـو المعـبر والمهيمن على فكرك، ولا يمكن أن تقوم الوحدة بينك وبين دين الله على المســتوى الشــعوري حــتى تتخلى عن كــل الأفكــار والآراء والمعايير المتناقضة مع كتاب الله وهي عمليـة ليسـت سـهلة لمن لا يسيطر عليه فكر القرآن، فالإنسان كثيراً ما ينشـرح صـدره لتفسـير مـا، متوهمـاً أنـه هـو التفسـير الصـحيح لـدين اللـه، ولا يكفي هـذا الانشراح لمصداقية أو شرعية ذلك التفسيرلكونه نافعـاً أو جـذاباً في جانب ما، ليصبح صادقاً و شرعياً.

ولقد ظهر التفسير السياسي لدين الله في فـترة تأريخيـة حرجـة من تاريخ الإسلام، فوجد هوى في النفوس، ولم يقم العلماء بدراسـة مصداقيته الشرعية، وأيدوه بمجرد القراءة السطحية، ولم يدركوا أنه قد حمل أعظم فتنة للإسلام في العصر الحـديث، وكـان من الصـعب اكتشاف خطأ هذا التفسير بعد أن وضع في قالب نظري يلتبس على معظم الذين لا يتمعنون في نوعية الاستدلال الـذي اعتمـده المفسـر على القضية المتعلقة بـه، وسـنبّين كيـف أن المـودودي قـد انحـرف انحرافاً بعيداً في تفسيره عن أصول التفسير المتفـق عليهـا بين كـل المفسرين والشراح وعلماء اللغة والدين :

ويكفى زعمـه أن المسـلمين في العصـور المتـأخرة قـد فقـدوا المعاني الحقيقية للدين التي كان يفهمها الجيـل الأول ممن عاصـروا

نزول القـرآن، ويعلـل المـودودي غيـاب المفـاهيم الصـحيحة لألفـاظ الدين الأساسية بالسبب التالي :

"ولكنه في القرون التي تلت العصر الزاهر جعلت تتبدل المعـاني الأصلية الصحيحة لجميع تلك الكلمات تلك المعاني التي كانت شائعة بين القوم في عصر نزول القرآن حتى أخـذت تضـيق كـل كلمـة من تلك الكلمات الأربع عما كانت تتسع له وتحيـط بـه من قبـل، وعـادت منحصرة في معان ضـيقة ومخصوصـة بمـدلولات غامضـة مسـتبهمة وذلك لسببين اثنين :

الأول : قلة الذوق العربي السليم ونضوب معين العربية الخالصـة في العصور المتأخرة.

والثاني : أن الذين ولدوا في المجتمع الإسلامي و نشـئوا فيـه لم يكن قد بقى لهم من معاني كلمـات (الإلـه) و (الـرب) و (العبـادة) و (الدين) مـا كـان شـائعاً في المجتمـع الجـاهلي وقت نـزول القـرآن، ولأجـل هـذين السـببين أصـبح اللغويـون والمفسـرون في العصـور المتـأخرة يشـرحون أكـثر كلمـات القـرآن في معـاجم اللغـة وكتب التفسـير بالمعـاني الـتي فهمهـا المتـأخرون من المسـلمين بـدلاً من معانيها اللغوية الأصلية".

(المصطلحات الأربعة : ص 8)

وهكذا يدعي المودودي أن المسلمين في كـل العصـور المتـأخرة قد فقدوا على مستوى المعلومات الـدين كما كـان في عصـر نـزول القـرآن، وأن المفسـرين والشـراح واللغـويين لا يفهمـون المعـاني الحقيقيـة لألفـاظ القـرآن خصوصـاً المصـطلحات الأربعـة الأساسية (الإلـه، الـرب، الـدين، العبـادة). ولقـد جـاء المـودودي ليجلي هـذه المعاني الـتي بسـبب فقـدانها التبس على النـاس دينهم ووقعـوا في الشرك نفسه الذي جاءت دعـوة الرسـل للقضـاء عليـه، وهـو شـرك الحاكمية، وهو نفس الشرك الذي كان عليه أهل الجاهلية كما يزعم.

وقد كتب المودودي من أجل ذلك كتابه (المصـطلحات الأربعـة) وهـو ما سنتناوله بالنقد في السطور القادمة.

منهج (المصطلحات الأربعة)

ويعد كتاب (المصـلحات الأربعـة) أهم مؤلفـات المـودودي الـتي تعرض (نظرية الحاكميـة) وقـد كتب هـذا الكتـاب سـنة (1941) عـام تأسيس الجماعة الإسلامية.

والمضــمون الأساســي للكتــاب يــتركز حــول معــنى (الربوبيــة والألوهية والعبادة والدين)، وسعى فيـه بكـل طريقـة من أجـل تأكيـد (المعـنى السياسـي) لهـذه المصـطلحات واعتبـار هـذا المعـنى هـو المعـنى الأصـلي لهـذه المصـطلحات، حـتى وصـل بـه التطـرف إلى تعريف الـدين بأنـه يعـني (الدولـة) تقريبـاً، ولمقدمـة الكتـاب أهميـة بالغة، هو يعترف فيها بصورة مباشرة بـأن هـذه النظريـة التفسـيرية الجديدة مجهولة لكل المسلمين المتأخرين وأنـه أراد أن يجليهـا لهم، فهو يقول :

" فمن الحق الذي لا مراء فيـه أنـه قـد خفي على النـاس معظم تعاليم القرآن، بل قد غابت عنهم روحـه السـامية وفكرتـه المركزيـة لمجـرد مـا غشـي هـذه المصـطلحات الأربعـة (الإلـه، الـرب، الـدين، العبادة) حجب الجهل " (المصطلحات الأربعة).

ومنهج المؤلــف في الكتــاب يعتمــد على الشــرح اللغــوي لكــل مصطلح من المصطلحات المذكورة، فيضع قائمة بمعانيها في ترتيب خاص، فيضـع على سـبيل المثـال قائمـة لمعـنى (الـرب) على النحـو التالي :

1- الرب (بمعنى التربية والتنشئة والتنمية).

2- الرب (بمعنى الجمع والحشد والتهيئة).

3- الرب (بمعنى التعهد والاستصلاح والرعاية والكفالة).

4- الرب (بمعنى العلاء والرئاسة وتنفيذ الأمر والتصرف).

5- الرب (بمعنى التملك).

ثم يقوم بحشد مجموعة من الآيات تحت كل معـنى من المعـاني السابقة بالمعنى الأول والثاني والثالث والرابع والخامس، كـل معـنى من المعاني يستقل أحياناً – في رأيه – وأحياناً يشترك مع أحد معاني القائمة السابقة، وأحياناً يكون المعـنى شـاملاً لكـل معـاني القائمـة، فـيرى على سـبيل المثـال : أن المجموعـة الثانيـة في قائمـة الآيـات تشـترك في المعـنى من تصـور المعـنى الأول. وفي القائمـة الثالثـة للآيات جاءت كلمة الرب مشتملة على المعاني الخمسة بأجمعها في آن واحد.

ثم يقوم بتطبيق استنتاجه على تصورات الأمم الضالة والشــعوب المنحرفة التي جاء ذكرها في القرآن بداية من قوم نوح عليه السلام حتى المشركين العرب مستخدماً في ذلك شواهد من آيـات القـرآن، وبعض المعلومات التأريخية والقياسات النظرية عنـدما تعـوزه الأدلـة بصورة مباشرة.

التحليـل اللغـوي الـذي أنتجـه المـودودي في بحث معـنى الـدين يمضي على نفس الأسلوب فعلى سبيل المثـال: عنـدما يـأتي معـنى لفظ (الدين) يضـع قائمـة لكـل معـاني الـدين في اللغـة، أو المعـاني المشتركة لهذا اللفظ كمـا هي في معـاجم اللغـة ثم يقـوم بتصـنيفها كما وردت في سياقات مختلفة في القرآن، وعلى سبيل المثال: فهو يضع القائمة التصنيفية التالية لمعنى (الدين) في القرآن :

1 – القهر والغلبة من ذي سلطة عليا.

2 – الطاعة والتعبد والعبودية من قبل خاضع لذي السلطة.

3 – الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع.

إن منهجه هذا هو دراسة المجموع الكلي للمعاني المختلفة للفظ الدين في اللغة والقرآن، من أجل أن يبرهن على أن المجموع الكلي للمعاني المختلفة للدين هو إقامته كنظام ودولة. لأنه بدون ذلك لا يمكن أن تصبح قضية إقامة الدين بمعناها الشامل هي المهمة الأساسية التي يأمر بها القرآن، ولما كانت العقبة الكبرى لتنفيذ النظام السياسي هي السلطة السياسية القائمة – سواء في الدول الإسلامية أو غير الإسلامية – فإن تغيير السلطة القائمة هي المهمة والهدف الأول لإقامة الدين طبقاً لهذا التفسير، وبذلك فقط يتسنى انتزاع السلطة لتطبيق النظام الشرعي الكامل.

وخطأ المودودي في نهجه التحليلي لمعنى "الدين" هو اعتماده على (المجموع الكلي لمعاني الكلمة)، وخطأ هذا الاستدلال في التفسير والبرهنة واضح من أول سورة في القرآن، فكلمة "الدين" في سورة الفاتحة قد استعملت لتعطي معنى "الحساب والجزاء" فإذا اعتمدنا هذه الطريقة في التفسير والاستدلال فهذا يعني أنه لكي نقيم الدين فعلى المسلمين أن يبذلوا كل جهودهم لأحداث يوم الحساب لتتم مكافأة الناس أو معاقبتهم على أعمالهم.

يقول الأستاذ وحيد خان : " إن كلمة واحدة نجد لها في اللغة عادة أكثر من معنى، فكلمة الدين استعملت مرات عديدة في القرآن في سياقات مختلفة في كل حالة أو مثال، إنه ليس من المعقول أن نضع قائمة لكل هذه المعاني والتعريفات في آن واحد، إننا يمكن أن نفهم معنى الكلمة بدراسة علاقتها بسياق الكلام الذي وردت فيه فقط وليس بدراسة المجموع الكلي للمعاني المختلفة".

(إقامة الدين / مجلة الرسالة الإنجليزية– عدد 55 – 1988 دلهي)

فالمودودي يشير مثلاً إلى آيات وردت فيها كلمة الدين بمعنى قوانين الشريعة والتعاليم بالإضافة إلى المواد المتعلقة بالعقيدة في سياق ما، وبهذا يحاول إقناع القارئ بأن النظم وجميع التعاليم هي جزء من ذلك الدين المشار إليه في الآيات، وهذا بخلاف ما هو في سياق الآيات، نظراً لأنه لم يجد آيات تدل مباشرة على أن هدف

الرسل الأصلي هو إقامة النظـام السياسـي الإلهي أو إقامـة الدولـة الإلهية، وعلى سبيل المثال أنظر كيف يفسر الآية التالية:

﴿ شرَعَ لَكُم مِّنَ الـدِّينِ مَا وَصَّـىٰ بِـهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى : 13)

فلقـد فسـر المـودودي المـراد بالـدين في هـذه الآيـة، الأحكـام الشرعية كافة التي نجدها في الإسلام كالفردية والاجتماعية الشعبية والدولية، ومعنى الإقامة تنفيذها، وعلى ذلك فهذه الآية تأمرنا بإقامـة النظام الشرعي في الحياة الإنسانية بكامله.
(تفهيم القرآن / المجلد 6 / 488 - 490)

ولقد كتب المودودي ذلك في تفسيره رداً – بصورة غير مباشـرة – على من يعتقد خلاف هذا التفسير، وكتب وحيد الـدين خـان معلقـاً عليـه : "إنّ الـدين الإلهي الكامـل يكمن في التعـاليم الأساسـية، إن الذي يقيم هذه التعاليم يقيم الدين الكامل في نظر الله، ويعد إيمانـه كاملاً ، إن الدين – في حقيقته الجوهرية – ليس نظاماً خارجياً يتطلب السـلطة لتنفيـذه وإرغـام البشـر عليـه، بـل إن الـدين في الحقيقـة أنموذج فردي للحيـاة، ووجـود الإنسـان الوجـود الـذي يحيـا بـه خلال مراحل حياته والوجـود الـذي يولـد بـه وينتهي بـه هـو الـذي يجب أن يصطبغ بالدين، وهو الوجود الذي يجب أن يصـاغ وفقـاً لمشـيئة الله، هذا هو معنى إقامة الدين بصورة أساسية، إن وجود الإنسان لا يمكن أن يحيط به أي قانون أو أية مؤسسة سياسـية، إنـه يمكن السـيطرة عليـه من خلال إرادتـه الشخصـية فحسب، إن الإنسـان لا يحكم من قبل الآخرين ولكن يحكم من قبـل نفسـه، وعليـه فـإن إقامـة الـدين تعني أن ينفذه الإنسان على نفسه بمحض إرادته الحرة، أما السـعي وراء المعارضـة السياسـية للحكـام، ولجلـد الآخـرين على ظهـورهم فليس هو الطريق الصحيح لإقامة الدين".

(إقامة الدين – مجلة الرسالة – أغسطس – عدد 55 / 1988 - دلهي)

ويعقب وحيـد الـدين خـان أيضـاً على تفسـير المـودودي للآيـة السابقة :

"ولوأمعنت في الآية لتبين لك أن الأمر بإقامة الدين ينصـرف إلى الدين الذي نزل على جميع الأنبياء من نوح إلى محمد عليهم السلام، ولكن التعـاليم الـتي نـزلت على الأنبيـاء لم تكن واحـدة كلهـا، بـل المتفق عليه بين جميع الأنبياء هو العقائد والأصـول الأساسـية، بينمـا الشـرائع المفصـلة والأحكـام العمليـة كـانت مختلفـة بينهم، فـالمراد بالدين ذلك الذي كان مشتركا بين الجميع".وهذا هو التفسير المتفـق عليه عنـد المفسـرين المسـلمين كافـة، وليس بعضـهم كمـا زعم المودودي من أجل تهوين هذا الاتفاق".
(المصدر السابق)

وها هي أقوال المفسرين في شرح الآية السابقة :

يقول الرازي : "إنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلـك يـدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها".

(أنظر التفسير الكبير 7 / 382)

ويقول الإمام شارحاً لهذه الآيـة : "وأقـول يجب أن يكـون المـراد من هذا الدين شيئاً مغـايراً للتكـاليف والأحكـام، وذلـك لأنهـا مختلفـة متفاوتة، قال الله تعالى ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمـان يـوجب الإعـراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال".
(التفسير الكبير / المجلد السابع : ص 382)

ويقول الشيخ أشرف على التهانوي (الهندي) : "المراد من الـدين هو أصول الدين المشتركة بين جميع الشرائع، كالإيمان بالله ورسـله والبعث بعد الموت....إلخ والمراد بالإقامة أي لا تبـدلوه ولا تـتركوه".
(بيان القرآن – الشورى)

هـذا هـو رأي جميـع المفسـرين، منهم من ذكـر العقائـد المتفـق عليها، وهي المطلوب الأول في هذه الآية، ومنهم من ذكر مع العقائد الأعمـال الـتي تتفـرع من هـذا الأصـل في حيـاة الإنسـان، وهـذه مقتطفات من كتب التفسير :

أبو العالية : الإخلاص لله وعبادته.

مجاهـــــد : لم يبعث نبي إلا أمـر بإقامـة الصـلاة وإيتـاء الزكـاة والإقـرار باللـه تعـالى وطاعتـه سـبحانه، وذلـك إقامـة الدين. (روح المعاني)

أبو حيان : هو ما شرع لهم من العقائد المتفق عليها من توحيـد للـه وطاعتـه والإيمـان برسـله وبكتبـه واليـوم الآخـر والجزاء فيه. (البحر المحيط).

الخازن : المراد بإقامة الدين هو توحيد الله والإيمان بـه وبكتبـه ورسـله واليـوم الآخـر وطاعـة اللـه في أوامـره ونواهيـه وسائر ما يكون الرجل به مسلماً ولم يـرد الشـرائع الـتي هي مصـالح الأمم على حسـب أحوالهـا، فإنهـا مختلفـة متفاوتـة. قـال اللـه تعـالى: ﴿ لِكُـلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (لباب التأويل)

الألوسـي : أي دين الإسـلام الـذي هـو توحيـد اللـه وطاعتـه والإيمان بكتبه ورسله وبيوم الجزاء وسائر ما يكون العبـد به مؤمناً، والمراد بإقامتـه تعـديل أركانـه وحفظـه من أن يقع فيه زيغ والمواظبة عليه. (روح المعاني).

النيسابوري : يعني إقامة أصـوله من التوحيـد والنبـوة والمعـاد ونحـو ذلـك دون الفـروع الـتي تختلـف بحسـب الأوقـات، بقوله ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

(غرائب القرآن على هامش ابن جرير)

القرطبي : هو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيـوم الجزاء وبسائر ما يكون، الرجل بإقامته مسـلماً ولم يـرد الشـرائع الـتي هي مصـالح الأمم على حسـب أحوالهـا، فإنها مختلفة متفاوتة. (الجامع لأحكام القرآن)

ابن كثير : أي القـدر المشـترك بينهم هـو عبـادة اللـه وحـده لا شريك له وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم.

حافـظ الـدين النسـفي : أي شـرع لكم من الـدين دين نـوح ومحمد وما بينهمـا من الأنبيـاء عليهم السـلام، ثم فسـر المشـروع الـذي اشـترك هـؤلاء الأعلام من رسـله فيـه بقوله : ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ)، والمراد إقامـة دين الإسـلام، وهو توحيد الله وطاعتـه والإيمـان برسـله وكتبـه وبيـوم الجزاء وسائر ما يكون المرء بإقامتـه مسـلماً، ولم يـرد به الشرائع فإنها مختلفة. ومحل "أن أقيموا" نصب بدل من مفعـول شـرع والمعطـوفين عليـه، أو رفـع على الاستئناف كأنه قيل وما ذلك المشروع فقيل هـو إقامـة الدين.

(مدا

رك التنزيل)

ويعقب وحيـد الـدين خـان: "فتـبين من هـذه المقتبسـات أنّ المفسرين قالوا بالتمسك بالتعاليم الدينية الأساسية مراعـاة لألفـاظ الآية، فكيف يصح – والحالة هذه – القول بتنفيذ أحكام الدين الفرديـة والاجتماعيـة في جميـع شـؤون الحيـاة، أو بعبـارة أخـرى، (إقامـة الحكومة الإلهية)، وليس معنى هذا أن ما عدا أصـول الـدين لا يـدخل في بحث "الإقامة" من القوانين الشرعية الاجتماعيـة المدنيـة، ولكن

أريد توضيح أن إقامتها ليست مطلوبة منّا بصورة مطلقة كما يفـرض علينا هذا التفسير."

(خطأ في التفسير)

ومن الآيات التي كثيراً ما يستدل بها المودودي وسـيد قطب على وجوب الانقلاب السياسي، وأنه أصـل الـدعوة لإقامـة حكم اللـه في الأرض الآية التالية من سورة يوسف :

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39)ـ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَـاؤُكُم مَّا أَنـزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُـلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَـرَ أَلَّا تَعْبُـدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِـكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(يوسف : 39 – 40)

يــرى المــودودي أن الحكم في الآيــة الســابقة يتعلــق بــالحكم السياسي ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وهو بخلاف ما يذهب إليـه المفسـرين كافة: "ما تعبدون من دونـه إلا أسـماء". بين عجـز الأصـنام وضـعفها فقال "مـا تعبـدون من دونـه" أي من دون اللـه "إلا" ذوات أسـماء لا معاني لها، وقيل المقصـود بالأسـماء المسـميات، أي مـا تعبـدون إلا أصناماً ليس لها من الإلهية شيء إلا الاسم لأنها جمادات".

(القرطبي : 9 - 192)

إن الإشارة – كما ذهب القرطـبي وكـل المفسـرين – إلى عبـادة الأوثـان "أربـاب متفرقـون" وليس العبـادة المقصـودة هنـا عبـادة السلطة السياسية، وحقيقـة ذلـك أن المشـركين في الماضـي كـانوا يتخذون أوثاناً وأصناماً يتألهون لها بشتى أنـواع العبـادات، مفترضـين أنها آلهة أو تمثـل آلهـة في السـماء وهي مظهرهـا الأرضـي، فكـانت عبــادتهم إياهــا على مجــرد التــوهم والتخــرص وأســماء أو صــفات وصفوها بها دون أن يكون لها حقيقة أسماء سـميتموها تـدل على أن

المراد عمل وأثر كان يظهر بواسطة هذه المعبودات لا حقيقة له بـل هي افتراضات العابدين، فالمعبود هم الأصنام وليس بحاكم سياسي.
(وحيد الدين خان : التفسير السياسي للدين)

ويوضـح ذلـك قولـه تعـالى في سـورة النجم : ﴿ أَفَـرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (22) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُـونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْـوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (23) ﴾
(النجم : 19 – 23)

وكـان دأب المشـركين في كـل وقت هـو اعتقـادهم أن هـذه المعبودات تنفع وتضر وتحقق لهم ما يصـبون لـه ومـا يعلقـون عليهـا الأماني أو (البركات المزعومة) في شؤونهم الدنيوية والأخرويـة كمـا سجّل عليهم القرآن :
﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُـونَ هَٰـؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾
(يونس : 18)

ويحسـبون هـؤلاء المعبـودات وسـائط بينهم وبين اللـه لهـا من التصرف والمشيئة في (الحكم ما فوق الطبيعي)
﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾
(الزمر : 3)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُـونَ هَٰـؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُـلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّـمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾
(يونس : 18)

وعلى هذا لا يصح أن تؤخذ هـذه الآيـات كاسـتدلال لمعـنى الحكم السياسـي، باعتبـاره هـدف دعـوة يوسـف عليـه السـلام كمـا ذهب المودودي وسيد قطب.

ومن الآيات التي كثيراً ما يستدل بها المودودي وسـيد قطب على نفس القضية وهى "أنّ إقامة حكم اللـه هـو أصـل الـدعوة، ووجـوب الانقلاب السياسي لذلك، وهو هدف الرسل الأصلي، الآية من سـورة المائدة التي تقول:

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾
(المائدة : 44)

في سياق غير السياق الصحيح الذي ورد فيه المعنى. وعندما أراد الخـوارج في السـابق تطـبيق هـذه الآيـة على نفس القضـية، رد ابن عباس رضي الله عنه : "ليس بالكفر الذي تـذهبون إليـه". لقـد كـان الصحابة رضوان اللـه تعـالى عليهم يفهمـون القـرآن فجعلـوا للكفـر أصلاً دون فروعه، لا ينقل صاحبه عن ملة الإسلام. من ذلك قول ابن عبـاس عنـدما سـئل عن : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنـزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ قال : هي به كفر. قـال ابن طـاووس : وليس كمن كفـر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وفي رواية أخـرى عن ابن عبـاس أيضـاً "كفر لا ينقـل عن الملـة". وعن عطـاء : "كفـر دون كفـر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق". وكل هذه الروايات صحيحة الإسناد.
(أنظر ابن تيمية / الإيمان)

وعلى العموم فالآية السـابقة لا يمكن الاسـتدلال بهـا على مهمـة الرسل الأصلية أو الاستدلال بها على وجوب الانقلاب السياسي فهي آية تتعلق بكـل مسـلم يقتضـي إيمانـه أن يقـوم حكمـه على أسـاس القسط والعدل، وهي ليست خاصـة بأهـل السـلطة دون غـيرهم بـل تشمل كل المسلمين.

ومن الاستدلالات الخاطئة على قضـية الحاكميـة السياسـية الـتي يلجأ إليها المودودي وسيد قطب بالاسـتدلال بالآيـة التاليـة : ﴿ اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـرْيَمَ وَمَا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة : 31)

إن هذه الآية نزلت في خصوص طائفة من أهل الكتـاب يعتقـدون العصـمة والقدسـية في رجـال الـدين عنـدهم ﴿ أَحْبَـارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ ﴾ فيقدمون أقوالهم على كتاب الله ويتبعونهم على تبديل دين اللــه من تحليل الحرام وتحريم الحلال، فيعتقدون بذلك، وهو ما يفعلونـه حـتى هذا الوقت، ويعقدون لذلك مجامع خاصة يصدرون فيها ما يرونــه من قرارات ويعاملونها معاملة الـدين المـنزل، يحيطونهـا بالقدسـية كمـا يحيطون رؤسائهم في الدين بالعصمة والقدسـية، وهـذا هـو الشـرك الذي ذمهم الله عليه، بأن يجعلوا كلام وقرارات الأحبار والرهبان في مرتبة أحكام وتعاليم الخالق، وتجاوزوا الحـد فخـالفوا أوامـر الخـالق واتبعوا ما شرعه لهم هـؤلاء الأحبـار والرهبـان وكمـا هـو معلـوم في الدين أنـه لا عصـمة ولا قدسـية لمجتهـد فيمـا لا نص فيـه، ولـو كـان مصيباً، فكيف إذا كان اجتهاده يخالف نصاً قاطعـاً من آيـة محكمـة أو حديث صـحيح، وهـذا قـد يقـع من بعض المسـلمين ممن يقعـون في تقديس رؤسائهم في الدين (الشـيوخ) فيتبعـونهم – بلا بصـيرة – في أقـوالهم وإن خـالفت قـول اللــه ورسـوله لمــا يعتقـدون فيهم من العصمة والقدسـية الـتي لم يـنزل اللـه بهـا من سـلطان، وذلـك هـو الشرك نعوذ بالله منه، ولقد أورد الإمـام ابن تيميـة الأثـر التـالي في تفسير الآية : قال الربيع عن أنس قلت لأبي العالية كيف كـانت تلـك الربوبيـة في بـني إسـرائيل قـال : "كـانت الربوبيـة أنهم وجـدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا لن نسبق أحبارنا بشيءٍ فمـا أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينـا لقـولهم، فاستصـحبوا الرجـال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم".

(كتاب الإيمان : ص 64)

"والحق أن قداسة أولي الأمر أو الظن أن أوامـرهم كـأوامر اللـه تعالى، أو أن يحرمـوا مـا أحلـه اللـه كلـه معـدوم الوجـود بين غـالب المسلمين".

(من كتاب : دعاة لا قضاة : ص 154)

فالآية كما هي واضحة تنطبق على رجال الدين لا رجال السياسة، لأن رجال الدين موضع القـدوة والقداسـة الدينيـة، فـإذا قـالوا شـيئاً اعتبره الناس دينـاً. ونظـراً لخطـورة هـذا الأمـر فـإن اللـه قـد جعـل متابعتهم على الباطل عبادة وشـركاً أي أن أخـذ أقـوال رجـال الـدين ليس باعتبار شخصياتهم ولكن باعتبارها تتفق مع الكتـاب أو لا تتفـق، ولا يجـوز اعتبـارهم معيـاراً للـدين لأنـه ليس ثمـة قداسـة حقيقيـة لأقوالهم إلا بقدر ما تكون متفقـة مـع الكتـاب والسـنة، فـإذا خـالفت فإنه من الشرك إتباعهم، فعندما يصل الإنسان إلى هـذه الدرجـة من تقـديس البشـر تتحـول عنـده المسـألة إلى عبـادة وتأليـه لا اقتـداء، فالشرك في جوهره خطأ نابع من التوجه الداخلي بالدرجــة الأولى لا من السلطة الخارجيـة المفروضـة. يقـول عبـاس محمـود العقـاد : " ويكاد الذين كتبوا في تاريخ العقائد يتفقون على تهـوين خطـر الحكم المستبد على الضمير الإنساني بالقياس إلى خطر العرق أو الخديعـة من رؤسـاء الأديـان، لأن الحكم المسـتبد يتسـلط على الضـمير من خارجــه ولا يســتهويه من باطنــه كمــا يســتهويه حب الســلف أو الاسترسال مع القدوة الخادعة من قبل رؤساء الدين".

(التفكير فريضة إسلامية / دار الكتاب العربي – بيروت 1971 - ص 31)

فرعون وآله

أحد الأمثلة البارزة على خطأ التحليل الذي وقع فيه المودودي مـا يتعلـق بقضـية فرعـون وآله، يقـول المـودودي في محاولـة لتبرئـة فرعون من الشرك في الربوبية والألوهية وإثباتها عليه في الحاكميـة السياسية : "هيا بنا ننظر الآن في قضية فرعون وآلـه ممـا قـد شـاع

عنهم في الناس من الأخطاء أكثر مما شاع فيهم من نمرود وقومه. فالظن الشائع أن فرعون لم يكن منكراً لوجود الله تعالى فحسب، بل كان يدعي الألوهية لنفسه أيضاً، ومعناه أنه قد بلغت منه السفاهة أنه كان يجاهر على رؤوس الناس بدعوى أنه فاطر السماوات والأرض، وكانت حاشيته من البله والحماقة أنها كانت تؤمن بدعواه تلك، والحق الذي يشهد به القرآن والتأريخ هو أن فرعون لم يكن يختلف ضلاله في باب الألوهية عن ضلال النمرود، ولا كان يختلف ضلال آله عن ضلال قوم نمرود".

(المصطلحات الأربعة ص : 60، ط 4)

ويستمر المودودي في تحليل كفر فرعون على مستوى آخر وهو ما يسميه بالعصبية الوطنية ضد بني إسرائيل : "وإنما الفرق بين هؤلاء "قوم النمرود" وأولئك "قوم فرعون" أنه قد نشأ في آل فرعون لبعض الأسباب السياسية عناد وتعصب وطني شديد على بني إسرائيل، فكانوا لمجرد هذا العناد يمتنعون من الإيمان بألوهيته وربوبيته، وإن كانت قلوبهم تعترف بها شأن أكثر الملحدين الماديين في عصرنا هذا".

(المصدر السابق ص : 60)

ونلاحظ في الاقتباس السابق الأخطاء التالية :

1- اتهام المفسرين والشراح بصورة غير مباشرة بالأخطاء والأكاذيب، لأن المفسرين كافة يقولون أن فرعون كان منكراً لوجود الله وكان يدعي الألوهية. وهو نفس الأمر الذي صرح به القرآن: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾

2- اعتباره أن فرعون قد امتنع عن الإيمان بالله نتيجة العصبية الوطنية ضد بني إسرائيل، ومع أن قوله هذا يتناقض مع القول السابق، فإن التعليل لكفر فرعون أمر ثانوي بعد إثباته في حقه. وسبب كفر فرعون الرئيس ذكره القرآن مراراً وهو الكبر والعلو في الأرض، ووردت فيه العديد من الآيات.

3 - أن القرآن يعلمنا أن فرعون قد اعترف بالله في اللحظة التي عرف أنه قد أوشك على الغرق ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾

(يونس 90)

4 - لقد حدد القرآن في آيات كثيرة مهمة موسى بالنسبة لفرعون وقومه ولم يذكر أنه اشترط على فرعون التخلي عن السلطة بل العكس تماماً، فإنه قد طلب في حالة عدم استجابة فرعون وقومه لدعوته ، أن يخلي بينه وبين بني إسرائيل ويعتزلوه ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (20) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)﴾

(الدخان : 17 - 21)

5 - اعتبر المودودي أن دعوى فرعون الأصلية بمنازعته لله السلطة السياسية في مصر. يقول المودودي : " ولم تكن دعوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية، بل الألوهية السياسية : فكان يزعم أنه الرب الأعلى لأرض مصر ومن فيها بالمعنى الثالث والرابع والخامس لكلمة (الرب) ويقول أنا مالك القطر المصري وما فيه من الغنى والثروة وأنا الحقيق بالحاكمية المطلقة فيه وشخصيتي المركزية هي الأساس لمدينة مصر واجتماعها، وإذن ما يجرين فيها إلا شريعتي وقانوني".

(المصطلحات الأربعة ص : 76)

6 - إن المودودي أراد أن يثبت أن فرعون لم يكن يدعي الألوهية والربوبية في دائرة ما فوق الطبيعة بل يدعيها في نطاق الدائرة السياسية والقانونية وبالتالي فإن المودودي يزعم أنه رفض دعوة موسى لهذا السبب بالدرجة الأولى يقول المودودي : "من هنا كان فرعون ورؤساء حكومته يعلون أصواتهم المرة بعد المرة بأن موسى وهارون عليهما السلام قد جاءا يسلبانا أرض مصر وأرادا أن يذهبا بنظمنا الدينية والمدنية ليستبدلا بهما ما يشاءان من النظم

والقواعد". ويمضي المـودودي في الاسـتدلال على القضـية السـالفة بآيـات تـبرر دعـوة المـودودي المطابقـة في نفس الـوقت لـدعوى فرعون في رفضه الحق ودعوة التوحيد. ومن هذه الآيـات الـتي ذكـر الله فيها تكذيب فرعون وملأه وكذبهم على نبي اللـه موسـى تـبريراً لموقفهم أمام الناس :

﴿ قَـالُوا إِنْ هَٰـذَانِ لَسَـاحِرَانِ يُرِيـدَانِ أَن يُخْرِجَـاكُم مِّنْ أَرْضِـكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾

(طه : 63)

فيستدل المودودي بكلام ملأ فرعون على مهمة موسـى بـدلاً من أقوال موسى عليه السلام ومن استدلالات المودودي أن فرعــون لم يكن يدعي الربوبيـة مـا يلي : "والظـاهر أن فرعـون لـو كـان يـدعي لنفسه الربوبية فيما فوق الحكم الطبيعي، أي لو كان يـدعي أنـه هـو الغالب المتصرف في نظام الأسباب في هـذا العـالم وأنـه لا إلـه ولا رب غيره في السماوات والأرض، لم يعبد الآلهة الأخرى أبداً".

(المصطلحات ص 72)

7 - إن القرآن قد ذكر صراحة ادعاء فرعـون الربوبيـة والألوهيـة، ومن ذلك قوله :

أ - ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾

(القصص : 38)

ب - ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَـالَمِينَ (23)ـ قَـالَ رَبُّ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (24)ــ قَــالَ لِمَنْ حَوْلَــهُ أَلَا تَسْـتَمِعُونَ (25)ـ قَـالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَـائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (26)ـ قَـالَ إِنَّ رَسُـولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُـونٌ (27)ـ قَـالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُـونَ (28)ـ قَـالَ لَئِنِ اتَّخَـذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (29)﴾

(الشعراء : 23 - 29)

والحقيقة كما في الآيات السابقة أنّ فرعون كان يدعي حق الألوهية والربوبية وأنه مظهر الإله المعبود السماوي (رع) الشمس كما كان الفراعنة كلهم يعتقدون في ألوهية الشمس وفرعون باعتباره مظهرها الأرضي كما يدعي سائر الملوك في الماضي أنهم أبناء الآلهة ومظهرها الأرضي.

حقيقة الشرك

إنّ الشرك الذي كان يسود في الماضي هو شرك في الربوبية والألوهية، وهو أصل الشرك الذي جاء الرسل كافة -بما في ذلك خاتم النبيين- لدحضه والدعوة إلى إبطاله :

﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (13) إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾

(فاطر : 13 – 14)

ومن تحليل معنى "شرك الربوبية" في آيات القرآن نفهم أن المشركين كانوا يعتقدون أنّ معبوداتهم أيّاً كانت هذه المعبودات (أصنام أو أوثان أو ملائكة صالحين أو أنبياء أو شياطين أو كواكب أو نجوم....) أي كل ما اتخذه الإنسان من معبود دون الله بصورة كلية أو مع الله بصورة جزئية، وقد فعلوا ذلك لاعتقادهم أن هذه المعبودات لها تأثير ونفوذ وسيطرة في دائرة (الحكم ما فوق الطبيعي). فهي إما أن تستقل بالتصرف والمشيئة دون الله أو تشاركه فيها، أي أن المشركين يعتقدون أنها ذات (بركات) فيستعينون بها، ولذلك يدَعون أنها نافعة وضارة وقادرة على حمايتهم ونصرتهم فيتخذونها سنداً وعزاً من دون الله أو مع الله ويستغيثون بها في النوازل، فكان مدار اعتقادهم الخطأ في توهمهم أن هذه الآلهة المزعومة لها التدخل والتصرف الكامل أوشيئاً من

التدخل والتصرف مع الله في هذا الكون، فيقدمون عبـادتهم لهـا عن طريق النذور والقرابين والتـذلل والخضـوع أمامها، وهـذا هـو تحليـل (شرك الألوهية). أي أنّ النـوع الثـاني من الشـرك مبـني على النـوع الأول، لأن توحيد الربوبية يقتضي توحيد الألوهية، فإذا وقف الإنســان عند الأول (الإقرار بخـالق السـماوات والأرض والإقـرار بأنـه الـرزاق دون أن يلحقه الخضوع له وحده بالتذلل والخشية والمحبة، فإن ذلك يكـون توحيـداً ناقصـاً، فـإذا صـرف تذللـه وخضـوعه بصـورة كليـة أو جزئية لغير الله فإنه قد ارتكب بـذلك جريمـة (الشـرك)، ولهـذا أمـر الله سـبحانه وتعـالى بإبطـال العبـادة لغـيره وصـرفها لـه وحـده، فلا تصرف لوثن أو لملك أو نبي أو شيطان ...

ولكن المودودي يجعل أصل الشرك في نطـاق الحكم السياســي مع اعترافه بالشرك ما فوق الطـبيعي، فهـو يقـول : "لم تكن دعـوى فرعون الأصلية بالألوهية الغالبة المتصرفة في نظام السنن الطبيعية بل بالألوهية السياسية".

(المصطلحات الأربعة ص : 76)

ويجعله هو أسـاس المواجهـة بين الرسـل والحكـام والملـوك في كل وقت.

ويقول : "ومن هنا كان فرعون ورؤساء حكومته يعلـون أصـواتهم المرة بعد المرة بأن موسى وهارون عليهما السلام قد جاءا يسـلباننا أرض مصـر وأرادا أن يـذهبا بنظمنـا الدينيـة والمدنيـة ليسـتبدلا مـا يشاءان من النظم والقواعد".

(المصدر السابق ص : 77)

حقيقة الفرق

إن الخطأ الذي وقع فيـه المـودودي، ومن ورائـه سـيد قطب في تفسـير حـدوث المواجهـة الـتي قـامت بين الرسـل وملـوك وحكـام

الماضي يكمن في عـدم إدراك الفـرق بين نـوع السـلطة السياسـية القائمة في الماضي والسلطة السياسية القائمة في العصر الحديث.

لقـد كـانت السـلطة السياسـية القائمـة في الماضـي مرتبطـة بفلسفة دينية، وهي عقيدة الشرك، إذ كان الملـوك يحكمـون بإيهـام النـاس أنهم ظـل الآلهـة المعبـودة أو مظهرهـا الأرضـي، وهم لـذلك يتمتعون بحق فوق الطبيعي للحكم على الناس دون الآخـرين، هكـذا كـان يـزعم الفراعنـة والنمـاردة والقياصـرة والأكاسـرة والأبـاطرة، وعلى سبيل المثال كان فرعون قد رفض دعـوة التوحيـد ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰـهٍ غَيْـرِي ﴾ لأنـه في زعمـه كـان مظهـر الإلـه (رع) وكـان المصـريون القـدماء يتخـذون من (رع) وهي الشـمس معبـوداً لهم، ولفظ (فرعون) يعـني حرفيـاً: ظـل أو مظهـر رع. فكـان يعـد نفسـه مظهر الشمس الأرضي، وكان رد فعلـه ضـد دعـوة التوحيـد شـديداً، وليس لأن موسى عليه السلام كان يدبر انقلاباً سياسياً ضده، كما هو في تفسير المودودي وسيد قطب، فمطالبـة موسـى كـانت واضـحة، وهي أنه في حالة عدم استجابة فرعون وملأه إلى ملـة التوحيـد، أن يخلي بينه وبين بني إسرائيل (قوم موسى)، وأن يعتزلوه :

﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (20) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21) ﴾

(الدخان : 18 - 21)

وكانت هذه الفتنة هي أكبر عقبة أمام حرية الاعتقاد، وهي ناجمـة عن ارتباط نظام الحكم بعقائد فوق الطبيعية بسبب عقيـدة الشـرك السـائدة في ذلـك الـوقت حـتى ظهـر الإسـلام، وأراد اللـه سـبحانه وتعـالى أن يزيـل هـذه الفتنـة الـتي كـانت تحـول بين النـاس وحريـة الاعتقاد فأمر رسوله وأتباعه بالقتال لإنهاء هذه المهمة :

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾

(الأنفال : 39)

وكانت الدعوة موجهة لإزالة فتنة الشرك الجارح. قال ابن عباس : "الفتنة بمعنى الشرك". وزالت فعلاً هذه الفتنة لأول مرة في التأريخ البشري، ولم يعد الحكم السياسي يقوم على فلسفة الشرك، بل يقوم لأسباب سياسية فحسب، واليوم في القرن العشرين لو قمت بالدعوة للتوحيد في أي مكان من العالم لن تجد معاملة النمرود لإبراهيم عليه السلام ولا معاملة المشركين لصحابة رسول الله عليه السلام، والسبب في هذا أن العصر قد تغير كلياً، وصار الشرك اليوم عقيدة دينية محدودة، والحكّام في العصر الحديث لا يعدّون هذه العقيدة ذات علاقة بالسياسة، فهم قد حصلوا على الحكم السياسي عن طريق عوامل وأسباب سياسية بحتة، أي أسباب الطبيعية وليس بناء على حق فوق طبيعي، فهم لذلك لا يرون التوحيد خطراً عليهم كما كان حكام العصور القديمة الذين يربطون السلطة بالشرك.

ونحن اليوم نتمتع بحرية الدين وحرية الدعوة بعد أن زالت العقبة التي كانت تحول بين الناس وقبول التوحيد، وذلك بعد القضاء على فتنة الشرك الجارح. ولقد ورد ما يفيد أن الصحابة كانوا على وعي بهذا الأمر بصورة واضحة جلية :

عبد الله بن عمر

عن ابن عمر أنه : "أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي **(صلى الله عليه وسلم)** فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي. فقالا : ألم يقل الله : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، وحتى يكون الدين لغير الله.
(أخرجه البخاري / تفسير سورة البقرة)
(وأنظر تفسير ابن كثير / 1- 403)

وعن نافع "أن رجلاً أتى ابن عمر فقال : يـا أبـا عبـد الـرحمن مـا حملك على أن تحج عاماً وتقيم عامـاً وتـترك الجهـاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت مـا رغب اللـه فيـه ؟ فقـال : يـا ابن أخي بـني الإسـلام على خمس : الإيمـان باللـه ورسـوله والصـلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت. وقالوا : يـا أبـا عبـد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ اقْتَتَلُـوا فَأَصْـلِحُوا بَيْنَهُمَا فَـإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّه ﴾

(الحجرات : 9)

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾

(الأنفال : 39)

قال : فعلنا ذلك على عهد رسوله **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** وكان الإسلام قليلاً فكان الرجـل يفتن في دينـه إمـا قتلـوه أو عـذبوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.

(أخرجه البخاري / تفسير البقرة / وأنظر : تفسير ابن كثير 1 / 403)

وبعـد أن قـام الصـحابة بهـذا الـدور العظيم في التـأريخ البشـري ظهرت حرية الاعتقاد في الفكر الإنساني الحديث بعد أن وصلت آثار الثورة الفكرية الإسلامية إلى أوربـا، فكـان يقتضـي على الـدعاة إلى الإسلام في هذا العصر أن يدركوا أن المبدأ الذي شرعه القرآن :

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

(البقرة : 256)

صار الآن لأول مرة مبدأً إنسانياً معترفاً به، فتقول المادة الثامنــة عشر من إعلان هيئة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان : "لكـل شـخص الحق في حرية التفكير والضمير والـدين، ويشـمل هـذا الحـق حريـة تغيير ديانته أو عقيدته، وحريـة الأعـراب عنهمـا بـالتعليم والممارسـة

وإقامـة الشـعائر، ومراعاتها سـواء أكـان ذلـك بصـورة خاصـة أو مـع الجماعة".

وتقول المادة التاسـعة عشـرة : "لكـل شـخص الحـق في حريـة الرأي والتعبير ويشمل هذا الحق حريـة اعتنـاق الآراء دون أي تـدخل واستقاء الأنباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسـيلة كـانت دون تقيـد بالحدود الجغرافية".

وهكذا صارت الفرص متاحة لعقيدة التوحيـد أن تنتشـر بالوسـائل السـلمية وعن طريـق اسـتخدام كافـة قـوى العصـر الحديثـة للإعلام بدون خـوف أو حـدود، وعلى الـذين يقومـون بالـدعوة الإسـلامية أن يستفيدوا من هذه الفرص العظيمة والجو السـلمي المتسـامح لنشـر رسالة الإسلام، وأكبر جريمة في حق دين الله هي إعادة الفتنة.

يقول وحيد الدين خـان : "إن الخطـر الفـاحش الـذي جـاء نتيجـة جعل الإسلام سياسة، هو أنّ الفتنة التي أنهاهـا النـبي وأصـحابه بعـد تضحيات بالغة، قد عادت من جديد في التأريخ الإسلامي.

لقد امتزجت السياسـة بالشـرك في العصـور القديمـة، والأسـرة الحاكمة كانت تحكم الناس بعد أن ترسخ في قرارة نفوسهم العقيدة القائلة بأنهم أبناء الآلهـة، وأنهم شـركاء في ألوهيـة الـرب، ومظهـر دنيوي لآلهـة سـماوية، وبنـاء على ذلـك كلمـا نهضـت دعـوة للتوحيـد الخالص كان هؤلاء الحكام – الـذين كـان حكمهم يقـوم على أسـاس الشرك – يعدونها حركة تمرد ضد حكومـاتهم، ومن ثمَّ كـانوا يبـذلون كـل رخيص وغـال في سـبيل قمـع هـذا النـوع من النشـاط، وبـذلك أصـبحت الـدعوة في انطلاقهـا عرضـة للعقبـات، إذ كـانت تشـكل معارضة صارمة للحكام، ومن ثم نجد القرآن يأمر :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه ﴾
(الأنفال : 39)

والمقصــود أن ينتهي شــأن أهــل الشــرك الــذي يشــكل الفتنــة للموحدين ويمنعهم من اختيـار دين التوحيـد، وأن يتم فصـل العقيـدة الإلهية عن الإدارة السياسية ليصبح الدين كلـه نشـاطاً ربانيـاً محضـاً، وليس نشــاطاً سياســياً. فلا تبقى أيــة علاقــة بين العقيــدة وشــئون السلطة، وصيرورة الدين كله لله هـو أن تنتهي حالـة الفتنـة بحيث لا تبقى السلطة حائلاً بين البشر وعقيدة التوحيد.

إن النصر الــذي حققــه النــبي **(صــلى اللــه عليــه وســلم)** وأصـحابه قـد أزاح الشـرك من منصـب السـلطة وأنهى العلاقـة بين العقيدة الدينية والإدارة السياسية للأبد. ومن ثمّ نشـأت فرصـة لأول مــرة في التــأريخ بإمكانيــة الاســتمرار في الــدعوة للتوحيــد بــدون مخاطرة الصدام مـع الإدارة السياسـية إلا أن المسـلمين قـد أعـادوا تلك المشـكلات في طريـق نشـاطات الـدعوة تحت عنـاوين جديـدة، وكان أول مثال على ذلك : جعل خلافة أهل البيت من قضايا العقيدة وهو ما حدث في القرن الأول الهجري.

والمثــال الآخــر نجــده في العصــر الحــديث تحت شــعارات "المسؤولية المطلقة للأمة الإسـلامية في تنفيـذ القـوانين الإسـلامية كاملة". وقد جعل هذا التصور الأعمال السياسية من قضايا العقيــدة، ومن ثمّ بدأ المسلمون يتناحرون مع الحكـام باسـم "تنفيـذ القـوانين الإسلامية الكاملة". وأصبحت الإدارة السياسية – تحت عنوان جديد – معارضة للإسلام كما كان الوضع قبل خمسة عشر قرناً.

لقد ثبت من أحاديث الرسول أنّ أخطر شيء أحس به ونبـه إليـه **(صلى الله عليه وسلم)** هو ما يطرأ بعده من تنـاحر المسـلمين فيمـا بينهم، وقــد ثبتت مصــداقية هــذا الإحســاس بشــواهد التــأريخ والواقع، إنها لحقيقة أنّ المسلمين منصرفون إلى التناحر فيمـا بينهم مما لا نجد له مثالاً عند الشعوب الأخرى بـل نجـد الشـعوب الأخـرى متفوقون في حروبهم ضد الآخرين بينما المسلمون بلغـوا القمـة في التناحر والقتل وإراقة الـدماء فيمـا بينهم، ويعـود سـبب ذلـك إلى مـا

حدث من جعل السياسة عقيدة، ولو استقصينا الحروب الأهلية الــتي نشــبت بين المســلمين في الماضــي لوجــدنا أن وراءهــا يــد محركــة لهؤلاء الذين سبق أن جعلوا من الخلافة حق تحتفظ به أسرة بعينهــا، وما عدا ذلك لا يجوز لأي واحد أن يحكم أو يسيطر على المسلمين.

ولقد أزاحت الحركة العلمية المعاصرة، وفكرة الديمقراطية، هذه العقيدة من عقول النــاس، إلا أنــه في الــوقت نفســه نشــأت نظريــة تنص على الوجوب المطلق لتطبيق القــوانين الإســلامية، وقــد نفخت الروح من جديد – تحت عنوان جديد – في تلــك الحــرب الأهليــة ممــا أحياها من جديد في أوساط المسلمين".

(وحيد الدين خان : الدعوة الإسلامية)

(4) نوعية التحريف

مــا هي نوعيــة التحريــف الــتي ظهــرت في التفســير السياســي للدين؟

لقد غير التفسير السياسي ترتيب العلاقات بين عناصــره، فاختــل بذلك الترتيب الأصلي وظهر ترتيب جديد، فزالت خاصيته تبعاً لــذلك، وكما هو معلوم أن تغير نمط ترتيب عناصر أو أجزاء تركيب ما يتبعــه من زوال خاصيته الأصلية (حطم النمط تزول الخاصية). فلقد جعــل التفســير الجديــد الأهميــة الأولى للسياســة فحلت السياســة مكــان العبــادة (الرابطــة الأصــلية الشــاملة) وهي عنــوان العلاقــة بين العبــد وخالقه، والوحدة التي تدور حولها كافة تعاليم الدين، فإذا حولت هذه

الرابطة الأصلية وجعلت محلها رابطة (النظام الأساسي) فلقد حـدث أكـبر تحريـف في تفسـير الـدين، ورغم أن هـذا التحريـف ليس في إضافة شيء أو حذفه من الـدين، إلا أن البدعـة في الـدين لا تكـون بإضـافة شـيء أو حذفـه فحسـب، بـل من البدعـة والبدعـة الكـبرى تقديمـه في غـير تفسـيره الصـحيح بوضـعه في غـير ترتيبـه وبنيتـه الأصلية، فالتفسير السياسـي نجـده قـد احتـوى كافـة عناصـر الـدين ولكن ليس في ترتيبها الصحيح. حيث صـارت المقتضـيات فيـه تحتـل مكان الأصل وتحولت المهمة السياسية المهمة الأصلية للدين.

إن أهم ما يلاحظه الأستاذ وحيد الدين خان حول هذا التفسير هـو أن العلاقـات بين عناصـر الـدين قـد اختلت وفقـدت ترتيبهـا الإلهي الصحيح كما هي في الأصل، واتخذت ترتيباً جديداً. وذلـك على النحـو التالي :

1 - المساواة بين الأصل ومقتضياته .

2 - إحلال المقتضيات محل الأصل وتفريع الأمور منها .

3 - تقديم المقتضيات على أنها الدعوة الأساسية للقرآن .

الدرجة الأولى : إن الأسـتاذ المـودودي يعـرّف العبـادة : "العبـادة ليسـت بمعـنى الشـعائر والمناسـك فحسـب، بـل العبـد الـذي يعيش عيشة العبودية فحياته كلها عبادة".
(نظرية الإسلام وهديه ص : 16)

إن هذا المعنى ليس به خطأ إلا عندما أصر المـودودي على جعـل أصل العبادة ومقتضياتها في مرتبة واحدة في كل حـال دون مراعـاة أحوال المكلفين.

يقول الأستاذ وحيد الدين : "إن أحكام الدين متشـابهة ومتطابقـة شـكلاً، ولكن علاقتنـا بهـذه الأحكـام ليسـت على قـدم المسـاواة ... فالقرآن على سبيل المثال يأمرنا : ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ (الأنعام : 72) وفي مكان آخر يأمرنا بنفس الصيغة ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ (البقرة : 83)

إن كلا الأمرين متشابهين وفي صيغة أمر واحد ، ولكن انطباقهما علينا ليس متشابهاً، فالأمر بالصلاة أمر مطلق وهو مطلوب من كل مؤمن بالضرورة، أما الأمر بالزكاة فمشروط بتملك النصاب القانوني من الأموال، فالذي يملك النصاب القانوني من الأموال مطالب بالامتثال لهذا الأمر كامتثاله لأمر الصلاة، أما الذي لا يملك النصاب فليس مطالباً بأداء الزكاة ولا هو مطالب بالسعي لتملك النصاب حتى يمتثل للأمر بأدائها".

(حكمة الدين : ص 56)

لقد عرف الأستاذ المودودي العبادة بطريقة شمولية حيث وضع كافة عناصرها في مستوى واحد ودون مراعاة الفرق بين أصل العبادة ومقتضياتها. وهذه بداية الخطأ. إن التعريف التحليلي هو الذي يبين حقيقة الأصل المطلوب : "لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال المحبة.

(رسالة العبودية ص : 28)

"لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة".

(الطبري : 1 / 69)

وتأويل إياك نعبد : لك اللهم نخشع ونذل ونستكين، إقراراً لك يا ربنا بالربوبية لك لا لغيرك لأن العبودية عند جميع العرب أصلها الذلة وأنها تسمى الطريق المذل الذي وطئته الأقدام وذللته السابلة فصار معبداً، ومن ذلك قول طرفة بن العبد :

تبارى عتاقاً ناجيات واتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد

يعني بالمور الطريق، وبالمعبد : المذلول الموطوء، ومنه قيل للبعير المذل المركوب، ومنه سمي العبد عبداً لذلته لمولاه".

(الطبري : 1 / 69 – ط الحلبي)

والمقصود أن العبادة في أصلها هي العلاقـة المباشـرة بالخضـوع والتذلل والإذعان لربوبية الخـالق، وبالنسـبة لمقتضـياتها فهي تتعلـق بالسلوك الخـارجي الـذي يقـوم بـه المسـلم عنـد ممارسـته لعلاقتـه الاجتماعية. وفي الحديث : "الحياء من الإيمان" وكذلك إماطــة الأذى من الطريق ... كل هذه شعب وفـروع للإيمـان الـذي أصـله الإيمـان باللــه وإخلاص العبــادة لــه، ولا يمكن أن نســوي بين أصــل العبــادة وإماطــة الأذى عن الطريــق ونعطيهــا درجــة واحــدة. والمـودودي لم يفرق بين أصل العبادة ومقتضياتها.

"إن العبادة تشمل الشريعة كلها، فكل مـا يأتيـه المـؤمن لإرضـاء ربه وتنفيـذ أوامـره هـو من العبـادة، ولكن العبـادة في أساسـها نـوع معين من الأعمال بين العبد وربّه، أما ما يقوم به العبد مـع عبـد آخـر فهو مقتضيات العبادة، إن العمل الذي يقوم بين العبد وربـه مباشـرة هو العبادة ذاتها. فالعبد يعبـد ربـه مباشـرة حين يصـلي، وحين يـدلي بشــاهدته الصــدق في قاعــة المحكمــة إنمــا يفعــل ذلــك مراعــاة لمقتضيات عبادته لله.

إن هــذه المقتضــيات واجبــة كالعبــادة نفســها ولكن يجب أن لا نتجاهل الفرق الكبـير بين نـوعي العبـادة (العمـل التعبـدي نفسـه ثم مقتضياته) وإلا ضاع منّا التصور الصحيح للأعمـال الدينيـة، وذلـك لأن المقتضيات دائماً ثانوية، ولا تكون مطلوبـة إلا لسـبب آخـر أساسـي، بينما يكون الدين الأساسي مطلوباً لذاته وبصفة مطلقة، ومثاله كـأن نقـول : "من مقتضـيات الإسـلام أن يـورث المسـلم تركتـه حسـب القانون الإلهي" ... ليس معنى هذا القول أنـه يجب على كـل مسـلم أن يحــاول امتلاك بعض الأمــوال والعقــارات حــتى يتمكن من تنفيــذ الأحكام الإسلامية الخاصة بالميراث. إن هـذا القـول يعـني فقـط، أن على كل مسـلم أن يقسـم مـا لديـه من أمـوال لمن يسـتحقونها من ذويــه حســب القــوانين الإســلامية. إنّ هــذا الــواجب مطلــوب ممن يمتلكون شيئاً، وهو ليس بمطلوب ممن لا يمتلكون شيئاً".

(المصدر السابق ص : 61)

الدرجة الثانية : إن الخطأ الثاني الذي وقع فيه التفسير السياسي هو جعل المقتضيات أصلاً للدين. يقول المودودي : "معنى الـدين في هذا العصر الحكومة (STATE) تقريباً، أن يستسلم الناس أمـام قـوة جبارة قاهرة ويذعنوا لها هـذه هي الحكومـة وهـذا هـو معـنى الـدين أيضاً، والدين الحق هو أن يستسلم المرء أمام قـوة اللـه تعـالى وأن يعبده ويطيعه معرضاً عن طاعة الآخرين بما في ذلك نفسه الحقيقة، جاء رسول الله (صلي الله عليه وسلم) بنظام دولـة من عنـد اللـه لا مجال لخيار الإنسان فيه ولا مجال لشـخص أن يحكم على عبـاد اللـه تعالى. الحكم والأمر لله الواحد القهار فقط".

(المسلمون والعصر السياسي / جـ 3)

وعبر سيد قطب عن المفهوم الجديد بقوله :"إنّ وجود هذا الدين هو وجود حاكمية الله، فإذا انتفى هذا الأصل انتفى وجود هذا الدين".
(أنظر أحمد فائز : طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 21)

فالمعيـار النهـائي للإيمـان والتوحيـد والعبـادة هـو وجـود هـذه الحاكمية، فهي "مناط الإيمان أو الكفر وميزان الجاهلية أو الإسلام".

(المصدر السابق ص :21)

ومن هنا قرر هذا التفسير إقـرار الحاكميـة في الواقـع الخـارجي، أي الـدعوة إلى إقامـة النظـام الإسـلامي كهـدف مطلـق ونهـائي ولا يجوز الصبر عليه مهمـا كـانت الأحـوال وهـو أصـل التوحيـد، وقاعـدة الدعوة : "يجب أن يكـون مفهومـاً لأصـحاب الـدعوة الإسـلامية أنهم حين يدعون الناس إلى إعادة إنشاء الدين يجب أن يـدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة حتى ولو كانوا يدعون أنفسـهم مسـلمين وتشـهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون، ويجب أن يعلمـوهم أن الإسـلام هـو أولاً إقرار عقيدة لا إله إلا اللـه بمـدلولها الحقيقي. وهـو رد الحاكميـة

لله في أمرهم كله، إقرارها في ضـمائرهم وشـعائرهم وإقرارهـا في أوضاعهم وواقعهم، ولتكن هذه القضية أساس دعـوتهم إلى الإسـلام كما كانت هي أساس دعوتهم إلى الإسلام أول مرة".

(طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 175)

ويقـول سـيد قطب في تعريـف الجاهليـة الحديثـة وفـق مفهـوم الحاكميـة : "إنّ البشـرية اليـوم بجملتهـا تـزاول رجعيـة شـاملة إلى الجاهلية التي أخرجها منها رسول الله **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** وهي جاهليـة تتمثـل في صـور شـتى بعضـها يتمثـل في إلحـاد باللـه سـبحانه وإنكـار لوجـوده .... فهي جاهليـة اعتقـاد كجاهليـة الشيوعيين ... وبعضها يتمثل في اعتراف مشوه بوجود اللـه سـبحانه وانحـراف في الشـعائر التعبديـة وفي الدينونـة والأتبـاع والطاعـة كجاهليـة الوثنـيين من الهنـود وغـيرهم، وكجاهليـة اليهـود والنصـارى كذلك ... وبعضها يتمثل في اعتراف صحيح بوجود الله سـبحانه وأداء الشعائر التعبدية مع انحراف خطير في تصور دلالة شـهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله ومع شرك كامل في الدينونة والأتبـاع والطاعة، وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم مسلمين ويظنـون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسـلام وحقوقـه بمجـرد نطقهم بالشـهادتين وأدائهم للشـعائر التعبديـة مـع سـوء فهمهم لمعـنى الشـهادتين ومـع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد وكلها جاهلية ... وكلها كفر بالله كالأولين أو شرك بالله كـالآخرين ... إنّ رؤيـة الواقـع على هـذا النحو الواضـح تؤكـد لنـا أن البشـرية اليـوم بجملتهـا قـد ارتـدت إلى جاهلية شاملة، وأنها تعاني رجعية نكدة إلى الجاهلية التي أنقذها منها الإسلام".

(طريق الدعوة في ظلال القرآن ص : 164 – 165)

الدرجة الثالثة : يقول المـودودي في تحديـد مهمـة الأنبيـاء : ".... إن الغايـة المنشـودة من رسـالة أنبيـاء اللـه عليهم السـلام في هـذه الدنيا أن يقيموا فيهـا الحكومـة الإسـلامية وينفـذوا بهـا ذلـك النظـام

الكامل للحياة الإنسانية الذي جاؤوا به من عند الله. وهؤلاء قد كـانوا يسمحون لأهل الجاهليـة بـأن يبقـوا على عقائـدهم السـابقة ويتبعـوا طـرائقهم الجاهليـة مـا دامت آثـار أعمـالهم منحصـرة في أنفسـهم، ولكنهم لم يبيحوا لهم – ولا كان يسعهم ذلك طبعاً – أن تبقى مقاليـد السلطة والحكم بأيديهم ليديروا شؤون الحياة الإنسـانية على قواعـد الجاهلية، ولذلك قـد سـعى كـل نـبي وكـل رسـول لأحـداث الانقلاب السياسـي حيثمـا بعث، فمنهم من اقتصـرت مسـاعيه على تمهيـد السبيل وإعداد العدد كإبراهيم عليـه السـلام، منهم من أخـذ فعلاً في الحركـة الانقلابيـة ولكن انتهت رسـالته قبـل أن تقـوم على يـده الحكومة الإلهية كعيسى عليه السـلام، ومنهم من بلـغ بهـذه الحركـة منازل الفوز والنجاح كموسـى عليـه السـلام وسـيدنا محمـد **(صلى الله عليه وسلم)** ".

(تجديد الدين وإحياؤه ص : 41 – 42)

وطالمـا أصـبح الإسـلام فكـراً سياسـياً، فمن الطـبيعي أن تكـون الجماعـة الإسـلامية جماعـة سياسـية، يقـول الأسـتاذ المـودودي : "بمجـرد اعتنـاق المـرء للإسـلام فإنـه يصـبح عضـواً في الجماعـة الإسـلامية، وتقـوم الجماعـة الثـائرة العالميـة الـتي يسـميها القـرآن بـ(حزب الله) بالجهاد في سبيل الله لنيـل بغيتهـا، ومطلبهـا أن تقتلـع جـذور أي حكم غـير إسـلامي ليؤسـس مكانـه بنيـان حكومـة مدنيـة اجتماعية متزنة، أطلق عليها القرآن اسـماً جامعـاً (كلمـة اللـه) وهي ليست جماعة المبلغين الواعظين البسطاء، بل هي جماعة عسـكرية إلهيـة مهمتهـا أن تزيـل من وجـه الأرض الظلم والفسـاد والطغيـان والعناد وتقضي على حكم أرباب من دون الله، وتقيم الحسـن مكـان القبح، والعدل بدل الظلم، فليس لها بد من السـيطرة على السـلطة والحكومـة، لأنـه لا يمكن إقامـة نظـام مدينـة صـالحة حـتى تتحـرر الحكومة من أيدي المفسدين ويملكها الصالحون".

(الجهاد في سبيل الله)

وهكذا ينتهي الانحراف في تأويل رسالة القرآن إلى آخـر مـداه إذ تصير مهمـة الرسـل سياسـية بالدرجـة الأولى "وحـتى أنهم يسـمحوا لأهل الجاهليـة بـأن يبقـوا على عقائـدهم السـابقة ويتبعـوا طـرائقهم الجاهليـة مـا دامت آثـار أعمـالهم منحصـرة في أنفسـهم ولكنهم لم يبيحوا لهم – ولا كان يسعهم ذلـك أن تبقى مقاليـد السـلطة والحكم بأيديهم ليديروا شؤون الحياة الإنسانية على قواعـد الجاهليـة ولـذلك سعى كل نبي ورسول لإحداث الانقلاب السياسي حيث بعث".

والحقيقـة أن نوعيـة هـذا الخطـاب لا يتطـابق لا مـع القـرآن ولا الفطرة ولا العقل، وهو خطاب فاشل.

الخطاب الناجح

إن الوتر الحساس الذي يقتضي من الداعيـة الضـرب عليـه ليس القوانين الشرعية الاجتماعية، بل عليه أن يبـدأ من البدايـة الـتي بـدأ منها كل الرسل وهي الإنذار والتبشير، وتعريف النـاس بخـالقهم رب السماوات والأرض ودعوتهم إلى الخضوع له وتمجيده، وهذا الخطاب يتناغم مع الفطرة الإنسانية، ويطاوع نداءها الـداخلي، فتسـتجيب لـه بصورة تلقائية وتطمئن إليه : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُـوبُ)، فينجم عن ذلك الخضوع والاستسلام لربهـا تلقائيـاً، ولا ينتهي هـذا الخضـوع عند حد تنفيذ فريضة شرعية ما، بل إنّ الفطرة الصادقة تمضـي في لهفة وشوق إلى معرفة كل ما يرضي الخـالق، والسـعي لتنفيـذ كـل أوامره بكل رغبة ورهبة ولا تصبح العبادة حينئذ مجرد أمتثـال شـكلي لحكم من الاحكام الشـرعية، بـل سـمو بـالنفس إلى أعلى مـا يمكن من القرب من الله ، إلى حـدٍ تمضـي فيـه هـذه النفس إلى أن تهب كل ما تملك في سبيل الله، وتتبـنى أعظم مشـروع يطرحـه خالقهـا، وهو نصرته بالعمل في سبيل نشر رسالته في النوع البشري ودعـوة الناس إلى حضيرة الإيمان، وهكذا فـإنّ يقظـة صـادقة لنفس مؤمنـة تحـدث يقظـة في غيرهـا من النفـوس، فالـدعوة في الأصـل لإقامـة الـدين في نفس الفـرد، إذا سـلكت الطريـق الصـحيح فهي السـبيل

الوحيـد ليقظـة المجتمـع الإنسـاني، وبـه يحـدث التحـول العظيم في مجرى الحياة البشرية.

وهناك مثل واضح لقضية الدين الرئيسية (علاقة العبـد بربـه) في حديث الرسول الذي رواه الإمام مسلم : "ألا إن في الجسـد مضـغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسـدت فسـد الجسـد كلـه ألا وهي القلب". إن هذا الحديث يعين المركز الحقيقي للعبـادة والـدين وهـو (قلب العبد). وتصديقه في حديث آخر رواه البخاري : "ألا إن التقوى ها هنا" وأشار الرسول إلى القلب. ومعنى هذا أن (الدين الكامل) هو علاقة الخشية والخضوع والرجاء والتوكل والمحبة، فـإذا سـيطر على العبد ذلك فإن كافة جوانب الدين تظهر في حياتـه بصـورة صـحيحة. فالدين الكامل لا يتعلق بالبرنـامج الشـامل أو البرنـامج النـاقص كمـا يدعي البعض أو الدين الشامل للسياسة والدين غير الشامل لها، بـل الـدين الكامـل في أعمـاق الإنسـان، فمن كـان قـد أدرك خالقـه عن طريق الغيب ووجّه له كلّ شعوره بالخضوع والاستسـلام وعـرف أن التصرف والمشيئة والحكم كله له وحده وأنّه وحده الذي يستعان بـه ويلجـأ إليـه بالـدعاء والاسـتكانة والتضـرع، فهـو قـد نجح في إدراك عظمته، ولو لم يتجلى له أمامه، فالتوحيد إدراك للخالق ومعرفـة بـه وراء ستار عالم الأسباب، وأنه المهيمن على عالم ما فـوق الأسـباب الطبيعية، فهـو قـد عـرف أنـه حـاكم كـل نظـام ومالـك كـل القـدرة والتصـرف في الكـون كلـه ولا يملـك أحـد دونـه ذرة في ملكـه وهـو القاهر فوق عباده.

ولا يعني هذا أنه لا أهميـة لتطـبيق الشـريعة أو الاحتكـام إليهـا أو تنفيذها، إن أحـد هـذه الأمـور ليسـت واردة بالنسـبة للمـؤمن، ولكن المقصود هو مراعاة الفرق بين المطلوب الذي يعتمـد عليـه بصـورة أساسية لفوز الإنسان في الآخرة ونجاته من عذاب الله وهو التوحيد، عنوان الصلة القلبية الشخصية بين العبد وخالقه، وهي بمثابة البـذرة للشـجرة، ولا يمكن أن تغـرس شـجرة مـا بـدون بـذرتها أو جـذرها الأصـلي، وأنّ أي جـزء آخـر من الشـجرة لا يمكن إعطـاؤه نفس

الاعتبار، كأن يزعم الإنسان أن الورقة ذات أهمية متساوية مع البذرة فهذه مقارنة غير صـحيحة، وأنت لـو بقيت ملايين السـنين تحـاول أن تغرس الشجرة من غير جذورها أو بذرتها الأصلية فلن تنبت لك هـذه الشجرة، وهذا مثال فقط يوضح الفرق بين الأصل الـذي تقـوم عليـه شجرة الدين وهو العقيدة، وبين الفرع الذي ينمو من الأصل ولا ينمو بنفسه، وذلك مثل تطبيق النظام الإسلامي. إن إعطاء الأصل والفرع قيمة واحدة في منظور التفسير السياسي والنظـامي أخـلّ بالعلاقـة والـترتيب الطـبيعي في شـجرة الـدين الإلهي، ومن لا يحتفـظ بهـذا الترتيب فهو يفقد – بدون ريب – التصـور الصـحيح للـدين، ولـو زعم بشكل جدلي أنه يملك في ذهنه كل أجـزاء الـدين وأنـه يـدعو للـدين الكامل، فبدون مراعاة هذا الفارق سـوف لن يكـون للإنسـان سـوى تصور ناقص وخطأ للدين الإلهي.

ونشير مرة ثانية إلى المثـل الـذي قدمـه الرسـول **(صلى اللـه عليه وسلم)** لأساس الصلاح الإنساني :

"ألا إن في الجسـد مضـغة إذا صـلحت صـلح الجسـد كلـه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب". (رواه مسلم)

فالقلب في هذا التمثيل ليس إلا تمثيل لأساس الصلاح في أعمال العبد كلها، وهو صلاح وسلامة العقيدة، فإذا صلح القلب صلح الجسـد كله. ومعالجة الداعيـة للـدين ينبغي أن تكـون مشـابهة لهـذا التمثيـل الرائع، بأن يحرص علي صلاح الأمر الـذي يصـلح بـه جسـم المجتمـع الإنساني كله، فإذا سلمت العقيـدة وصـلح الجسـد الاجتمـاعي للأمـة كله، وإذا فسدت أو ضـاعت هـذه العقيـدة فسـد الجسـد الاجتمـاعي للأمة كلياً.

إن المقصـود من العقيـدة ليس مجـرد ترديـد العقيـدة الرسـمية للدين بشكلها الصحيح فقط بل هي أحداث وإيقاظ الشـعور الحقيقي بخشية الله والتفاني في محبته وطاعته والإخلاص له فوق كل شـيء آخر حتى يصل الأمر إلى التضحية بكل غال ورخيص في سـبيل اللـه.

إنّ الداعية يبدأ عمله بالضرب على هذا الوتر الحساس حتى يوقظ الشعور السامي في أفراد المجتمع بالحقائق الأبدية، فتبدأ على هذا المستوى يقظة روحية عميقة تأخذ بمجامع النفوس فتؤثر في كل شيء، ويصب إلى كل أنشطة الحياة الإنسانية من الشؤون الفردية إلى الشؤون الدولية .

(5) إعلان الحقيقة

إن الاعتراض على تفسير المودودي، ليس لأنه بالغ في التأكيد على الجانب السياسي في الدين، أو لأنه أدخل السياسة في الدين، فالجميع يعلمون أن السياسة من الدين، ولكن الاعتراض عليه لأنه جعل السياسة أصل الدين ومحور كل تعاليمه، وبذلك يصح أن نطلق على تفسيره (التفسير السياسي للدين).

والمتأثر بهذا التفسير قد صارت له عقلية ترى كل شيء في ضوء السياسة، فإرسال الرسل لمهمة سياسية، والعبادة لإعداد رجال النظام وتربيتهم تربية سياسية، والجهاد لإحداث ثورة سياسية في العالم، وحتى الوقائع التي ليس لها صلة بالسياسة (كالمعراج) تفسر تفسيراً سياسياً. أمّا المفاهيم الحقيقية للدين فقد اختفت، فلم تعد الرسالة والآخرة والعبادة الحقيقية لها أهمية رئيسية في هذا التفسير، وصار للهدف الإضافي والثانوي المكانة الرئيسية في كل نشاطات المتأثرين بهذا التفسير حتى صارت عندهم الدعوة للعمل بصمت لإنذار الناس من الآخرة وعلى منهج النبوة، مؤامرة، وهكذا تحوّل هذا التفسير مدعاة للانحراف عن فهم ودراسة وتطبيق كتاب

الله، والنتيجـة العمليـة الخطـيرة لـذلك هـو حـدوث نشـاطات ضـارة بالدين وإن قامت باسم الـدين ... وباسـم الجهـاد في سـبيل الـدين، تحت تأثير التفسير الجديد لمفهوم الجهاد.

وعلى سبيل المثال : يقول المودودي في تحديد مفهومه للجهاد :

"إن غايــة الجهــاد في الإســلام هي هــدم بنيــان النظم المناقضــة لمبادئـه وإقامــة حكومــة مؤسســة على قواعــد الإســلام في مكانهــا واستبدالها بها، وهذه المهمة مهمة إحداث انقلاب إسلامي عـام، غـير منحصرة في قطر دون قطـر بـل مـا يريـده الإسـلام أن يحـدث هـذا الانقلاب الشــامل في جميــع أنحــاء المعمــورة إلا أنــه لا مندوحــة للمسـلمين أو (أعضـاء الحـزب الإسـلامي) عن الشـروع في مهمتهم بأحداث الانقلاب المنشود والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم الـتي يسـكنونها، أمّـا غـايتهم العليـا وهـدفهم الأسـمى فهـو الانقلاب العالمي الشـامل. فالإسـلام يتطلب الأرض ولا يقنـع بقطعـة أو جـزء منها، إنمـا يتطلب ويسـتدعي المعمـورة كلهـا، وتحقيقـاً لهـذه البغيـة السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل الـتي يمكن استخدامها لأحداث انقلاب عام شامل، ويسمى هذا الكفاح المسـتمر (الجهاد)". (الجهاد في سبيل الله)

لقــد جعــل المــودودي مهمــة الإســلام الأولى وغايــة الجهــاد هي إحداث الانقلاب السياسي لإقامة النظام الإسلامي، وأن هذا الانقلاب شامل في كل أنحاء المعمـورة، وهـذه هي المهمـة الأصـلية لرسـالة الإسلام. وهذا التفسير في غاية الخطورة، فهو لا يتطابق مـع القـرآن وتعاليم الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** وهـو في نفس الـوقت لا يتطــابق مــع الحكمــة العمليــة، ولا مــع روح العصــر الحــديث، فلا مصداقية شرعية أو عقلية أو عصـرية لهـذا التفسـير، وخطـورة هـذا التفسير أنه قد أوجد في الأذهان هدفاً غـير الهـدف الأصـلي لرسـالة الدين، وبذلك ضاع هدف الدعوة الحقيقي، بـل إنـه قـد أحـدث نتـائج خطيرة في الواقع العملي، إذ صارت كافة الحركـات تتجـه إلى مبـدأ العنف لأحداث الانقلاب السياسي لتطبيق الدين.

وخطأ المنهج الذي سلكه المودودي في تعريف الدين يكمن في اعتباره أن مقتضيات الدين مطلوبة بصورة مطلقة دون مراعاة العلاقة بين الشريعة والمشروع له، وهي نوعية من التحريف في فهم وتفسير وتطبيق الدين، قد وقعت أول مرة في التأريخ الإسلامي، إن هذا التحريف ليس في مقدور كل إنسان لم يتعمق في دراسة القضية أن يدركه، كما أنه لا يمكن فهم هذه القضية بدون دراسة بعض العلوم العصرية يقول وحيد الدين خان : "أعتقد أنه لا تكفي العلوم الشرعية لتعيين خطأ المودودي، بل لا بد من العلوم العصرية الحديثة معها كالماركسية وعلم النفس الحديث، تساعدنا الأولى على معرفة نوعية الخطأ، والثاني على تعيين درجة الخطأ، الماركسية تخبرك إذا ما تحولت الحقيقة الجزئية إلى الفلسفة الكاملة أو تحوّل أمر الدعوة إلى مشكلة تفسير ماذا يحدث ؟ وتدرك بعلم النفس كم من أفكار تنمو وتتربى تحت الشعور الإنساني ثم تظهر فيما بعد كواقعة في حياته بدن أن يشعر بها".

(خطأ في التفسير)

إن الماركسية كهيكل أو تركيب لا كفكر أو مضمون هو القالب الذي وضعه المودودي لتفسير الدين مع الفارق أن القالب الماركسي يجعل للاقتصاد الدرجة الرئيسية، ويعتبره الرابطة الكلية لكافة جوانب النظرية الماركسية، بينما المودودي يجعل السياسة هي الرابطة الكلية لجوانب النظرية. وإذا كانت الماركسية تعين نوعية الانحراف والخطأ، فإنّ التحليل النفسي يكشف منبع التأثير اللاشعوري للإنسان عندما يتأثر بعصره وبيئته، ويخرج في صورة واقعة شعورية في فهمه وتفسيره للدين.

لقد كان (أبو الأعلى المودودي) يعيش في مناخ فكري متشبع بالفلسفة السياسية ضد نظم الإقطاع والاستعمار، تلك الأفكار التي راجت وانتشرت في القرن التاسع عشر، وتحت تأثير مثل هذه الأفكار، وفي ظروف كانت السيطرة فيها للاستعمار الإنجليزي، بعد أن فقد المسلمون سيطرتهم السياسية في شبه القارة الهندية أخذ

هذا التأثر الوقتي يتحوّل عنده إلى فلسفة كلية فرضها على الدين الإلهي وجعلها دستوراً مطلقاً للجماعة التي أسسها في الهند، وانتشرت هذه الفلسفة في الوطن العربي خصوصاً بعد أن تبناها (سيد قطب) ونتيجة عدم الوعي بخطورة هذا التفسير تلقاه كثير من العلماء والمثقفين كأحسن ما يعبر عن توجهاتهم العاطفية دون أن يتعمقوا في دراسة هذا التفسير في ضوء القرآن والسنة وشروح المفسرين السابقين، أو يدركوا تأثيره الخطير على مستقبل الدين الإلهي، وكان يقتضي أن يتنبهوا إلى أن البرنامج السياسي في الإسلام ليس قضية العقيدة في حقيقته، بل هو رهن الظروف والأحوال المحيطة بنا في وقت ما أو مكان ما، وأن الظروف الخارجية لا العقيدة هي التي تحدد نوعية واجبنا السياسي بما في ذلك تنفيذ النظم الإسلامية. ولكن هذا التفسير لم يقدر هذه الحقيقة الهامة، وجعل مهمة إقامة النظام السياسي الإسلامي في درجة العقيدة، بل جوهر العقيدة وركنها الذي يقوم عليه الدين بأسره. فإذا سلمنا بهذا التفسير صار الواجب الأول هو البدء بالكفاح السياسي لإقامة الحكومة الإسلامية، دون مراعاة الفرق بين ما هو مطلوب بصورة مستقلة ومطلقة كعقيدة التوحيد والإخلاص في العبادة، وبين ما هو مطلوب بالنظر إلى الظروف الخارجية، وهذا ما ينطبق على الرسالة أو المهمة السياسية في الدين، فهي مقتضيات الدين وليست من أصوله أو أركانه، ولا يعني هذا أنه لا أهمية لها، بل هي ذات أهمية بالنسبة لأحوال خارجية تعين أهميتها، ولا تكون مطلوبة بصورة مطلقة كالصلاة أو علاقة العبادة المباشرة كالدعاء والإخلاص والخضوع والخشية والمحبة والرجاء، وكذلك الأحكام الفردية وسائر ما يكون به المرء مسلماً، ولهذا كان أمر الله بإقامة الدين المتفق عليه بين الرسل وعدم التفرق فيه :

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى : 13)

لأن الدين تتعلق به نجاة الإنسان كفرد يوم القيامة، ولا يعني هنــا أنّ أجزاء الدين الأخرى غير مطلوبة، ولكن التفسير السياسي يجعلها مطلوبة بصورة مطلقة، وهو الذي دفـع في النهايـة إلى القـول بأنهـا هي العقيدة نفسها، وأنها مناط الكفر والإيمان، وأصل دعوة الرسـل، وهدف الجهاد الإسلامي، حتى أن المـودودي زعم أن هـدف الإسـلام من **الجهــاد** : **"الانقلاب السياســي"** وطبــق ســيد قطب هــذا التفسير على الواقع المعاصر فحكم عليـه بالجاهليـة والشـرك ودعـا إلى اعتزال ما أسماه بمعابد الجاهلية (المساجد).

ونلاحظ هنا كيف يقود التفسير الخطأ إلى العمل الخطأ، كما نجـد أن كثيراً من النشء الجديد قد تأثر بهذه التفاسير في غياب التوجيـه، وعلى سـبيل المثـال ذكـر أحـد المـؤلفين المعـروفين وهـو (يوسـف القرضاوي) أنه تلقى رسالة باسـم مجموعـة من الشـباب الدارسـين بجامعة الأزهر تقول : "س" : سـبق أن بعثت إلي فضـيلتكم برسـالة باسمي واسم مجموعة من الشباب المسلم الغيور على دينه، والذي ربطت بينهم العقيدة الإسلامية، رغم اختلاف أوطانهم ما بين المحيط والمحيط .

وقـد طلبنـا من فضـيلتكم الـرد العاجـل والجـواب الشـافي عن السؤال الذي بلبل فكر فئة منا، وكاد يمزق وحدتنا، نظراً لتعصب كل فريق منا لرأيه.

والسؤال – كما أشرت لفضيلتكم في الرسـالة السـابقة – يتعلـق بأمر في غاية من الخطورة وهو الصلاة في مساجد المسلمين، فقــد وجـد من المتطـرفين الـذين يرفضـون الصـلاة في هـذه المسـاجد، مصرين على اعتزالهـا، والاكتفـاء بالصـلاة في الـبيوت، واعتبـار ذلـك جزءاً من مقاطعـة المجتمـع الجـاهلي بكـل مؤسسـاته، وإن اتخـذت صبغة دينية.

ويستند هؤلاء الأخوة في ذلـك إلى مـا قـرؤوه في "الظلال" عنـد تفسير الآية (87) في سورة يونس، وفيها يقول الله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) ﴾
(يونس: 87)

فقد جاء في تفسيرها ما نصه : "هذه التجربة التي يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ليست خاصة ببني إسرائيل، فهي تجربة إيمانية خالصة، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين في المجتمع الجاهلي، وقد عمت الفتنة، وتجبر الطاغوت وفسد الناس، وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون في تلك الفترة، وهنا يرشدهم الله إلى أمور:

1- اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها – ما أمكن ذلك – وتجمع العصبة المؤمنة الخيرة القطيعة على نفسها لتطهرها وتزكيها، وتدربها وتنظمها، حتى يأتي وعد الله لها .

2- اعتزال معابد الجاهلية، واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد، تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي، وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح، وتزاول بالعبادة ذاتها نوعاً من التنظيم في جو العبادة الطهور".

ومن إيحاء هذه العبارات اتخذ هؤلاء الأخوة قرارهم، وجعلوا بيوتهم قبلة لهم، مقاطعين المساجد والجوامع التي يؤمها سائر المسلمين.

والآن قد رضي الجميع بالاحتكام إليك في هذه القضية، حيث رفضوا رأي أي عالم هنا، وأعلنوا أن ما تفتى به سيقبلونه، فأصبح لزاماً عليك شرعاً ألا تدعنا في حيرة من أمرنا، وتنازع فيما بيننا، وأن ترد علينا بما ينير طريقنا، قبل أن يتزايد الخطر ويتطاير الشرر، وقد رضي حكمك المعتدلون والمغالون لثقتهم بعلمك ودينك، وحسن فهمك للإسلام وللحياة معاً، وتحرّيك الحق فيما تكتب ... نحسبك كذلك، والله حسيبك، ولا نزكي على الله أحداً ...

وإنّا لفي انتظار هـذا الجـواب على أحـر من الجمـر. وفقكم اللـه ونفع بكم :

ولقد أجاب المؤلف : "وهذا التفسير أو الاستنتاج لمثل هذا الحكم الخطير من الآية الكريمة خطأ ظاهر ولا يثبت أمـام التمحيص والنقـد العلمي الهادئ السليم...".

وبعد أن أورد المؤلف الأدلة الكافية على بطلان هذا التفسير ذكر أخيراً رداً على الرسالة السابقة : "وأخـيراً أحسـبك لا تجهـل أن هـذا الموضـوع فـرع صـغير من أصـل كبـير، بـل هـو النظـرة إلى جمهـور المسلمين في بلاد الإسلام وحكمنا عليهم : هل هم كفار جاهليون أم مسـلمون متفـاوتون ؟ فمنهم ظـالم لنفسـه ومنهم مقتصـد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ؟

فمن كفّـر المسـلمين لم يـر جـواز الصـلاة في مسـاجدهم، ومن أبقاهم على أصل الإسلام وإن عصوا وانحرفوا – كما هو مذهب أهـل السنة والجماعة – لم ير أفضل من الصلاة في المساجد خلف كل برّ وفاجر ...".

(هدي الإسلام وفتاوي معاصرة ص : 87 – 95)

ولقـد ذكـر د. يوسـف القرضـاوي عبـارة وردت على لسـان سـيد قطب تفيد أنه كان قد عرف أن هذا التفسير يمثل تغييراً في أصــول الـدين. فقـال : "وسـيد قطب قـد غـير من مواقفـه الفكريـة خلال مراحـل حياتـه الحافلـة وانتقـل من مجـرد أديب ناقـد مبهـور ببلاغـة القرآن، (مرحلـة التصوير الفـني) ومشـاهد القيامـة في القـرآن إلى كـاتب إسـلامي يـدعو إلى عدالـة الإسـلام ونظامـه للحيـاة (مرحلـة العدالـة الاجتماعيـة والسـلام العـالمي في الإسـلام) ثم إلى داعيـة حركي له أفكـاره الخاصـة في منهج التغيـير والنظـرة إلى المجتمـع، والـدعوة إلى العقيـدة بـدل الـدعوة إلى النظـام (مرحلـة المعـالم والطبعة الثانية للظلال) وقد ذكر هو ذلـك عن نفسـه لبعض تلاميـذه، فقال له أحـدهم : إذن أنت لـك مـذهبان : قـديم وجديـد كالشـافعي،

فقال له : نعم ولكن الشافعي غير في الفروع، وأنا غيرت في الأصول !!

لقد وضع القرضاوي إشارة تعجب فقط (!!) وأشار في الهامش : "ذكر ذلك د. محمد المهدي البدري في مقال له بمجلة الدعوة نقلاً عن بعض ثقات تلاميذه داخل المعتقل" وذكر القرضاوي أنه من يدري لعل الباحث الناقد يجد أن مذهبه القديم – في بعض القضايا – على الأقل – أدنى إلى الصواب من مذهبه الجديد".
(أنظر : أين الخلل – ص 36 – مكتبة الجديد . تونس 1988)

ولعل المودودي وسيد قطب ممن يتحملان مسؤولية كبيرة في ظهور ورواج هذا التفسير وما ترتب عليه من نتائج وعواقب، ويكفي أن تتحول كل جهود الأجيال الجديدة للعمل في الميدان السياسي القاحل، وفي مثل هذه الظروف لم تظهر أية محاولة نقدية جادة ومتكاملة لهذا الانحراف في الوطن العربي والعالم الإسلامي باستثناء الجهود الرائدة والعميقة للداعية والمفكر الإسلامي وحيد الدين خان الذي كان – في السابق – من أعضاء الجماعة الإسلامية التي أسسها المودودي في الهند، بل كان أحد العناصر الفعالة في هذه الجماعة، وكان قد انتبه وحيد الدين في فترة مبكرة إلى خطأ التفسير السياسي للدين، وعدم تطابقه مع القرآن، وقد حاول إصلاح خطأ هذا التفسير من داخل الجماعة، ولما عجز عن ذلك قدم استقالته (1962) أي بعد خمس عشرة سنة من العمل فيها، ثم نشر كتابه (التفسير السياسي للدين) الذي أبدى فيه الأسباب الفكرية والعملية التي جعلته ينفصل عن هذه الجماعة، وهذا الكتاب وما يتبعه من كتب : (حكمة الدين) (الإسلام) وضحت بجلاء تهافت التفسير السياسي وتعارضه مع فهم السلف أمّا نقده فيقوم على التحليل العلمي المحض.

ومن خلال المعلومات الخاصة التي أتيحت لي عرفت عمق المعاناة والمكابدة التي واجهها هذا الرجل من المؤسسات الدينية ذات النفوذ والسيطرة في شبه القارة الهندية، عندما لم تتحمل

الحقيقة القاسية الـتي أعلنهـا وبشـجاعة نـادرة، وهي الحقيقـة الـتي تهمنا هنا بالدرجة الأولى، فهي حقيقة تتعلـق بمسـتقبل دين اللـه في الأرض، وكان إعلانهـا في ذلـك الحين بعـد أن اسـتنفد كـل الوسـائل الممكنة مع الجماعة الإسـلامية لتصـحيح الانحـراف الـذي حـدث في تفسير الـدين في مؤلفـات المـودودي عنـدما قـدّم الـدين في هيكـل فكري غير هيكله الفكري الأصلي (الإلهي).

لقـد نظـر المـودودي إلى الـدين على أنـه نظـام سياسـي، وأنّ "الدين هو الحكومة"، وأنّ "الغايـة المنشـودة من رسـالة أنبيـاء اللـه عليهم السلام في هذه الدنيا أن يقيموا فيها الحكومة الإسلامية".

(تجديد الدين وإحياؤه ص : 41)

وكان من جراء هذه النظـرة التفسـيرية الجديـدة للـدين أن صـار الهدف الأصلي للحركة الإسلامية التي تأثرت بهذا التفسير هـو تغيـير النظم السياسـية في بلـدانها. والحقيقـة أن هـذا التفسـير السياسـي الخطـير حـوّل الـدين إلى برنـامج سياسـي يمثـل المعارضـة للنظـام القائم سواء أكان معادياً للإسلام أم غـير معـادٍ لـه، والنتيجـة العمليـة هي حدوث الحرب الأهلية وظهور صعوبات عملية أمام الدعاة الـذين يستهدفون نشر الإسلام والعمل الإسـلامي الإيجـابي في بلـدانهم، أو كما عبّر وحيد الدين خـان تحت عنـوان (عـودة الفتنـة) : "إن الخطـر الفاحش الذي جاء نتيجة جعـل الإسـلام سياسـة هـو أنّ الفتنـة الـتي أنهاها النبي وأصحابه بعـد تضـحيات بالغـة، قـد عـادت من جديـد في التأريخ الإسلامي".

(الدعوة الإسلامية)

لقد حـاول وحيـد الـدين خـان محاولـة مسـتميتة من أجـل تقـويم اعوجـاج هـذا التفسـير من داخـل الجماعـة الإسـلامية، ويظهـر ذلـك بوضوح من كتابه (التفسير السياسي للدين)، الذي يروي فيه القصــة الكاملة لفصول الصراع الفكري الذي خاضه – من أجل تصـحيح هـذا الانحراف – مع رؤساء الجماعة الإسـلامية، وعلى رأسـهم المؤسـس

(أبو الأعلى المـودودي). فـيروي لنـا بدايـة اكتشـافه لخطـأ التفسـير السياسي : "لقد نشأت في ذهني بعض الاعتراضات في كانون الأول سنة 1961 م، سجلت أفكاري وأرسلتها إلى الأسـتاذ المـودودي. وإذا علمنا انـه حامـل لـواء الخلافـة (العادلـة) فمن البـديهي أن يكـون رد فعله على انتقاداتي على هذا النحو كأن يقول : "هـذا من حقـه وهـو دليل على أن ضميره حي". وكان عليه أن يشـجعني ويشـكرني على هـذا، ولكن مـاذا حـدث ؟! هي مجموعـة رسـائل مكتوبـة في كتـابي (خطأ في التفسـير) إذ تـابعت معـه المراسـلة مـدة سـنتين من أراد الاطلاع عليها فليراجعهـا في الكتـاب، إن الأسـتاذ المـودودي لم يـردّ على كلامي مطلقاً، ولكنه نهج نهجاً يعدُّه من خصائص عهـد الملوكيـة (المسـتبدة) لا أدري لمـاذا لم يسـع الأسـتاذ إلى تقـديري وبعث الطمأنينة في نفسي ؟ وهذا نص كلامه : "إنّ دراسـتك ناقصـة جـداً، وبلية على بلية، إنك تتكلم من مقام عال، وإنّي لا أرد على من تزّعم هذا الزعم مع قلة علمه".

(خطأ في التفسير ص : 164)

".... إنك تجاوزت الحد الذي يفيد معه التفهيم"

(نفس المصدر ص : 165)

"لقد داخلك الزعم والادعاء الشديدان، وإنني لأشـك هـل بقيت فيـك أهلية محاسبة النفس أم لا"

(نفس المصدر ص 168)

"قـد بلغت مبلغـاً عاليـاً وبعيـداً، فـالحوار معـك غـير ممكن، وبـدون جدوى"

(نفس المصدر ص : 183)

هكذا، لم يـرد على كلامي طـوال فـترة المراسـلة، وحين ألححت عليه كثيراً رد عليّ كتابياً ما نصه : "أنشر أفكـارك، إن قائمـة ناقـديّ طويلة، لو أضفت اسمك بينهم فلا ضير. يرى الأستاذ أنّ من حقـه أن ينتقد جميع مجددي الأمة ومصـلحيها بـدون أي شـرط، ولـه أن يضـع

خطوطاً على أغلاط الصحابة، وأعظم من هذا كله أنه يحاسب خليفة راشداً، ولكنه إذا انتقد فإنّ ناقـده يسـتحق العقـاب الـذي نسـبه إلى الملوك (المستبدين) مع الفارق أن الملوكية تعذب بالسوط والسجن والسـيف لمـا في يـدها من خيـار وقـوة، والأسـتاذ (المـودودي) لا يستطيع إلا بقلم". ومن الجدير هنا أن أوضح أني لا أعدّ نوعية الخطـأ في هذه المؤلفات، قد ارتكبها – عمداً – للتحريف في الدين، بل ذلك قد ظهر فيها بطريق لا شـعوري، إذ أنّ سـيطرة فكـرة معينـة تـؤدي بصاحبها إلى التفكير بأسلوب خاص، بدافع خدمة الدين وليس بـدافع إفساده أو تحريفه. إنني أظن أن الأسـتاذ المـودودي بـريء إلى هـذا الحدّ، ولكن حين لفتّ انتباهه إلى ما بـدر منـه، كـان عليـه أن يراجـع الأمر ويفكر فيه، ولا يغض الطرف عن الانتقاد الموجّه إليه، ظانـاً أنّ ما خرج من فيه أو كتبه بقلمه هو الحق الذي لا تغيير فيـه ولا تبـديل. فليس الخطـأ مـا بـدر من الإنسـان ولكن الخطـأ التمـادي فيـه بعـد المعرفة والاطلاع. واعتقد أن الاعتراف بالخطأ في هذه الحالـة ليس أمراً عادياً، بل فيه أشياء كثيرة خفية، لأجل ذلك فإنـه قبـل طبـاعتي للكتاب طلبت من مسئولي الجماعة الإسلامية أمراً بسـيطاً جـداً، لـو يقبلونـه فإننـا سـنتهي هـذا الخلاف لمصـلحة الـدعوة، وإن كـانت المشكلة باقية من الناحية الأصولية.

لقد كتبت في كتابي اقتراحين، أحدهما : يتعلق بالأستاذ المودودي والثاني : بالجماعة الإسلامية. وخلاصة الاقتراح الذي يتعلق بالأستاذ : أن يعلن الأستاذ أنّ ما قـام بـه من تصـوير للـدين هـو ليس تفسـيراً مطلقـاً للـدين، بـل هـو تأكيـد على بعض النـواحي والأجـزاء الدينيـة مراعاة للظروف المؤقتة حتى نجـد سـنداً من قبـل المؤلـف ونتمكن بذلك من تأويل مؤلفاته في ضوء ذلك القرار.

(خطأ في التفسير ص : 197)

أمـا الاقـتراح الخـاص بالجماعـة : فهـو أن تعـترف الجماعـة في دسـتورها بـأن مؤلفـات المـودودي ليسـت شـرحاً مطلقـاً للجماعـة الإسلامية.

(نفس المصدر ص : 130)

وبعـد ذلـك كـان من البـديهي أن تتغـير مكانـة مؤلفـات الأسـتاذ المودودي، ولا يبقى لها الاعتبار الأساسي، بل تبقى إضافية فحسـب، فحين تستخدم هذه الكتب فإنها تستخدم من أجل فائدتها كغيرها من الكتب الـتي تسـتخدم فيهـا فوائـد، ولن لهـا تبقى أهميـة للجماعـة الإسلامية – على المستوى الفكري – كدستور ومستند قانوني.

(نفس المصدر ص : 137)

وقد قدمت هذين الاقتراحين في كتابي المذكور قبل طباعتـه إلى المسئولين والحقيقة أن الاقتراحين لا يعتبران شـيئاً في جنب مـا هـو مطلوب ولكن يا للأسف ! ..... لم يقبلوا هذا الأمر البسيط إما لشدة تعصبهم أو هو التعنت وقلة التدبر والحكمة.

(نفس المصدر السابق)

تعريف

ولد وحيد خان سـنة 1925 في مدينـة أعظم جـره بالهنـد، وتعلم في جامعة الإصلاح العربيـة الإسـلامية ثم توجـه إلى الدراسـة باللغـة الإنجليزية، وظل وحيد الدين يقدم حصيلة فكرة بعد دراسات عميقة. وفي البدء انتظم في سلك لجنة التأليف التابعـة للجماعـة الإسـلامية بالهند وعمل سنوات معدودة، ولأسباب فكرية انفصل عنها ثم أمضى ثلاث سنوات مكباً على التأليف في المجمع الإسـلامي العلمي التـابع لندوة العلماء بلكناؤ ثم شـغل رئيس تحريـر الجمعيـة الأسـبوعية في دلهي (1967) لمـدة سـبع سـنوات حـتى أغلقت المجلـة من قبـل السـلطات الهنديـة، وفي أكتـوبر سـنة (1976) أصـدر لأول مـرة – ومستقلاً عن كافة الهيئـات – مجلـة (الرسـالة)، ودأبت هـذه المجلـة الشهرية على الصدور حتى الآن، وقـد نـالت حظـاً كبـيراً من النجـاح والقبول، كما ألف الأستاذ وحيد الدين عدة مؤلفات هامة، نذكر منهـا على الخصوص : (الإسلام يتحدى) (الدين في مواجهة العلم) (حكمـة الـدين) (تجديـد الـدين) (الإسـلام والعصـر الحـديث) (قضـية البعث الإسلامي) (الإنسان القرآني) (الإسلام) وقد ترجمت هـذه المؤلفـات

إلى العربية، ومن المؤلفات الهامة التي لم تترجم له: (محمد رسول الغلبة) (ظهور الإسلام) (الله أكبر) بالإضافة إلى تفسيره القرآن الكريم (تذكير القرآن) إلى غير ذلك من المؤلفات التي تربو على خمسين كتاباً، وآلاف المقالات المنشورة وغير المنشورة.

والميزة التي يمتاز بها وحيد الدين من بين أقرانه من مفكري العصر إدمانه القاتل على قراءة الكتب العلمية والفكرية باللغة الإنجليزية، ويمكن تقدير سعة إطلاعه وعمق دراسته من خلال مؤلفاته ذات المستوى العلمي الرفيع، والتي تظهر عمق ثقافته الإسلامية وتمكنه من ثقافة العصر.

ونظراً لقوة نفوذ الجماعة الإسلامية في شبه القارة الهندية وتأثيرها في بعض الأوساط العربية، فلقد أحاطت مؤامرة الصمت الشهير والطعن بوحيد الدين خان، في نفس الوقت الذي فتحت فيه الأبواب أمام شخصيات دينية ذات مستوى سطحي في التفكير، ونالت من الاهتمام والدعاية ما لا يتناسب مع مواهبها الفكرية، والسبب في ذلك – كما هو ظاهر – أن وحيد الدين لا ينتمي إلى أية مؤسسة أو جماعة دينية تقليدية تدشن مكانته الدينية، وتكون سنداً لشهرته ولو كان صاحب موقف وعقل مفكر نادر وموهبة قلمية بارعة ظهرت من خلال مؤلفاته المبكرة، مثل كتابه (الإسلام يتحدى) و (الدين في مواجهة العلم) و (الإسلام والعصر الحديث). إن مثل هذه الكتب القيمة التي ألفها لتعكس بوضوح اتساع ذهنيته ومستوى اطلاعه على فكر العصر ومقدرته الفائقة على الرد على المدارس الغربية للفكر المعاصر بأسلوب علمي تحليلي ليس له مثيل في الفكر الإسلامي المعاصر. فمن هو المفكر أو الكاتب الذي تمكّن أن يطلع بعمق على الفلسفة المعاصرة ويفهم جوهر التحدي الحضاري والمستوى الفكري المعاصر، أو تمكن أن يكتب رداً على التحديات في المستوى العلمي والعصري، أو قام بعرض تعاليم الإسلام بأسلوب علمي تحليلي .... إن الأسلوب الذي درج عليه معظم الكتاب هو الأسلوب الإنشائي والعاطفي والأدبي، كما أن هناك كتاباً

قد نالوا شهرة واسعة ليس لأن صلاحيتهم ومواهبهم العقلية تــؤهلهم لــذلك، بــل لأنهم ينتمــون إلى جماعــات دينيــة تقــف وراء شــهرتهم والدعاية لهم.

ولكن أهم من ذلك كله أن وحيد الدين يعد المجدد الحقيقي لدين الله في هذا العصر، بل هو المجدد الفريــد الــذي أظهــر عمــل النبــوة من جديد وهــو الــدعوة إلى اللــه، إذ لم يظهــر أي مفكــر وهب حياتــه لهــذه الرســالة كمــا فعــل وحيــد الــدين خــان، وعنــدما قــامت جهــود المصــلحين والمفكــرين المســلمين المعاصــرين على أرض التقليــد وردود الفعــل فــإن وحيــد الــدين خــان قــامت جهــوده على أســاس الاكتشاف لعمل النبوة والسير على منهجها الوضــاء، وتقــدم مؤلفاتــه الحل لقضية التجديد في العصر الحديث هذا بصرف النظــر عن عــدم وعي المســلمين بــذلك، والحقيقــة الــتي اكتشفتها من خلال دراســة متواصلة لمؤلفاته أنــه المفكــر الإســلامي الوحيــد الــذي درس بعمــق قضية العصر الحديث التي يواجهها الإسلام، وعيّن بعمق نوعيــة الــرد على هذه التحديات ووضع منهجية تفكير شرعية وعصرية لإحيــاء دين اللــه في الأرض، وبــذلك يعــد بحــق صــانع ســلم التجديــد في العصــر الحديث، ويشعر كاتب هــذه الســطور بالفضــل الكبــير لهــذا المفكــر، ليس فقط من خلال النصوص الوافرة المدعمة لقضيته بل أكــثر من ذلك هــو اكتســابه من خلال مؤلفــات وحيــد الــدين الوجهــة الصــحيحة للتفكير، وهذه مسألة هامــة فلا يمكن أن ينجح العمــل إذا افتقــد هــذا الأمر، ولعل أزمة العمل الإســلامي في جوهرهــا لا تخــرج عن نطــاق هذا التحليل، وهو فقدانه الوجهة الصحيحة للتفكــير، وأؤكــد بكــل ثقــة وبعد خبرة نظرية وعملية أن مؤلفات وحيد الــدين خــان تســتطيع أن تقــدم الحــل لهــذه الأزمــة، وبالتــالي تحويــل تيــار العنــف والمواجهــة السياسية إلى العمل الإيجابي البناء الداخلي والخارجي.

(6) رسالة الجهاد

"إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف" الحسن البصري.

(تفسير ابن كثير 5 / 308)

ما معنى الجهاد في القرآن ؟

وقبل الجواب على هذا السؤال المثار، نود الإشارة إلى أن الإجابة على هذا السؤال لها صيغتان، صيغة أدبية مجازية واسعة فتشمل مختلف جوانب العمل الصالح. وقد تتسع أكثر فتشمل معظم جوانب الحياة العملية لأهل الدين، مثل السعي من أجل التقدم الحضاري والاجتماعي والاقتصادي ... وما إلى ذلك. أما الصيغة الثانية للإجابة فتقوم على أساس علمي محدد كما هي في معناها الحقيقي في (القرآن) المصدر الأساسي للحقائق الدينية في الإسلام. وصفة الإجابة ذات الصيغة العلمية أنها تقوم على أساس التحليل للمعنى الأصلي بخلاف الصيغة الأدبية التي تضم في توسع كل الأمور التي تضاف للمعنى الحقيقي على سبيل المجاز ... وسمة التعريف العلمي التحديد والوضوح للمعنى وهو أمر في غاية الأهمية لمن يريد إدراك حقائق الدين والعمل بمقتضاها فالذي لا يدرك بوضوح الفارق بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي قد يندفع للقول بغير علم ويخطئ بالتالي في إصدار أحكامه الفكرية زاعماً أنها من القرآن وهي ليست من القرآن ونحن نعلم أن الله قد شدد كثيراً في مسألة القول عنه بغير علم وجعلها من الكبائر :

﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ ﴾

(الأعراف : 33)

والملاحظة الأخرى التي نود الإشارة إليها هي ملاحظة الفرق بين المعنى القرآني، والمعـنى الاصـطلاحي في علم من العلـوم الدينيـة، وهو فرق مهم.

فالتعريف لمعنى الجهاد في علم "الفقه" يتميز – بالدرجـة الأولى – بأنه من إنشاء وصنع الفقهاء في ضوء قياسـات خاصـة، أو بقـرائن معينة جعلت للتعريف دلالـة متمـيزة بدرجـة مـا. ومعلـوم أن العلـوم الإسـلامية تسـتعمل المعـاني الاصـطلاحية بـدرجات متفاوتـة من الاختلاف والتميز وفق التحديدات الفنيـة المتفـق عليهـا في كـل علم من العلوم :

وعلى سبيل المثال نلاحظ الفرق في معنى "السنة" بين المعـنى القرآني والمعنى في العلوم الإسلامية ... السنة في "القرآن" بمعنى القـانون الإلهي وحكمـه المعتـاد الـذي لا يتبـدل بالسـنة للوقـائع المتشابهة :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (الفتح : 23)

وهي تعني "لغة" الطريقة محمودة كانت أو مذمومة.

وهي في "إصلاح علماء الأصول" كل ما صـدر عن النـبي **(صلى الله عليه وسلم)** من قول وفعل وتقرير.

وهي في "مصطلح الفقهاء" ما ثبت عن النبي **(صلى الله عليه وسلم)** من غير افتراض أو وجوب.

وهي عنـد "المحـدثين" مـا أثـر عن النـبي **(صـلى اللـه عليـه وسلم)** من قول أو فعل أو تقريـر أو صـفة خلقيـة أو سـيرة، وهي بهذا المعنى مرادفة للحديث.

وقياساً على ذلك نجد أن تعريف الجهاد بالقتال في الفقه تعريـف اصطلاحي اعتمد على قرينـة خارجيـة مسـتعملة، ولكن لا يعـني هـذا التعريف أنه قد التزم المعـنى الحقيقي في القـرآن – كمـا سـيأتي – فالقتال ورد كوسيلة من وسائل الجهـاد وهـو في المنظـور التـأريخي العام مجرد قرينة خارجية تظهر وتختفي وفق الأحوال الخاصـة، ومن

هنا يفقـد التعريـف الفقهي المعـنى الحقيقي الأصـلي وهـو التعريـف العلمي المراد في القرآن، وعلى هذا القياس فإن الجهـاد قـد يحمـل في بعض الأحــوال على الدلالــة المجازيــة، وقــد يحمــل في بعض الأحوال على دلالة اصطلاحية. فلا بد من مراعـاة الفـرق بين الإجابـة ذات الصيغة العلمية المحددة، والإجابة المجازية والاصطلاحية.

تعريف الجهاد

إن المعنى اللغوي وفق المعاجم اللغويـة مثـل "لسـان العـرب" : "الجهاد بمعنى بذل الوسع والطاقة".

وعنـد الجرجـاني (ت 816 هــ) في "التعريفـات" : "الجهـاد هـو الـدعاء إلى دين الحـق" وهـو مـا يؤيـده أحـدث معجم علمي تحليلي لألفاظ القرآن الكريم أصدره مجمع اللغة العربية (1981) :

"وأكثر ما ورد الجهاد في القـرآن ورد مـراداً بـه بـذل الوسـع في نشر الدعوة الإسلامية والـدفاع عنهـا". (معجم ألفـاظ القـرآن الكـريم ص:114.دار الشروق)

إن المعنى اللغوي للجهاد، بـذل الطاقـة واسـتفراغ الوسـع، وهـو غاية الجهد، ومعناه القرآني وفق التعريـف العلمي والتحليلي : "بـذل الطاقة واستفرغ الوسع في سبيل تبليـغ رسـالة القـرآن" وهـو الـذي يسميه الله بالجهاد الكبير:

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

(الفرقان : 52)

الضمير يعود على القرآن وهذه الآية مكية قبل نزول الأمر بقتـال المشركين.

والمـراد من تبليـغ رسـالة القـرآن توعيـة النـاس بقضـية الحيـاة الآخرة وإقامة الحجة على عباد الله بعد دعـوتهم المسـتمرة للتوحيـد الذي هو وسيلة الخلاص والنجاة من عذاب الله يـوم القيامـة والفـوز

بالجنة وهذا الجهاد هو المطلوب بصـفة خاصـة من الرسـول وبصـفة عامة من الأمة الإسلامية كما ورد ذلك صريحاً في القرآن :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِن قَبْـلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾
(الحج : 78)

إن الجهاد الحق مطلوب من الرسول لإقامة الشـهادة على الأمـة الإسلامية كما هو مطلوب تماماً من الأمة الإسلامية لإقامـة الشـهادة على الناس كافة بأنهم قد أبلغـوا رسـالة اللـه في الحيـاة الـدنيا ولئلا يكون أمامهم عذر يوم القيامة.

أمـا تعريـف الجهـاد في سـبيل الـدين بالقتـال فهـو تعريـف كمـا يشرحه أحد المفكرين المعاصـرين بمثابـة حـذف الجهـاد من الـدين. ففي هذا التعريف تضيع قضية الدين الإلهي الأولى وهي الــدعوة إلى التوحيد وإنذار قافلة البشرية من اليوم الآخر.

وهي القضية المطلوبة بصفة مستمرة من أمة خاتم الرسل حتى لا يقول أحد يوم القيامة أنه كان يجهل رسالة الإسـلام، فالمسـؤولية بلا ريب تقع حينئذ على عاتق المسلمين الذين لم يقوموا بالجهاد من أجل تعريف الناس بحقيقة الرسالة القرآنية. والحقيقة أن الجهاد من أجل هداية الناس لدين التوحيد أعظم مهمة على وجه الأرض ويكفي أن الرسل انتدبهم الله لهذه المهمة بالدرجة الأولى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُلِ ﴾

(النساء : 165)

بما في ذلك خاتم الرسل **(صلى الله عليه وسلم)**

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا (45)ـ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِـهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (46) ﴾

(الأحزاب : 45 – 46)

والملاحظة التالية الهامة هي أن القتال لم يستعمل كأداة مطلقـة للجهاد بـل وسـيلة مقيـدة، ومعـنى هـذا بتعبـير آخـر أن الجهـاد ليس مطلوباً وقتياً بـل هـو مطلـوب بصـفة دائمـة مسـتمرة، ولكن القتـال ليس مطلوباً بصفة مطلقة لإقامة الدين ونصرته بل هو مطلــوب في وقت دون وقت وفي حالة دون حالة.

ولقد حدد القرآن قانون القتال الدفاعي من أجـل الـدعوة وهـو : "المجازاة بالمثل"

 وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَـاقِبُوا بِمِثْـلِ مَا عُـوقِبْتُم بِـهِ وَلَئِن صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّابِرِينَ (126)ـ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَـكُ فِي ضَـيْقٍ مِّمَّا يَمْكُـرُونَ (127)ـ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الَّذِينَ اتَّقَـوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (128)

(النحل : 126 – 128)

وفي الآية السابقة يتبين أن الموقف الأمثل هو الصبر وهذا الصبر ليس مجرد موقـف سـلبي بـل هـو تخطيـط وعمـل في ضـوء الغايـة الأصلية للجهاد، وهو هداية النـاس ودعـوتهم لـدين اللـه الحـق، وهي الغاية التي ينبغي أن لا تضيع حتى في ضوضاء الحرب الدفاعية، وهنا يتضح أيضاً السبيل الأكيد لنزول نصرة اللـه على الأعـداء بعـد إقامـة الحجـة واسـتمرارهم في العـدوان على شـهداء الحـق ولقـد كـان الموقف الـذي واجهـه الرسـول والصـحابة في عـدوان أهـل الشـرك عليهم في موقعة أحد يوضح هذه الحقيقة الضـائعة في منهج الـدعاة اليوم قال الله تعالى :

 ادْعُ إِلَىٰ سَـبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ وَجَـادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُـوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَـلَّ عَن سَـبِيلِهِ وَهُـوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَـدِينَ (125)ـ وَإِنْ عَـاقَبْتُمْ فَعَـاقِبُوا بِمِثْـلِ مَا عُـوقِبْتُم بِـهِ وَلَئِن صَـبَرْتُمْ لَهُـوَ خَيْـرٌ لِّلصَّـابِرِينَ (126)ـ وَاصْـبِرْ وَمَا صَـبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (127)ـ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (128)

(النحل : 125 – 128)

إذن هذه الآيات تضع قواعد المعاملة المطلوبة من قبل الدعاة، ولقد ورد في أسباب نزول الآيات أن الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** والصحابة أقسموا على الانتقام من عدوان قريش الوحشي في موقعة أحد إلا أن الله سبحانه وتعالى أنزل هذه الآيات يأمر المسلمين بالصبر، فقال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** حينئذ "نصبر ولا نعاقب"

(أنظر تفسير ابن كثير : 4 / 237)

وعندما دخلت جيوش الإسلام مكة منتصرة ولاحت لأول مرة فرصة مواتية للانتقام لدرجة أن هتف زعيم الأنصار سعد بن عبادة قائلاً : "اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة" فرد عليه الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** "بل اليوم يوم المرحمة اليوم تعظم الحرمة". وكانت النتيجة العظيمة لمعاملة الرسول الكريم أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، حتى الذين سمح الرسول بسفك دمائهم أسلم بعضهم مثل عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن أبي سرح وصارا من كبار المجاهدين في سبيل الله.

ويتبين من هذا أن الصبر ليس موقفاً سلبياً بل هو موقف يعتمد على التخطيط وبعد النظر بهدف تحقيق الانتصار الكامل على الأعداء عن طريق الدعوة الإسلامية التي تأتي على بنيان العدو من القواعد، وكما هو معلوم أن نصر المسلمين الذي تحقق في مكة كان بواسطة الدعوة عندما دخل الناس من جميع القبائل العربية في حضيرة الإسلام بعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة وبذلك تحطمت قوى الشرك تلقائياً بدخول الرسول مكة يقود عشرة آلاف صحابيّ، وانتهت مقاومة قريش أمام هذا العدد الهائل الذي تكون بسبب الدعوة.

فالدعوة قوة لا تغلب لأنها تفتح القلوب حين يعجز السيف عن فتحها وهي تشق طريقها في الأجواء السلمية بسرعة هائلة لأنها تخاطب الفطرة، وفي الأجواء القتالية يعلو التعصب والخوف فيمنع الناس من الاستماع إلى الحق فكيف حينئذ يهتدون. ولقد كان عدوان

الشرك على الرسول مانعاً لدخول النـاس في الإسـلام فلمـا توقـف هذا العدوان بدأ الناس يستمعون ويدخلون في دين الله، وتلك نقطـة تحول هامة تحول في التأريخ البشري لدرجة أنها فتحت عهداً جديـداً، وأصبحت في منظور المستقبل آية للمؤمنين :

﴿ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾
(الفتح : 20)

إن هذا الفتح – صلح الحديبية – كان لا نظير لـه في التـأريخ وهـو نهاية تاريخ وبداية تاريخ، وهـو إطلالـة على عصـر سـوف يسـود فيـه الإسلام العالم بأسـره بـدون قتـال، بـل عن طريـق الفتح الفكـري لا الحربي ...

إن الفتح المـبين في مكـة إيقـاف للقتـال الـذي أشـعله التعصـب والجهل على رسالة الإسلام، وبعد جهـود مضـنية من جهـاد الرسـول والصحابة رضيت قريش أخيراً بعقد هدنة سلمية مـع الرسـول لمـدة عشر سنوات، وكانت لا تعرف في ذلك الـوقت أنهـا أبـرمت معاهـدة لإنهاء مقاومتهـا الظالمـة للرسـول، بـل إن الحميـة الـتي بـرزت في توقيع المعاهدة جعلتها تظن أنها قد انتصرت على الرسول والصحابة حين أرجعتهم خـائبين لم يحققـوا مـا أرادوه من العمـرة، وهي في منظورهـا القـريب العاجـل حصـلت على فوائـد جمـة فسـوف تمـر قوافلها لأول مرة آمنة على مرمى الهدف الإسلامي بدون تهديد.

ولقـد كـان هـذا الصـلح – في البدايـة – مثـار إنكـار واسـتغراب واندهاش للصحابة بما فيهم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنـه. لقد كان أبو بكر الصحابيّ الوحيد الذي وافـق الرسـول منـذ البدايـة. إذن لماذا كان هـذا الصـلح "فتحـاً مبينـاً" مـع وجـود هـذا الإنكـار من الصحابة؟!

إن الله لم يسمّ انتصار المسلمين في أيـة موقعـة حربيـة "فتحـاً مبيناً: لقد سجل الله انتصار المسلمين في بدر الكبرى فقال سبحانه وتعالى :

 وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ)

(آل عمران : 123)

إن الجواب على السـؤال يكمن فيـه السـر الـذي لا تـزال تجهلـه القيادات الإسلامية المعاصرة، إن سر الفتح المبين يكمن في الدعوة لا القتال وببساطة ووضوح، فإن الإسلام ينتصر في الميـدان الفكـري – ميدان الدعوة – بدرجـة الفتح المـبين، أي أن الـدعوة للإسـلام هي سر انتصار المسلمين في كل وقت بما يعادل الفتح المبين، هـذا هـو السـر المجهـول لـدى القيـادات الإسـلامية الـتي تبحث عن انتصـار الإسلام في ميدان المواجهة السياسية منذ مائتي سنة، ولا زالت كـل جهودها وطاقاتها المادية في صحراء السياسة القاحلـة، وتـدفع ثمنـاً باهظاً على كل نشـاط في هـذا الطريـق المسـدود. إن غفلـة هـؤلاء المفكـرين المسـلمين عن سـر الفتح المـبين الـذي جعلـه اللـه آيـة للمؤمـنين وهدايــة الصــراط المســتقيم تكمن فيهــا مأســاة التــأريخ الإسلامي المعاصر كله.

القتال لإزالة فتنة الشرك

ومن المهم في هــذا الخصــوص أن نشــير إلى النــوع الآخــر من القتال من أجل الدعوة الإسلامية والذي شرع لضرورة إيجابيـة مقيـد بزوال فتنة الشرك، وهو المقصود في القرآن الكريم :

 وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ

(الأنفال : 39)

فلقــد اتفــق المفســرون كــابن عبــاس ومجاهــد والحســن وأبــو العالية ... وغيرهم حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَـةٌ حتى لا يفتن مسـلم عن دينـه،

وقال القرطبي : "أصل الفتنة الامتحـان، مـأخوذ من فتنـة الفضـة إذا أدخلتها في النار لتميز رديئها من جيدها، والفتنة بمعـنى الشـرك ومـا تابعه من أذى للمؤمنين"

(القرطبي : 2 / 364)

ولقد كان هذا القتال مقيداً بزوال الاضطهاد على الموحدين من قبل المشركين :

﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

(البقرة : 193)

ولقد زالت فعلياً فتنة الشرك وبتصريح عبـد اللـه بن عمـر عنـدما دُعِيَ للمشـاركة في القتـال الـذي يـدور بين المسـلمين بـدعوى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُـونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ فقـال : " لقـد قاتلنا مع رسول الله حتى لم تكن فتنة" (رواه البخاري في تفسير سورة البقرة)

وفي رواية أخرى : "قاتلت أنا وأصحابي حتى كان الدين كلـه للـه وذهب الشرك ولم تكن فتنة"

(تفسير ابن كثير 3 / 317)

ولقد كان الصحابة يفهمون هـذه القضـية بوضـوح، فلقـد ورد في صحيح البخاري أنّ سعيداً بن جبير قال : خرج علينا عبد الله بن عمـر فرجونا أن يحدثنا حديثاً حسناً قال : فبادرنا إليه رجل فقال يا أبا عبـد الرحمن حدثنا عن القتال في الفتنة والله يقول :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فقال : هل تدري ما الفتنة ثكلتـك أمك، إنما كان محمد **(صلى الله عليه وسلم)** يقاتـل المشـركين وكان الدخول في دينهم فتنة وليس كقتالهم على الملك.

وفي رواية أخرى قال عبد الله بن عمر حين دعي للمشـاركة في الفتنـة وحين تليت عليـه الآيـة، قـال : فعلنـا ذلـك على عهـد رسـوله **(صلى الله عليه وسلم)** حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة.
(تفسير ابن كثير / مجلد 1 ص 403)

ويتضح من الآثار السابقة أن الوضع قد تغـير بعـد جهـود الرسـول والصحابة في القضاء على فتنة الشرك الجارح. وظهـر التوحيـد على عقيدة الشرك. ومن آثار ذلك زوال المبرر القـديم لسـيطرة الملـوك الطواغيت والأنظمة التي كانت تسيطر باسم الشرك.

ولمّا انتهى اضطهاد الشرك وفتنته الجارحة دخـل النـاس في دين الله أفواجاً عن طريـق الـدعوة والتعليم على مـدى العصـور اللاحقـة في كل بقاع المعمورة المعروفة، وأساس انتشاره في كل مكان هو الـدعوة السـلمية بالدرجـة الأولى وعن طريـق تعليم القـرآن ونشـر اللغة العربية وفي هذا يقول السير آرثر كيث – يوضـح كيفيـة دخـول مصر للإسلام "وكـانت نهايـة الإمبراطوريـة البيزنطيـة وقيـام الدولـة العربية في مصر حين انتصر أقل من خمسـة عشـر ألـف جنـدي من الجنود العرب بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين، فالفتح العـربي لمصر لم يكن بالسيف بل بالقرآن، إذ تعلم المصريون قراءة القـرآن ودرسوه وبدؤوا في تعلم اللغة الجديدة أي اللغة العربيـة، لقـد جعـل القرآن المصريين يتكلمون العربية".

SIR.ARTHER KEITH, A NEW THE THEORY OF HUMAN EVOLUTION. LONDON P303

ولا زالت الـدعوة الإسـلامية أقـوى قـوة قـاهرة بيـد المسـلمين، والمقصود الدعوة إلى دين الله الحـق بين الشـعوب غـير المسـلمة، إنها قوة مسخرة لقلوب البشر، وهي القـوة الجهاديـة الـتي فـاز بهـا الإسـلام في كـل وقت حـتى في أحلـك عصـور التـدهور السياسـي والحضاري له. ففي أحيان كثـيرة كـان الإسـلام يسـتقطب الشـعوب للدخول في حضيرته وإعلان ولائها له، وبالتالي تسخير كـل إمكانيتهـا للدفاع عنه، وعلى سبيل المثال يقول توماس آرنولد : "هناك حالتـان تاريخيتـان كبريـان، وطيء فيهمـا الكفـار من المتـبربرين بأقـدامهم

أعناق أتباع النـبي **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** أولئـك هم الأتـراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر، وفي كلتا الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين. وقد حمــل دعاة المسلمين الـذين كـانوا خلـو كـذلك من أي مظهـر من مظـاهر السـلطان الزمـني "السـلطة السياسـية" عقيـدتهم إلى أفريقيـا الوسطى والصين وجزائر الهنـد الشـرقية. وتمتـد العقيـدة الإسـلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار ومن سـيراليون إلى سـيبيريا والصـين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة. (الدعوة إلى الإسلام ص : 26)

ويقول نفس المؤلف معلقاً على تاريخ انتشار الإسـلام في شـرق أفريقيـا في نهايـة القـرن التاسـع عشـر وبدايـة القـرن العشـرين : "وليس القـول بـأن الإسـلام يتقـدم بقـوة السـلاح إلا قليـل جـداً من الحقيقــة، بــل الأمــر على العكس من ذلــك، فتقســيم أفريقيــا بين السـلطات الأوربيـة، الـتي انـتزعت السـيف من أيـدي الرؤسـاء المسـلمين الـذين كـانوا تحت حكمهم حينـذاك قـد هيـأ للـدعوة إلى الإسلام أن تصادف النجاح بعد قرون من الإخفاق".

(المصدر السابق ص : 400)

إن المطلوب الحقيقي من الأمة الإسلامية وريثة الرسـالة الإلهيـة أن تنهض بكل إخلاص من أجل العمل على دعـوة النـاس لـدين اللـه وفتح أبواب الرحمة الإلهية الـتي أرسـل بهـا الرسـول الخـاتم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(الأنبياء : 107)

وحين تنهض من أجـل هـذه المهمـة العظيمـة لن يلبث أن يتغـير التأريخ مرة أخرى وتظهر من جديد آية الله بالفتح لهذه الأمة وهو ما تبحث عنه منذ فترة قديمة مضـيعة جهودهـا وإمكانياتهـا في صـحراء السياسة القاحلة.

ذلــك لأن غايــة الــدعوة الإســلامية هي هدايــة النــاس إلى ربهم وإعلامهم بعقيدة التوحيد التي يتم بها الفـوز بالنجـاة من عـذاب اللـه

يوم القيامة وليس هنـاك طريـق للفتح والنصـر أمـام أتبـاع الرسـول الخاتم إلا طريق الدعوة وهو الجهاد الحقيقي الذي انتـدب اللـه هـذه الأمة له، ويهدي إليه من يشاء من عباده المخلصين.

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(العنكبوت : 69)

ملاحظـــــــة : ليس في موضـوعنا السـابق الحـديث عن القتـال باسم الدفاع عن أمن الدولـة وحـدودها، وضـد الاعتـداءات الخارجيـة عليهـا الـتي هي حـق طـبيعي لهـا. ولكن الموضـوع يتنـاول موضـوع القتال وصلته بقضية الدعوة الإلهية فقط وهي القضية التي تتعلق به كوسيلة لنشر الدين. (أنظر مقدمة الكتاب)

(7) الشريعة والعدل

(أ) العدل :

إن غاية الشريعة العدل ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (الشورى : 15)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالْإِحْسَـانِ وَإِيتَـاءِ ذِي الْقُـرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(النحل : 90)

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَـأْمُرُكُمْ أَن تُـؤَدُّوا الْأَمَانَـاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

(النساء : 58)

وأنَّ العدل مطلـوب حـتى في الحـالات الـتي تجـد فيهـا عاطفتـه عقبة أمام تحقيقه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا كُونُـوا قَـوَّامِينَ لِلَّهِ شُـهَدَاءَ بِالْقِسْـطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

(المائدة : 8)

"وأمور الناس إنما تستقيم بالعدل الذي هو نظام كل شيء حـتى أن الله يقيم الدولة العادلة وإن كـانت كـافرة ولا يقيم الظالمـة ولـو كانت مسلمة".

(ابن تيمية رسالة الأمر بالمعروف ص : 40)

والشـريعة هي المـيزان الإلهي النـاطق بالعـدل لهـذا أمـر اللـه بالتحاكم إليها والرضى بحكمها : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾

(النساء : 59)

(ب) المساواة :

من القواعد الأصولية التشريعية هو اعتبار القاعدة الشرعية التي تنص وتؤكـد على نفـاذ الشـريعة الإسـلامية بـدون اعتبـار للفـوارق الطبقية أو الاجتماعية والعرقية، وهـذه هي سـمة من سـمات العـدل

في مفهوم الشريعة الـذي ليس لـه نظـير في التشـريعات البشـرية. ونأخذ مثالاً على ذلك القوانين الرومانية التي لا تسـوى بين الرومـان وغير الرومان الذين تضعهم في قائمة الحيوانات المتوحشـة وتطلـق عليهم البرابرة. وهذا المنطق العجيب نجد لـه جـذوراً في الجماعـات البشرية كافة: "إن الجماعات البشرية كلها تكاد تتفق في عقيدة كل منهـا أنّ سـائر الجماعـات أحـط منهـا". ولهـذا لم تكن شـعائرهم إلا تعبيراً عن هذا التمييز والاحتقار لغيرهم.

(ول ديورانت : قصة الحضارة 1 / 179)

ولقد ذمّ القرآن اليهود لأنهم حرفوا الشريعة الإلهية وجعلوهـا في هذا المستوى من التعصب :
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) ﴾

(آل عمران : 75 – 76)

ولقد أكد الإسلام في نفس الوقت أن أي وضع اجتماعي خـاص لا يقف أمام تنفيذ الشريعة ولقد حدث أن سـرقت شـريفة من قـريش في عهد الرسول صلوات الله وسـلامه عليـه وكـان موقـف الرسـول حازماً في تنفيذ القصاص.

"إن قريشـاً أهمهم أمـر المخزوميـة الـتي سـرقت، فقـالوا : من يكلم رسول الله **(صلى الله عليـه وسـلم)** ؟ فقـالوا من يجـترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله **(صلى الله عليـه وسـلم)** فكلمه أسامة فقال رسول الله **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** : إنمـا أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذ سرق فيهم الشريف تركــوه، وإذ سرق فيهم الضعيف أقاموا عليـه الحـد : وأيم ! اللـه، لـو أن فاطمـة بنت محمد سرقت لقطعت يدها".

(البخاري / كتاب الأنبياء)

ولقــد وقــع في المدينــة حــادث ســرقة وكــان الســارق مســلماً واستطاع بعض أقارب السارق أن يثيروا الشبهة حــول يهــودي ببعض القرائن حتى همّ النبي أن يخاصم عن المسلم اعتقاداً ببراءتــه فــنزل الوحي الإلهي يفضح الخونة :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(النساء : 105)

فالإسلام لا يرى أي تمييز في الشــريعة وهــذا المنهج الــذي يقــوم على العدل هــو قــوام الاســتقرار والأمن في المجتمعــات والانحــراف عنه لا يؤدي إلا للخراب وانهيار القيم وهو من أتباع السنن الــتي نهي عن أتباعها الإسلام.

(جـ) العقاب

إن أساس التشريع يقوم على القاعدة التالية : "إن الإنسان يتمتع بإرادة مستقلة وبالتالي فهــو مســؤول عن أفعالــه وأقوالــه مســؤولية تامة والعقاب هو الجزاء المقرر لمصلحة الجماعة على عصــيان أمــر الشارع ولمــا كــان الغــرض من العقوبــة هــو إصــلاح الأفــراد وحمايــة الجماعــة وصــيانة نظامهــا فقــد وجب أن تقــوم العقوبــة على أصــول تحقق هــذا الغــرض لتــؤدي العقوبــة وظيفتهــا كمــا ينبغي، ولقــد دلت التجارب عمومــاً أنّ العقوبــات الإســلامية تــؤدي إلى نتــائج أكيــدة في كفــاح الجريمــة وأنّ أي نظــام وضــعي يعجــز عن الوصــول إلى بعض النتائج التي يصل إليها نظام الشريعة الجنائي ولعــل الســر في نجــاح الشــريعة أن عقوباتهــا وضــعت على أســاس طبيعــة الإنســان ففي طبيعة الإنسان أن يخشى ويرجو وهــو لا يــأتي أي عمــل إلا بقــدر مــا ينتظر من منافعه ولا ينتهي من عمل إلا بقدر ما يخشى من مضــاره، ولقــد اســتعملت الشــريعة طبيعــة الإنســان فوضــعت على أساســها عقوبة الجرائم عامة وعقوبات جرائم الحدود والقصاص خاصة.

ولهذا شرع القصاص مقرراً في الأديان السماوية السابقة :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾

(المائدة : 45)

ذلك لأن في حكمة القصاص شفاء لصدر المجني عليه وأوليائه وفيه حياة للمجتمع بردعه لمن تسول لهم أنفسهم ارتكاب الجريمة لقد أشار أحد المشرعين الغربيين إلى أهمية القصاص فقال : إذا أخذ المقنن عقوبة من طبيعة الجريمة فقد انتصرت العدالة".

(بنتام : أصول الشرائع 1 / 233)

ذلك لأن أحسن العقاب أن يكون من نفس الجنس للجريمة التي اقترفت فلو عوقب على الاعتداء مثلاً بغرامة مالية لكانت العقوبة بالنسبة لغني عبثاً.

(أنظر التشريع الجنائي في الإسلام 1 / 715)

خصائص الأمر التشريعي

إن الاستقامة في تطبيق التشريع مطلوبة، والاستقامة في التطبيق، تقوم على الاستقامة في التشريع، ولو أنّ الشرع الإلهي قد اكتمل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾

(المائدة : 3)

إلاّ أن العلاقة بين المشرع والمشرع له، ينبغي أن تكون علاقة صحيحة تراعي النسب المختلفة بين التشريعات. وتراعي الفطرة الإنسانية وفي الحديث الذي رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه بيان لذلك : "إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله ... فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم فإذا فعلوا فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم فإذا أطاعوا بها فخذ منهم وتوقى كرائم أموال الناس".

(البخاري / كتاب الزكاة)

هـذا من جهـة المشـرع أو الداعيـة أمـا من جهـة المشـرّع لـه أو المدعو فعليه الالتزام بالشريعة بعد المعرفة :

 ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

(الجاثية : 18)

ونجـد للشـريعة الإسـلامية خصائصـها التشـريعية والتربويـة الـتي تتجلى فيها الحكمة والاستقامة والعدل، وفي السطور القادمة سوف نشير إلى أهم هذه الخصائص :

أ – رفع الحرج

إنّ أحد المبادئ المهمة الـتي قرّرهـا الخـالق على الإنسـان مبـدأ رفع الحرج :

 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ (الحج : 76)

ورفع الحرج بمعنى عدم تكليف الإنسان بما لا تقدر عليـه فطرتـه وأنّ التكليف بحسب الوسع : لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها

(البقرة : 286)

ولهذا السبب نجـد أن اللـه ينهي عن الإكثـار من الأسـئلة والبحث عن شريعة أمر من الأمور لم ينزل فيه الله نص بيان في القرآن :

 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُـؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ

(المائدة : 101)

ولقد أكَّد الرسول **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** أن اللـه عنـدما سكت عن أشياء رحمة بنا فلا يليق بنا حينئذ البحث عنها، ويكفينا الله ما شرع وأن ننفذ منه ما نسـتطيع، عن ثعلبـة الخشـني قـال رسـول

الله : "إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحّـد حـدوداً، فلا تعتـدوها وحــرّم أشـياء فلا تنتهكوهــا وسـكت عن أشـياء رحمــة بكم من غـير نسيان فلا تبحثوا عنها".

(رواه النووي)

ومن أعظم الذنوب عند الله قوله **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** "من أعظم المســلمين جرمــاً من ســأل عن شــيء لم يحــرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته".

(مختصر تفسير ابن كثير الصابوني 1 / 105)

وقـال : "ذروني مـا تـركتكم، فإنمـا أهلـك من كـان قبلكم بكـثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم".

(رواه ابن عبد البر / جامع بيان العلم 2 / 172)

ولقد أشار الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** مراراً إلى عنصر الهلاك في الأمم السابقة : "بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيـائهم : "فإذا أمـرتكم بشـيء فـاتوه وإذا نهيتكم عن شـيء فـانتهوا عنـه مـا استطعتم" (مسلم / فرض الحج)

فالشـريعة الإلهيـة قوامهـا أوامـر محـددة وبسـيطة جـاءت على مقتضى الوسع الإرادي للإنسان ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(البقرة : 286)

(ب) التدرج

إن التدرج في نزول تعاليم الأحكام الشرعية هو الأسلوب الإلهي الذي سلكته الدعوة الإسلامية، وهو الأسوة المطلوبة في تطبيق التعاليم الإسلامية وبسبب هذا الأسلوب قسم العلماء القرآن إلى مكي ومدني بحسب نزوله، وهذا التقسيم كما نعلم يبين الفارق الأساسي في أسلوب تربية القرآن وهو مراعاة الأحوال التي يكون فيها الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، وهذه ميزة مهمة من ميزات التربية القرآنية، لا ينبغي إهمالها في كل تربية معنية بتطبيق وتعليم

القرآن الكريم، ويصور هذه الحقيقة الحديث الذي رواه عبد الله بن يوسف عن مالك عن السيدة عائشة "إنما نزل أول ما نزل من سوره (القرآن) من المفصل فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد (صلى الله عليه وسلم) وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (القمر : 46) وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده".

(صحيح البخاري / باب تأليف القرآن)

فهذا الخبر ينبئ أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم يشرعها دفعة واحدة في قانون واحد، وإنّما شرعت متفرقة في مدى اثنتين وعشرين سنة وبضعة أشهر، والتدرج في أنواع التشريعات ظاهر من أن المسلمين لم يكلفوا في أول عهدهم بالإسلام بما يشق عليهم فعله أو ما يشق عليهم تركه بل يسلك بهم سبل التدرج وأخذوا بالرفق وهذا هو الأسلوب الذي يوافق الفطرة الإنسانية.
(أنظر عبد الوهاب خلاف : تاريخ التشريع الإسلامي ص : 18 – 19)

الفرق

أما مسألة تطبيق الشريعة (رغم حيوية وأهمية هذا الهدف) فليس هو الهدف الأصلي الذي من أجله أرسل الله الرسل، ولا يوجد أي دليل من القرآن أو من السنة يبين بصراحة أن الله أرسل الرسل على أنها مهمتهم الأصلية، إنما يأتي هذا الهدف ضمن مقتضيات الدين، وهذا يعني أنه ليس مطلوباً بصورة مطلقة ونهائية كما يفترض التفسير النظامي للدين. وهو مطلوب بالنسبة للأصل وليس مطلوباً بنفسه، ولهذا فهو يعتمد على الظروف الخارجية المحيطة بالمؤمنين، وبالنظر إلى هذه الظروف وحدها نستطيع أن نعين وجوب تطبيق الشريعة أو عدم تطبيقها، ولا يعني هذا عدم أهمية تطبيق الشريعة أو التخلي عن هذا الهدف بصورة مطلقة، إنما

المقصود مراعاة الفرق بين الفريضة الأصـلية المطلقـة والـتي يتعين بأدائها خلاص الإنسان ونجاته يـوم القيامـة والـتي لا يجـوز تأجيلهـا أو تأخيرها لأنها منـاط الاختبـار البشـري وبين الفريضـة الفرعيـة للـدين الـتي تبعـاً لقيـام الفريضـة الأصـلية وهي ثانويـة دائمـاً، ولا يمكن أن نطالب بها إلا من كان له قدره واستطاعة على أدائها، ويجب أن ننبه أن هـذه الاسـتطاعة مسـألة غـير مطلوبـة كهـدف بـل تـأتي بصـورة مطلقة، والفريضة الإضافية تنفيذ الشريعة في الحـدود، إنّ الفريضـة الثانية تعتمد على الأحوال الخارجية للمجتمع المسلم وفي حالة توفر حرية الاختيار للمجتمع المسلم فقـط، ولا يمكن المطالبـة بهـا إلا من توفرت لهم هذه الظروف وفي نفس الوقت لا يعني هـذا أنهم عليهم أن يخلقوا هـذه الظـروف أو نلـزمهم بالسـعي لـذلك ونقـرر أن هـذا السعي واجب وجوباً لا تسامح فيه ولا تبرأ ذمتنا أمام الله إلا بتحقيقه أو السعي إلى تحقيقه. إن هـذا الفهم والتفسـير غـير صـحيح مطلقـاً ويتعارض مع تعاليم الدين ومن يصر على هـذا الفهم فهـو كمن يـرى أن فريضـة الزكـاة مطلوبـة بصـورة مطلقـة وليس بالنسـبة لأحـوال المكلفين، فمن المعـروف أن فريضـة الزكـاة واجبـة فقـط على من يملكون النصاب المالي وحـان الـوقت لتأديـة الزكـاة، وليس ممن لا يمتلكون هذا النصـاب بعـد، ولا يمكن لنـا أن نلـزم النـاس أو نكلفهم بالسعي لتحصيل المال لتأدية الزكاة وأن نعتـبر هـذا السـعي فريضـة مطلقة لا نبرأ من أدائها أمام الله. وهذا معـنى خطـأ الـذين ينظـرون إلى مسألة تطبيق الشـريعة كهـدف مطلـق ومسـتقل عن الظـروف الخارجيـة الـتي لا تسـمح بـذلك، وهم في هـذا يشـبهون تمامـاً من يفترض أن ذمة المؤمن لا تبرأ حتى يسعى لتكوين ثروة يخرج الزكاة منها فهذا الخطأ نجم من عدم مراعاة العلاقة بين الشـرع والمشـرع له فجعل أحكام الدين في درجة واحدة دون مراعاة أحوال المكلفين وهو أمر في غاية الأهمية ..

"إن أحكـام الشـريعة في درجـة واحـدة من حيث صـيغة وجوبهـا ولكنهـا تختلـف من حيث علاقتنـا بهـا في التطـبيق، ومثـال ذلـك أن الصيغة الشرعية لحكم الصلاة ولحكم الزكـاة في صـورة واحـدة من

الناحية الشكلية ﴿ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ وَارْكَعُـوا﴾، (البقـرة: 43).

أمـا انطباقهمـا علينـا فليس متشـابهاً أو من درجـة واحـدة : فـإذا عرض أحد الناس الخريطـة الكاملـة لجميـع أحكـام الـدين وإدّعى أن جميع المؤمنين مكلفون بها في جميع الظـروف، فمثلـه كمثـل الـذي يشير إلى أحكام جميع أنـواع الزكـاة ثم يـدّعي أن جميـع المسـلمين مكلفون بالسعي لامتلاك جميـع أنـواع الـثروات حـتى يمتثلـوا لجميـع أنواع أحكام الزكاة".

(حكمة الدين/ ص : 56)

وهذا تماماً ما يذهب إليه التفسـير السياسـي للـدين فهـو يعـرض الخريطـة الكاملـة لجميـع أحكـام الـدين الشـرعية ويطـالب جميـع المؤمنين بتنفيذها بصفة مطلقة، أو السعي لتنفيذها بصورة متشـابهة دون مراعاة أحوال المكلفين ونوعية وجوب أحكام الدين علينا، ولمـا كانت مسألة تنفيذ الشريعة تقتضي الحصول على السلطة السياسية لتنفيذها فصار طبقـاً لهـذا التفسـير وجـوب تغيـير النظـام السياسـي القـائم ليتم ذلـك وصـار وجـوب الحكم الشـرعي وفـق التفسـير السياسـي مطلقـاً وأن المـراد من إقامـة الـدين وتحقيـق التوحيـد وحصول العبادة هـو تنفيـذ الأحكـام الشـرعية كافـة الـتي نجـدها في الإسلام في جميع الأوقات والظروف والبلدان وهذا هو خطأ التفسير النظـامي للـدين وكـان من نتيجـة هـذا التفسـير أن الهـدف الأصـلي لرسالة الرسل اختفى ليحـل محلـه هـدف إقامـة النظـام السياسي، وصارت هذه العملية أوسع عمليات الانتحار الجمـاعي في الـدين في العصر الحديث !

(8) قضية حساسة

إن قضية السلطة السياسية، قضية خاصة وحساسة للغايـة، وهي سيطرة الطرف الأقوى، ومن هنا كانت دعوة الرسول **(صلى اللـه عليه وسلم)** المستمرة إلى عدم جعلها هدفاً للـدعاة في أحـاديث واضحة ومشهورة وصحيحة، وعندما نشير إلى هذه الأحاديث وكـذلك إلى أقوال العلماء الـتي تتفـق مـع هـذه الأحـاديث لا يعـني ذلـك في الواقع الإقرار بالظلم أو الفساد معاذ الله وما أظن القـارئ يسـتطيع أن يتهم سيد الرسل وهؤلاء العلماء بذلك، نهى رسـول اللـه **(صـلى الله عليه وسلم)** التعرض الجـارح للسـلطة القائمـة باسـم الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يمنع من تقديم النصـيحة بأسـلوب أمثـل، ولكن نهى نهيـاً صـريحاً عن اسـتخدام العنـف والتمـرد باسـم الدين، لأن ذلك يكون أعظم سبب للتفرق في الدين الـذي أمـر اللـه بإقامته :

﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾

(الشورى : 13)

ذلك لأن مصلحة المجتمع مرتبطة بالإتحـاد لا بـالتفرق وبـالأمن لا بالخوف وبحفظ الأرواح لا بتضييعها، وهؤلاء الذين يقدمون على ذلـك باسم الدين إنما يقضـون على الـدين في الحقيقـة وعملهم خـالٍ من الشرعية، مهما كانت مبرراتهم وتأويلاتهم، فإن الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** حسم هذه القضية ، وأجمع الجمهـور من الأمـة على هذا الأمر وخالفهم في هذا الشيعة والخوارج والمعتزلة.

وفيما يلي النصوص القاطعة من أحاديث الرسـول **(صـلى اللـه عليه وسلم)** وأقوال الأئمة الذين يعبرون على اتجاه أهل السنة :

1-عن عبادة بن الصـامت قـال : دعانـا النـبي **(صلى اللـه عليـه وسلم)** فبايعناه فقال فيما أخذ علينا بايعنا على السـمع والطاعـة

في منشـطنا ومكرهنـا وعسـرنا ويسـرنا وأثرة علينـا وأن لا نتنـازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم فيه من الله برهان.

(رواه البخاري)

قال الإمام النووي : "ومعنى الحـديث لا تنـازعوا ولاة الأمـور في ولايتهم ولا تعترضـوا عليهم إلا أن تـروا منكـراً محققـاً تعلمونـه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلـك فـأنكروا عليهم، وأمـا الخـروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقة أو ظالمين".

(محمد فؤاد عبد الباقي : اللؤلؤ والمرجان ص : 483)

2-عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قـال رسـول اللـه **(صلى الله عليـه وسـلم)** : "إنهـا سـتكون بعـدى أثـرة وأمـور تنكرونها قالوا : يا رسول الله. كيف تأمر من أدرك منا ذلـك. قـال تؤدون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم" (متفق عليه)

(البخاري / كتاب الفتن – مسلم باب الإمارة – الترمذي / الفتن)

3-عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)،** يقول "خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم قال : قلنا يا رسول الله أفلا ننابذهم. وفي رواية "أفلا نقاتلهم" قال : لا، ما أقاموا فيكم الصلاة"

(رواه مسلم / باب الإمامة)

4-عن وائل بن حجر رضي اللـه عنـه قـال : سـأل سـلمة بن يزيـد الجعفي رسول الله **(صلى الله عليه وسـلم)** فقـال : يـا نـبي الله أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنـا فمـا تأمرنا؟ - فأعرض عنه – ثم سأله فقال رسول اللـه **(صـلى اللـه عليه وسلم)**: "اسمعوا وأطيعوا فإنمـا عليهم مـا حملـوا وعليكم ما حُمّلتم.

(رواه مسلم / باب الإمارة)

5-عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** في حجة الوداع : "استنصت الناس، ثم قال : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض".

(متفق عليه / باب الإمارة)

6-عن ابن عباس عن رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** قال : "من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية".

(متفق عليه / مسلم – باب الإمارة)

7-عن ابن عباس عن رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** قال : "من كره من أميره شيئاً فليصبر عليه، فإنه ليس أحد من الناس خرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية".

(متفق عليه) (رواية البخاري)

8- قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** : "من كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخذ بيده وليخل به، فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدى الذي له والذي عليه".

(أخرجه الحاكم (حـ3/ص:29) والبيهقي (جـ8/ص:164).رجالة ثقات وإسناده متصل)

ملاحظة

هناك من يعترض ويقول أن الأحاديث تشير إلى نوعية معينة من الأئمة الذين لا يجوز معهم ما يجوز مع غيرهم، ويستدلون بفتاوى وأقضية لا علاقة لها بالقضية المطروحة وهذا لا يصح.

في هذا قال الإمام ابن تيمية :

"يقولون (أهل السنة) أنه (الحاكم) يعاون على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ويطاع في طاعة الله دون معصيته، ولا يخرج عليه بالسيف، وأحاديث النبي **(صلى الله عليه وسلم)** إنما تدل على هذا. كما في الصحيحين، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي **(صلى الله عليه وسلم)**:

"من رأي من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه ليس أحـد من الناس يخرج عن السلطان شبراً فمات عليـه إلا مـات ميتـة جاهليـة" فجعل المحذور هو الخروج ومفارقة الجماعـة وأمـر بالصـبر على مـا يكـره من الأمـير، لم يخص بـذلك سـلطاناً معينـاً ولا أمـيراً معينـاً ولا جماعة معينة .... وهي أن النـبي **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** أمـر بطاعة الأئمة الموجودين المعلومين الـذين لهم سـلطان يقـدرون بـه على سياسة الناس لا بطاعة معلوم ولا مجهول".

(منهاج السنة 1 / 386)

موقف علمـاء الأمـة من قضـية الخـروج السياسـي باسـم الدين:

1- مالك بن أنس :

يتحـدث محمـد أبـو زهـرة في كتابـه "مالـك حياتـه وعصـره" عن موقف الإمام مالك من قضية الخروج السياسي فيقول : "كان مالـك لا يرى أن حكم الخلفاء الذين عاصروه هو حكم الإسلام ولكنه لم يـر جواز الانتفاض عليهم ليأسه من الإصـلاح عن طريـق الانتفـاض، ولأن الفتن التي بلغه خبرها، والتي شاهدها لم تنقـل الأمـر من فسـاد إلى صلاح، بل كانت تحوله من فساد إلى فساد، ومع هذا الرأي لم يقطـع صلته بالخلفاء والأمـراء، بـل كـان يـرى من الـواجب عليـه إرشـادهم وإصلاحهم، لأنه رجـل ينظـر إلى واقـع الأمـور، ولا يقـف عنـد الصـور المثالية وحدها، وقد وجد أن وعظ هؤلاء يذهب ببعض ما يقعـون فيـه ويقلل من شرهم، وربما حملهم على الصـلاح المطلـق، وصـار منهم مثل عمر بن عبد العزيز.

لـذلك كـان يـدخل على الأمـراء والخلفـاء ويعظهم ويرشـدهم ويدعوهم إلى الخير فهـو يحمـل نفسـه عنـاء الـذهاب، ويغلـظ عليهـا ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكـر، وكـان يـؤثر إرشـادهم على التحريض عليهم، وكان يقول : لولا أني آتيهم ما رأيت للنـبي **(صـلى الله عليه وسلم)** في هذه المدينة سنة معمولة بها"

(أنظر : كتاب "مالك حياته وعصره ص : 64 – 65)

وبعد أن يذكر أبو زهرة المحنـة الـتي نـزلت بمالـك في عهـد أبي جعفر المنصور يقول معقباً :

"إنما القضية التي هي موضع نظر هل حرّض مالك على الخروج، وخاض في الفتنة؟ الجواب عن ذلك لا بلا ريب بدليل قول ابن جريـر نفسه : "ولزم مالك بيته" فهو انقطع عن الناس، لكي لا يخـوض في الفتنة".

ثم يقول في موضع آخـر : "ويظهـر أن أهـل المدينـة عنـدما رأوا فقيهـا وإمامهـا يـنزل بـه ذلـك النكـال سـخطوا على بـني العبـاس وولاتهم وخصوصاً أنه كان مظلوماً، فما حـرّض على فتنـة، ومـا بغى، ولا تجاوز حد الإفتاء، ولم يفارق خطته قبل الأذى وبعده، فلزم درسه بعد أن أبل من جراحـه واسـتمر في درسـه لا يحـرض ولا يـدعو إلى فساد".

(أنظر : نفس المرجع السابق ص : 63)

2- ابن تيمية :

يقول : "أمر النبي **(صلى الله عليه وسـلم)** بالصـبر على جـور الأئمة، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة وقال : "أدوا إليهم حقوقهم، وسـلوا اللـه حقـوقكم". ولهـذا من أصـول السـنة والجماعـة : لـزوم الجماعة وترك قتال الأئمة، وترك القتال في الفتنة".

(أنظر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص : 20)

ويقـول ابن تيميـة : "إن المشـهور من مـذهب أهـل السـنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمـة وقتـالهم بالسـيف، وإن كـان فيهم ظلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفسـاد الحاصـل بظلمهم بـدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى"

(أنظر : منهاج السنة 2 / 87 ط، الأولى – القاهرة)

3-الأشعري :

"إن أهل الحـديث اتفقـوا على أن السـيف (اسـتخدام السـيف في تغيير السلطة) باطل، ولو قتلت الرجال وسـبيت الذريـة، وأن الإمام قد يكون عادلاً ويكون غير عادل، وليس لنـا إزالتـه وإن كـان فاسقاً، وأنكروا الخروج على السلطان، ولم يروه".
(أنظر : مقالات الإسلاميين واختلاق المصلين 2/451 ط/اسطنبول 1929 م)

4-الطحاوي :

يقول الإمـام الطحـاوي : "ولا نـرى الخـروج على أئمتنـا وولاة أمورنا وإن جاروا ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم، ونــرى طاعتهم من طاعة الله عزّ وجلّ فريضة، مـا لم يـأمروا بمعصـية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة"
(العقيدة الطحاوية / 428 منشورات المكتب الإسلامي)

5-النووي :

"وأمـا الخـروج عليهم وقتـالهم فحـرام بإجمـاع المسـلمين وإن كانوا فسقة ظـالمين، وقـد تظـاهرت الأحـاديث بمعـنى مـا ذكرتـه، وأجمـع أهـل السـنة أنـه لا ينعـزل بالفسـق وسـبب عـدم انعزالـه وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقـة الـدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه".
(شرح صحيح مسلم : 12 / 229)

6- القرطبي :

قال القرطبي بعد أن تحدث على الخروج عن الإمام :

"والذي عليـه الأكـثر من العلمـاء أن الصـبر على طاعـة الإمـام الجـائر أولى من الخـروج عليـه، لأن في منازعتـه والخـروج عليـه استبدال الأمن بـالخوف، وإراقـة الـدماء، وانطلاق أيـدي السـفهاء، وشن الغارات على المسلمين والفساد في الأرض".
(أنظر تفسير القرطبي : 2 / 108 – 109)

7- الحافظ ابن كثير : "صاحب التفسير :

يقول : "والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد فسقه على أصح قول العلماء، بل ولا يجوز الخـروج عليـه لمـا في ذلـك من إثـارة الفتنـة ووقــوع الهــرج وســفك الــدماء الحــرام، ونهب الأمــوال، وفعــل الفواحش مع النساء وغيرهن، وغير ذلك مما كـل واحـدة فيهـا من الفساد أضعاف فسقه كما جرى مما تقدم إلى يومنا هذا".

(ابن كثير / البداية والنهاية 8 / 223 – 224)

8- الإمام أحمد بن حنبل :

"ومن خـرج على إمـام من أئمـة المسـلمين وقـد كـان النـاس اجتمعوا عليه ... بأي وجه من الوجـوه كـان بالرضـا أو الغلبـة فقـد شق الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله **(صـلى الله عليه وسلم)** - فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية".

(المناقب لابن الجوزي ص : 76)

9-ابن قيم الجوزية :

يتحدث عن شـروط الإنكـار فيقـول : "أن النـبي **(صلى اللـه عليه وسلم)** شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل – بإنكــاره – من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يسـتلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسـوغ إنكـاره وإن كان الله يبغضه إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصـحابة رسـول اللـه **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** في قتـال الأمـراء الـذين يـؤخرون الصـلاة على وقتهـا، وقـالوا : أفلا نقـاتلهم ؟ قـال : لا، مـا أقـاموا الصلاة. وقال : من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يـداً من طاعته".

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبـار والصـغار رآهـا من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكـر، فطلب إزالتـه فتولـد منه ما هو أكبر منه فقد كان رسول الله يرى بمكة أكـبر المنكـرات ولا يستطيع تغييرها بل لما فتح الله مكـة وصـارت دار الإسـلام عـزم

على تغيير الـبيت ورده على قواعـد إبـراهيم، ومنعـه من ذلـك – مـع قدرته عليه – خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قــريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام، وكـونهم حـديثي عهـد يكفـر، ولهـذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد، لما يترتب عليه من وقـوع مـا هـو أعظم منه.

(أنظر أعلام الموقعين 3 / 4)

هذا هو موقف علماء الأمة من مسألة الخروج السياسـي أمـا مـا يتعلق بمسؤولية الحكام فقـد وردت أحـاديث فيهـا توجيهـات صـارمة من النبي **(صلى الله عليه وسلم)** ويكفي قوله : "ما من أحد من أمـتي ولى أمر من المسـلمين شـيئاً لم يحفظهم بمـا حفـظ نفسـه وأهله إلا لم يجد رائحة الجنة".

(متفق عليه)

ويجب في نفس الوقت أن نلاحظ أن كافة الآيات التي تدور حول الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر إنمـا تسـتهدف بالدرجـة الأولى الدعوة إلى الإسلام كما قال شيخ المفسرين الإمام الطبري : "كلمـا ذكره الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأمر بالمعروف دعاء من الشرك إلى الإسلام، والنهي عن المنكـر : النهي عن عبادة الأوثان والشياطين".

(أنظر تفسير الطبري للآية 79 من سورة براءة)

وقال ابن عباس : "لا إله إلا الله أعظم المعـروف والتكـذيب هـو أنكر المنكر".

(الطبري جـ4 / 28)

وقال المفسر الرازي: "أعرف المعروفات الدين الحـق والإيمـان بالتوحيد والنبوة وأنكر المنكرات الكفر بالله".

(التفسير الكبير 3 / 28)

والحقيقة أن المهمة الرئيسة للـدعاة هي الـدعوة إلى دين اللـه: "أما قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الوسط الإسلامي فيقتضي أن تكون وفق الشروط والاعتبارات التالية :

الشـرط الأول : إن أهم شـرط يقتضـي مراعاتـه في مسـألة الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر هو نسبية العمل به فهـو ليس مطلوبـاً بصورة مطلقة وهذا مـا تقتضـيه الآيـة الكريمـة: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ
(المائدة : 105)
ومعــنى أن الآيــة صــريحة في الاهتمــام بإصــلاح النفس على المستوى الخاص، فإن آيات أخرى تدل على ضرورة القيام به :
 كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْـرِجَتْ لِلنَّاسِ تَـأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ
(آل عمران : 110)
وهذا مـا يؤكـد أن الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر مطلـوب بصورة مشروطة ومقيدة، وهذا التقييد وردت به وأكدتـه الآثـار، ومن ذلك حديث الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** الذي رواه أبو ثعلبة الخشني عندما جاء رسول الله (صلي اللـه عليـه وسـلم) يسـأله عن تأويلــه آيــة يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَــكُمْ "بــل ائتمــروا بالمعروف وأنهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعـاً ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يـدان لـك بـه فعليك بنفسك ودع عنك أمر العوام".
(رواه ابن ماجة / كتاب الفتن)
فالمصلح والداعي إلى الحق يجب أن يكون خبيراً بـأحوال النـاس من حوله وأهم مسألة مدى استعدادهم لقبول النصيحة وفي القــرآن إشارة لهذا :
 فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (الأعلى : 9)
 إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ
(يس : 11)

وهذا ينطبق تماماً على قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو يتعين عند وجود الأحوال الملائمة وهـذا يرجـع إلى وعي الداعيـة وبصـيرته وفي أحـوال خاصـة يرشـد الرسـول **(صـلى اللـه عليـه وسلم)** موجهاً قوله لأحد الصحابة :

"إلزم بيتك، وأملـك عليـك لسـانك وخـذ مـا تعـرف ودع مـا تنكـر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة".

(جامع الأصول 10 / 6)

وفي الحال الذي يكون فيـه الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر غير مطلوب ويؤدي إلى مفسدة أشد يكون غير جائز بـل من الأمـور المحرمة يقول الإمام ابن تيميـة : "فيـأتي بـالأمر والنهي معتقـداً أنّـه مطيع لله ورسوله وهـو معتـد في حـدوده كمـا نصـب كثـير من أهـل البدع والأهـواء نفسـه للأمـر والنهي كـالخوارج والمعتزلـة والرافضـة وغيرهم مما غلط فيما أتاه الله من الأمر والنهي والجهاد وغـير ذلـك وكان فساده أعظم من صلاحه".

(رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ص : 19 – 20)

الشرط الثـاني : من القواعـد الـتي يجب مراعاتهـا في قضـية الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكـر الحكمـة العمليـة، وهـو بتعبـير آخـر الصواب العملي مع الصواب النظري ولهذا قال المفسر الطبري في تأويل الآية :

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

(البقرة : 269)

إن معنى الحكمـة هـو : "إصـابة الحـق في القـول والعمـل ". إنَّ معظم الدعاة يعرفون حديث : "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جـائر".(رواه أبـو داود في الملاحم)، إلا أنهم لا يعرفـون تأويـل هـذا الحديث تأويلاً صحيحاً ولا حاجة بنا هنا إلى الاعتماد على الاجتهـاد في تأويـل الحـديث، لأن الرسـول **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** يوضـح أسلوب التطبيق الصحيح في حديث آخر قال فيه :

"من كانت عنده نصيحة لذى سلطان فلا يكلمه بها علانية وليأخـذ بيده وليخل به فإن قبلها قبلها وإلا كان قد أدّى الذي له والذي عليه".
(أخرجه البيهقي 8 / 164 وأخرجه الحاكم 3 / 290)

ولقد ورد أيضاً في الأثر مـا يؤكـد هـذا الحـديث عنـدما سـئل ابن عباس رضي الله عنه عن أمر السلطان بالمعروف ونهيه عن المنكـر فقال : "إن كنت فاعلاً ولا بد ففيما بينك وبينه".

(ابن رجب الحنبلي / جامع العلوم والحكم ص : 21)

إنّ أهم ملاحظة أن (كلمة حق) معناها النصـيحة، وليس النصـيحة إلا دعـوة مخلصـة مليئـة بالشـفقة والمحبـة، لأنـه لا يمكن أن تصـدر النصيحة من قلب مليء بالبغض والنقمة للمنصوح له.

الشرط الثالث : ومن القواعد الأساسية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنّ مدار الدعوة فيه يجب أن يكون في مجال العقائد المتفـق عليها، إن الأمور الاستنباطية والاجتهاديـة وهي المسـائل الـتى يكـون فيها الخلاف إذا جعلناها محوراً ومداراً للدعوة سوف يكون ذلك سبباً لتمزق وتفرق الأمة فيتحول الـدين الواحـد إلى عـدة مـذاهب وفـرق وهو الأمر الذي منعه الدين وجعله في مستوى الشرك: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْـهِ وَاتَّقُـوهُ وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَلَا تَكُونُـوا مِنَ الْمُشْـرِكِينَ (31)۔ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾
(الروم : 31 – 32)

يقول وحيد الدين خان :

"وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال العقائد المتفق عليها إنّما هو وحده الإقامة للدين، وعلى العكس من هذا فالقسم الثاني (المسائل الخلافية) سوف يبعث الشقاق، ويحدث الشـروخ في الـدين وهـو مـا يسمى بالمصطلح القرآني (التفرق في الدين).

فمثلاً نحن نعلم أن الوضوء من أجل الصلاة متفـق عليـه كمـا هـو في القرآن والحديث، إلا أن الآراء المتعلقـة بـآداب الوضـوء مختلـف عليها، فـإذا أقمت دعوتـك على ضـوء المسـائل المختلـف عليهـا، فلا يمكن أن تتفـق الآراء حولهـا، وهكـذا سـيكون عملـك هـذا سـبباً في ظهورالاختلافات والفرقة، وسوف يقسم الأمـة إلى عـدة أمم، ولهـذا قد صدر الأمر بعدم جعل مدار الدعوة على الأمور المختلف عليها.

وهذا التعامل مع العبادات ينطبق على السياسة الإسـلامية أيضـاً، فإذا قام شخص فدعا الله أن يصلح الحكام، والتقى بهم لقـاءً فرديـاً ونصحهم بعبادة الله والاعتبار باليوم الآخر، وأوضح جـوانب السياسـة الإسلامية عن طريـق الكتابـة والخطابـة بأسـلوب واضـح مـتزن فلن يكون هناك تفـرق أو إشـاعة للفتنـة بين رجـال الأمـة، وعلى العكس من ذلك، إذا رفع بعض النـاس رايـة الاحتجـاج وكـوّن جبهـة سياسـية للمعارضة، وقام بحركة تهدف إلى تنحية الحكـام عن السـلطة، فـإن النتيجـة هى أن تصـبح الأمـة جماعـاتٍ متفرقـة، وتنقسـم الأمـة إلى جبهتين تحارب أحدهما الأخرى ويظهر التفرق في الدين باسم إقامـة الدين.

وكما أنّ آداب الوضوء مسألة اسـتنباطية، وهـو سـبب وجـود آراء مختلفـة لـدى أهـل العلم لتحديـدها كـذلك الحـال بالنسـبة للرسـالة السياسية الإسلامية، فهي تقوم على أساس الاجتهاد والاستنباط لأنـه لا يوجـد في القـرآن والحـديث نصٌ يحـدد صـراحة نوعيـة الرسـالة السياسية الإسلامية، ولهذا ظهـرت آراء متعـددة لـدى العلمـاء حـول هذه المسألة.

(واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ص : 105 – 106)

(9) الدين النصيحة

إن الدين الصادق ينشئ في نفس المؤمن روح التواضع والخشية ومحاسـبة النفس بـدلاً من محاسـبة الغـير : "الكيس من دان نفسـه وعمل لما بعد الموت"

(رواه الحاكم)

وفي نفس الوقت فإن الدين الزائف ينشئ في نفس صاحبه روح الكبر والغفلة ومحاسبة الغير بدلاً من محاسبة النفس، ولا يقتضي أن يكون هذا النوع من الناس جـاهلاً بـالقرآن : "إن ممـا أتخـوف عليكم رجل قـرأ القـرآن حـتى إذا رؤيت بهجتـه عليـه وكـان رداؤه الإسـلام اعتراه إلى ما شاء الله، انسلخ منه ونبـذه وراء ظهـره، وسـعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قـال : قلت يـا نـبي اللـه : أيّهمـا أولى بالشرك المرمى أو الرامي، قال : بل الرامي".

(إسناده جيد. أنظر ابن كثير التفسير 3 / 252)

إن الـدين لا يختفي كليـاً من هـؤلاء الـذين تسـيطر عليهم لهفـة الحكم على الآخرين بالشرك أو الكفر قد يكونـون على مسـتوى من المعلومات الدينية، قـراءة القـرآن، ولكن يتأولونـه على غـير تأويلـه، وفي الأثر قال الرسول (صلي اللـه عليـه وسـلم) : "هلاك أمـتي في الكتاب ... يتأولونه على غير تأويله".

(جامع بيان العلم وفضله)

وفي هـذا الشـأن قـال الإمـام الشـاطبي : "إن معرفـة أسـباب النزول يعين على فهم المراد من الآيات، ولأهمية هـذا العلم قـد ورد في الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلا بنفسه يومـاً يسـأل كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة فقـال ابن عبـاس : يا أمير المؤمنين إنه نزل علينا القرآن فقرأناه ونحن نعلم فيمـا نـزل وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون فيه (رأي) فإذا كان لهم فيه (رأي) اختلفوا فـإذا اختلفـوا ضـلوا. وقـد روى بن وهب عن بكـير يسـأل نافعـاً كيـف كـان رأي ابن عمـر في

الحرورية، قال : يراهم شر خلق الله إنهم انطلقـوا إلى آيـات أنـزلت في الكفار فجعلوهـا على المؤمـنين فهـذا الـرأي الـذي نبّـه إليـه ابن عباس".

(الشاطبي / الموافقات في أصول الشريعة 3 / 341)

إن الداعية الرباني لا يبدأ دعوتـه بإدانـة الآخـرين أو الحكم عليهم بالكفر والهلاك، لأنّ مقام الحكم على العباد هـو من حـق رب العبـاد وحده. قال **(صلى الله عليه وسلم)**: "إذا سمعتم الرجـل يقـول : "هلك الناس" فهو أهلكهم".

(رواه الإمام مسلم)

وروي عن رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** أنه تحدث يوماً فقـال : "كـان في بـني إسـرائيل رجلان أحـدهما مجتهـد في العبـادة وكان الآخر مسرفاً على نفسه، وكانا متآخيين، وكان المجتهد لا يـزال يرى الآخر على الذنب فيقول يا هذا أقصر، فيقول خلّني وربي أبعثت عليَ رقيباً ؟ إلى أن رآه يوماً على ذنب استعظمه، فقال لـه : ويحـك أقصر، قال : خلّـني وربي أبعثت عليّ رقيبـاً ؟ فقـال : واللـه لا يغفـر الله لك أو لا يدخلك الجنة أبداً، قال : فبعث اللـه إليهمـا ملكـاً فقبض أرواحهمـا واجتمعـا عنـده، فقـال للمـذنب : اذهب فادخـل الجنـة برحمتي، وقال للآخـر: أكنت عالمـاً، أكنت على مـا في يـديّ قـادراً ؟ اذهبوا به إلى النار، قـال : والـذي نفس أبي القاسـم بيـده إنـه لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته" رواه الإمام أحمد.

(مختصر تفسير ابن كثير للصابوني 1 / 401)

ولهذا السبب قال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** أيضاً : "لا يرمي رجل رجلاً بالفسق أوالكفر إلا ارتدت عليـه إن لم يكن صـاحبه كذلك".

(أخرجه البخاري)

فنجد أنّ هـدي الرسـول والصـحابة تـرك الحكم للـه وحـده، وقـد خاطب الله رسوله (صلي الله عليه وسلم) :

﴿ وَلَوْ شَـاءَ اللَّهُ مَا أَشْـرَكُوا وَمَا جَعَلْنَـاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

(الأنعام : 107)

وفي أوج العدوان الظالم من قبـل مشـركي مكـة على الرسـول والصحابة في غزوة أحد بدرت من الرسـول الكلمـة التاليـة : "كيـف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل".

(رواه مسلم)

فنزل قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَـيْءٌ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾

(آل عمران : 128)

فهذه الآية دلت على أن الحكم على عباد الله في الـدنيا والآخـرة من شأن الله وحده لا شريك له في الأمر كله ﴿وَلَا يُشْرِك فِي حُكْمه أَحَدًا ﴾. ويجري حكمه فيهم إمّا بالعـذاب للظـالمين أو بالتوبـة عليهم. يقـول المفسـر ابن كثـير معقبـاً على الآيـة السـابقة : ليس لـك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

(تفسير ابن كثير مختصر الصابوني 1 / 317)

ومن ذا الـذي يسـتطيع أن ينـازع اللـه في شـأن عبـاده وخـالقهم ومليكهم وأمرهم كله بيده:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِـرُ لِمَن يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(آل عمران : 129)

وليس القاعدة في الإسـلام إذن تكفـير العبـاد بحيث نعتبرهـا من القواعد الشرعية التي تعبدنا الإسلام بهـا، بـل الأدلـة الشـرعية كلهـا تذهب إلى خلاف ذلك، وهي تؤكد على خطورة حكم التكفـير، وحـتى الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسـلام قـد تـركهم الإسـلام وأوكلهم إلى خـالقهم، وقبـل منهم ظـاهرهم، وأجـرى عليهم أحكـام الإسـلام،

وقـال عنهم الرسـول (صـلي اللـه عليـه وسـلم) : "إني لم أومـر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم"
(رواه البخاري ومسلم)

إنّ أهم ملاحظة يقتضي أن نسـجلها في هـذا الشـأن أن الإسـلام يحرص حرصاً عظيماً على توجيه الفرد إلى محاسـبة نفسـه بـدلاً من محاسبة غيره : "الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت".

(رواه الحاكم وصححه)

والمسلم الصادق يهتم بالدرجة الأولى بمحاسبة نفسه لا محاسبة غيره، وتتكـون شـهوة محاسـبة الغـير في النفـوس الخاليـة من روح التواضع والخشية. ولقد روى أبـو هريـرة هـذا الأثـر : "يبصـر أحـدكم القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عين نفسه".
(رواه البخاري / الأدب المفرد)

وأخطر حكم هو حكم الكفر والشرك على المسلم، قـال سـفيان الثوري (من التابعين): جاورت مع جابر بن عبد الله بمكة ستة أشـهر فسأله رجل : هل تسمون أحداً من رجال القبلـة كـافراً ؟ قـال معـاذ الله، قال فهل تسمونه مشركاً ؟ قال : لا"

(رواه أبو عبيدة القاسم بن سلام – كتاب الإيمان – حققه ناصر الدين الألباني، قال إسناده صحيح على شرط الإمام مسلم)

وحين تعتري العبد روح النقمـة العارمـة تجـاه النـاس لسـبب من الأسـباب سـوف ينـدفع في الاتجـاه الخطـأ فيتحـول الاهتمـام من محاسـبة نفسـه إلى محاسـبة غـيره، والانشـغال بـإدانتهم والحكم عليهم، فيفقد أهم صفة من صفات الإيمـان ألا وهي التواضـع وتأكيـد العجز أما خالقه.

والحقيقة أنّ الدعوة ليست إظهاراً للنزعة العدوانيـة على البشـر ولو كانوا كافرين، والقرآن ينهانا صراحة أن نبدأ بالعدوان :
﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

(البقرة : 190)

فالدعوة الربانية تقوم على أساس النصيحة كما قال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)**: "الدين النصيحة" والنصيحة لا يمكن أن تكون مجردة من المحبة للمدعو والإشفاق عليه من عذاب الآخرة، ولهذا فإنّ الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** كان مثالاً عظيماً للشفقة والرحمة على الناس، وتصل به الشفقة والحزن إلى حد الهلاك: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

(الكهف : 6)

باخع أي مهلك نفسك حزناً لعدم إيمانهم وعندما طلب بعض الصحابة في غزوة الطائف أن يدعو على المشركين أثناء الغزوة وقد قتلوا بعض الصحابة كان جوابه : "إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعّاناً".

(أخرجه مسلم ، كتاب البر)

ولهذا السبب قال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)**: "إن اللعانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة". (أخرجه مسلم / كتاب البر)

وموقف الإسلام مع الأمم والشعوب غير المسلمة أساسه السلم والتسامح والبر وليس العدوان طالما كانوا مسالمين للمسلمين :
﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾
(النساء : 90)
﴿ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾
(الممتحنة : 8)

وكان الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** مثالاً للتسامح والصفح مع أشدّ الناس عداوة له، وكان هدفه العظيم الماثل نصب عينيه

دائماً وهو إنقاذ الناس من النار هو الباعث العظيم لكل سلوكه، حتى أنه ينسى بسبب ذلك كل ماضي وتاريخ خصمه. لقد فعل هذا الرسول (صلي الله عليه وسلم) مع قاتل أحب الناس إليه عمه حمزة بن عبد المطلب، فلم يكن الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** ينتقم لنفسه قط. ومن الأمثلة الرائعة على هذا السلوك الإيجابي كان مع عكرمة بن أبي جهل (الذي كان والده أعدى أعداء الإسلام) فعندما فتح الرسول مكة فرّ عكرمة إلى اليمن، وكان هو أيضاً من أشد الناس عداوة للرسول **(صلى الله عليه وسلم)** ومن الذين نقضوا عهد الحديبية، ولكن زوجته أسلمت وطلبت له من الأمان من رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** فقبل ذلك، فسافرت في طلبه، وأقنعته بالعودة وهي تقول له: "جئتك من عند أحلم الناس وأكرمهم". ووافق عكرمة على القدوم إلى رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)**، وعندما دنا من مكة قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** لأصحابه : "يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه، فإنّ سبّ الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت" ولمّا رأى الرسول عكرمة وثب إليه وما على النبي من رداء فرحاً بعكرمة".

(حياة الصحابة 1 / 155)

فالداعي أثناء سعيه من أجل هداية المدعو يسلك أسلوب اللين والتسامح وهذا هو روح النصيحة حتى أنه لا يستجيب لردّ الفعل، وكل ما من شأنه أن يصرف المدعوين عن الاستماع له، وهو يقدم أدلته خالية من أنواع الاستفزاز، وفي كل الأحوال فهو يقدم دعوته بالأسلوب الأمثل الخالي من التعييب، إذ لو اشتملت على التعييب لجاز أن يقابل بمثله ولهذا قال الله تعالى :

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾

(الأنعام : 108)

فالأسلوب الأمثل للداعية هو اللين لا الغلظة، وبذلك وحده يصل إلى قلب المدعو ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (53) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (54) ﴾

(الإسراء : 53 – 54)

إنّ الشيطان يجد فرصته الكبرى عندما يفتن الناس بالأقوال المهيجة للشر والعداوة، ولهذا كان يجب علينا الانتباه واجتناب كل الأقوال التي تؤدي وتهيج الشر وتوقظ الفتنة. ولقد روى الإمام البخاري من حديث أبي هريرة في الرجل الذي أتي به لرسول الله وهو قد شرب الخمر، فأمر الرسول بعقوبته، فلما انصرف قال بعض القوم : أخزاك الله. فقال النبي **(صلى الله عليه وسلم)** : "لا تقل هكذا، لا تعينوا عليه الشيطان" وفي رواية أخرى للبخاري : "لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم" وفي سنن أبي داود : "ولكن قولوا اللهم اغفر له، اللهم ارحمه".

إن تقديم النصيحة بالأسلوب الأحسن هو الأسوة الصحيحة، ولو كان المخاطب فرعون، فإن الله أمر موسى وهارون بأن يخاطب على هذا المستوى حين أرسلهما إليه فقال :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (44) ﴾

(طه : 43 – 44)

كان فرعون في ذلك الوقت يزعم الألوهية، وبلغ من طغيانه أنّه كان يعذب بني إسرائيل يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم يقول ابن كثير : "وهذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين".

(التفسير 4 / 517)

ذكر الإمام الغزالي أن رجلاً دخل على الخليفة المأمون العباسي يأمره وينهاه فأغلظ له في القول، وكان المأمون على قدر كبير من العلم، فقال له : أرفق، فإنّ الله بعث من هو خير منك إلى من هو شر مني وأمره بالرفق، ثم بين ذلك للرجل، فقال : بعث الله موسى وهارون وهما خير منك إلى فرعون، وهو شرٌ مني، وكانت وصية الله لهما :
﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾
(طه : 44)
ولذلك كان الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** يوصي أن يكون أسلوب الناصح والداعية أسلوباً ليناً رفيقاً : "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"، " يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفروا".

وفي معاملة الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** لعبد الله بن أبي في المدينة عبرة عظيمة، فهو كان من المنافقين، بل رأسهم، نزلت من شأنه آيات كثيرة تتوعده، فلقد جاهر بالعداوة مراراً لرسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** وأكثر من ذلك فهو صاحب حديث الإفك، حيث تقوّل في عرض رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** واتهم السيدة عائشة أم المؤمنين، وهو الذي قال : "ليخرجنّ الأعز منها الأذل". وفي الصحيحين عن زيد بن أرقم قال : خرجنا مع النبي **(صلى الله عليه وسلم)** في سفر أصاب فيه شدة، فقال عبد الله بن أبي لأصحابه : "لا تنفقوا علي من عند رسول الله حتى ينفضوا".

وعندما وقع حديث الإفك، جاء ابنه عبد الله إلي رسول الله وطلب منه الإذن بأن يقتل والده، فكان جواب الرسول : "بل نرفق به ونحسن صحبته".

(عيون الأثر لابن سيد الناس 2 / 95)

وهكـذا كـانت معاملـة الرسـول **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)** للمنافقين وقد كانوا في الظاهر مسلمون مؤمنون يصلون مع الناس ويصومون ويحجون ويغزون، والمسلمون ينـاكحونهم ويـوادونهم كمـا كـان، ومـع علم الرسـول بنفـاقهم فإنـه لم يحكم فيهم بحكم الكفـار المظهرين للكفر.

قال ابن تيمية : "وكان حكم الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** في دمائهم وأموالهم كحكمه في دماء غيرهم لا يستحلّ منها شيئاً إلا بأمر ظاهر، مع أنه كان يعلم نفاق كثير منهم".
(الإيمان : 201)

ولهذا يقول أيضاً الإمام الغزالي : "ينبغي الاحتراز من التكفـير مـا وجـد الإنسـان إلى ذلـك سـبيلا، فـإن اسـتباحة الـدماء والأمـوال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول : لا إلـه إلا اللـه محمـد رسـول الله خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمه من دم مسلم واحد".

(الاقتصاد في الاعتقاد ص : 143)

ويقول الإمام ابن تيمية : "وأمّا قول القائل : إنّ الإيمـان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فهذا ممنـوع، وهـذا هـو الأصـل الـذي تفـرعت عنـه البدع في الإيمان، فإنهم ظنّوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله لم يبـق منه شيء، ثم قالت الخوارج والمعتزلة : هو مجموع ما أمـر اللـه بـه رسوله".

(الإيمان ص : 210)

والنصوص الواردة عن الرسول وأصحابه تـدل على ذهـاب بعضـه وبقاء بعضه، كقوله **(صلى الله عليه وسلم)**: "يخرج من النار من كان في قلبـه مثقـال ذرة من إيمـان". ولهـذا كـان رأي أهـل السـنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون يزيد وينقص.
(الإيمان ص : 210)

وقال ابن تيمية أيضاً : إذا كان الإيمان المطلـق يتنـاول جميـع مـا أمر الله به رسوله، فمتى ذهب بعض ذلك بطل الإيمان، فلزم تكفـير أهل الذنوب، كما تقول الخوارج أو تخليدهم في النـار وسـلبهم اسـم الإيمان بالكلية كما تقول المعتزلة، وكلا هذين القولين شـرّ من قـول المرجئة، فإن المرجئة منهم جماعـة من العلمـاء والعبـاد المـذكورين عند الأمة بخير، وأما الخوارج والمعتزلة، فأهل السـنة والجماعـة من جميع الطوائف مطبقون على ذمهم".

(الإيمان : 209)

وقـال أيضـاً : "المقصـود أن لا يجعـل أحـد بمجـرد ذنب يذنبـه ولا ببدعة ابتدعها – ولو دعا الناس إليها – كـافراً في البـاطن إلا إذا كـان منافقاً، فأما من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به وقد غلـط في بعض ما تأوّله من البدع، فهذا ليس بكافر أصلاً".

(المصدر السابق ص : 205)

وفي نفس الوقت فإن الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع الرحمة واللطف لم يجعل في الدين من صعوبة قاهرة :

 وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ

(الحج : 78)

 يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ

(البقرة : 185)

ولقد روى الإمام أحمد بسنده عن جـابر رضـي اللـه عنـه، قـال : اشترطت ثقيف على رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)**: "أن لا صدقة عليهم ولا جهاد، وأن رسول الله **(صلى الله عليـه وسـلم)** قبل منهم إسلامهم وقال : سيتصدقون ويجاهدون.

وروى أيضاً عن نصر بن عاصم الليـثي عن رجـل منهم أتى النـبي **(صلى الله عليه وسلم)** فأسلم على ألا يصلي إلا صـلاتين، فقبـل منه ..

إنّ هذه الآثار تؤكد حقيقة مهمة وهي خطأ من جعل الإيمـان كلـه في درجة واحدة، فلقد قبل الرسول إيمانهم على شـرطهم الفاسـد، ومنه استنبط الإمام أحمد القول بصحة الإسلام على الشرط الفاسد، وكل ذلك يدلّ على الحكمة في تشجيع الإنسـان على قبـول الحـق لا تنفيره وإحباطه أو تكفـيره لأدنى الأسـباب، حـتى زعم من زعم : أنّ الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كلـه، فجعلـوا شـعب الإيمـان في درجـة واحدة. وحديث الرسول **(صلى الله عليه وسـلم)**:"الإيمـان بضـع وسـبعون شـعبة أعلاهـا لا إلـه إلا اللـه وأدناهـا إماطـة الأذى عن الطريق".

(رواه البخاري / كتاب الإيمان)

يوضح أنه لا يصح تسوية الإيمان بعمل من أعماله في الدرجة، فلا يصـح جعـل مسـتوى لا إلـه إلا اللـه في مسـتوى إماطـة الأذى عن الطريق، كما لا يصح تسـوية الكفـر الاعتقـادي بـالكفر العملي مثلمـا فعل الخوارج.

ويقول ابن تيمية في ذلك : "وتمام هذا أنّ الإنسان قد يكون فيـه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلماً وفيـه كفـر دون الكفـر الـذي ينقـل عن الإسـلام بالكليـة، كمـا قـال الصحابة، ابن عباس وغيره : كفر دون كفر، وهذا قول عامة السلف، وهـو مـا نص عليـه أحمـد وغـيره ممن قـال في السـارق والشـارب ونحوهم ممن قال فيه النبي **(صلى الله عليه وسـلم)** (إنـه ليس بمـؤمن) إنـه يقـال لهم : مسـلمون لا مؤمنـون، واسـتدلوا بـالقرآن والسنة على نفي الإيمان مع إثبـات اسـم الإسـلام، وبـأن الرجـل قـد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملـة، بـل كفـر دون كفـر، كمـا قال ابن عباس وأصحابه في قوله تعالى :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

(المائدة : 44)

قالوا : كفر لا ينقل عن الملة وكفر دون كفر وفسـق دون فسـق وظلم دون ظلم."

(الإيمان ص : 335)

والأحاديث الواردة في حرمة تكفير المسلمين وحرمة دمائهم كثيرة، نشير إلى طائفة منها.

حرمة دماء المسلمين

حين علم رسول الله أن أسامة بن زيد قتل رجلاً (كان شديداً على المسلمين) قال له : "يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله، قال : قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً من القتل ... وفي رواية "أفلا شققت قلبه حتى تعلم من أجل ذلك قالها أم لا. من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذٍ".

(أخرجه أحمد والبيهقي 8 / 192)

عن محمد بن مسلمة – رضي الله عنه – قال : أعطاني رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** سيفاً فقال : يا محمد بن مسلمة! جاهد بهذا السيف في سبيل الله حتى إذا رأيت المسلمين فئتين تقتتلان فاضرب به الحجر حتى تكسّره ثم كفّ لسانك ويدك حتى تأتيك منيّة قاضية أو يدٌ خاطئة". (أخرجه الطبراني، وابن سعد في الطبقات 3 / 301)

(وقال الهيثمي حـ 7 / 301 رجاله ثقات)

عن أوس الثقفي – رضي الله عنه – قال : دخل علينا رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** ونحن في قبة مسجد المدينة، فأتاه رجل فساره بشيء لا ندري ما يقول. فقال : اذهب ! قل لهم : يقتلوه ثم دعاه، فقال : لعله يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فقال : نعم ! فقال : اذهب فقل لهم : يرسلوه ! فإني أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها حرّمت عليّ دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وكان حسابهم علي الله عز وجل.

(أنظر حياة الصحابة 2 / 427، قال : أخرجه أحمد والدرامي والطحاوي والطيالسي)

عن شمّر بن عطية قال : قال حذيفة – رضي الله عنه – لرجـل : أيسرك أنك قتلت أفجر الناس ؟ قال : نعم ! قال : إذن تكـون أفجـر منه.

(أخرجه أبو نعيم في الحلية ج 1 / 280)

عن ابن عمر قال رسول الله **(صلى الله عليـه وسـلم)**: "إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما، فـإن كـان مـا قـال وإلا رجعت عليه". (متفق عليه)

وقال **(صلى الله عليه وسلم)** : "من دعا رجلاً بالكفر أو قال : يا عدو الله، وليس كذلك إلا جاز عليه".
(متفق عليه)

وقال **(صلى الله عليه وسلم)**: "من خرج على أمـتي يضـرب برّها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بعهد ذي عهـدها، فليس مني ولست منه". (أخرجه مسلم والنسائي وابن ماجة)
(مسلم / باب الإمارة – النسائي / في تحريم الدم – ابن ماجة / في الفتن)

وعن أسامة بن زيد – رضي الله عنه – قال : لا أقاتل رجلاً يقــول لا إله إلا الله أبداً، فقـال سـعد بن مالـك – رضـي اللـه عنـه – وأنـا لا أقاتل رجلاً يقول لا إله إلا الله أبداً، فقال لهما رجل : ألم يقل الله :

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الـدِّينُ كُلُّهُ لِلَّه﴾ (الأنفـال : 39)

فقالا : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله.

(تفسير ابن كثير 2 / 300 – طبقات بن سعد 4 / 48)

(10) سنة الله

إن من الحقـائق الـتي يكشـفها لنـا القصـص القـرآني مـا يتعلـق "بسـنة اللـه" وهي بتعبـير آخـر القـانون الإلهي الـذي يحكم التـأريخ

الإنساني والمجتمعات الإنسانية وهو نظام آخر للعـدل الإلهي وسـنته في هذا الكون.

ومعنى السنة "الخطة أو الطريقة المتبعة" وسنة الله ما جرى به نظامه في خلقه جمعها سنن ولقد وردت بهذا المعنى في عدة آيـات من القرآن الكريم:

﴿ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾

(الأنفال : 38)

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

(آل عمران : 137)

وسنة الله يحكمها قانونان أساسيان هما :

أ – عدم التبدل ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(الأحزاب : 62)

ب – عدم التحول ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

(فاطر : 43)

فالله سبحانه وتعالى قـد أمضـى إرادتـه وأمـره الكـوني بسـنن لا تتبدل ولا تتحول.

مثلا جعل الله شرط التمكن وإقامـة الإنسـان في الأرض تتم من خلال سلوك العدل وهو مـا يسـميه القـرآن أيضـاً الإصـلاح وهـو دفـع الباطل وإقامة الحق الذي يعصم من الهلاك :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

(هود : 117)

والمجتمعات تحكمها سنن ربانية ماضية وهي الـتي تنظم الاختلال الذي ينشأ بإرادة الإنسان فإذا تنكّر الإنسـان لهـذه السـنن وتجاوزهـا فإن الرد المباشر أن تنتقم هـذه السـنن فـإذا تجـاوز العـدل مثلاً في سـلوكه ومعاملاتـه فسـوف يفقـد مكانتـه، وإذا اعتـدى وأفسـد في الأرض فسوف يكون هـو بالمثـل ضـحية الاعتـداء وإذا قـرر أن يحكم بأهوائـه ويملي إرادتـه الخاصـة الـتي تفصـح عن كامـل الأنانيـة والاستغلال فإنه سيجد أن رد الفعـل في نفـوس النـاس قاسـياً مثـل

قساوة الحجارة فهناك إذن ميزان وضعه الله سبحانه وتعالى في هذا الكـون وهـذا المـيزان مهمتـه أن يعلى الحـق أو يعلى مـا هـو خـير بالنسبة للإنسان عموماً.

إن الله قد جعل الصلاح والخير والنعمة هي الأصل في هذا الكون ثم جعل العقاب يأتي نتيجة لتغيير هذا الإنعام الفطري نجـد ذلـك في هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وخلاصة التفسير لهذه الآية عنـد الإمـام الطـبري: "أن اللـه لا يغـير حالـة القـوم من الصـحة والنعمـة بـأن يحـرمهم منهـا ويهلكهم إلا إذا غيروا هم ما بأنفسهم بالأعمال الآثمة تجاه بعضهم البعض واعتـدائهم بعضهم على البعض".

(تفسير الطبري 16 / 382 – 383)

أمّـا ابن كثـير فهـو يـرى : "أنّ اللـه يخبرنـا عن عدالتـه التامـة وإنصافه في الحكم وأنّه لا يغير نعمـة منحهـا لشـخص إلا بسـبب إثم يكون قد ارتكبه ذلك الشخص".

(التفسير 2 / 320)

ويتبين أنّ المفسرين الأقدمين إنما يرون التغيير المشار إليـه في الآية هو من الخير إلى الشر ويرى أحد الباحثين (جعفر شيخ إدريس) : "أنّ السبب في ذلك يرجع بصفة رئيسية إلى أنّ النعم طبقاً للقرآن لا تمنح للناس في بادئ الأمر نتيجة لأي عمل خير يقومون به ولكنهـا تمنح لهم فضلاً من الله. إنّ الله هو الرحمن الرحيم وذلـك يعـني أنـه سبحانه هو الذي يبادر بـالخير ثم يكـافئهم من أجلـه. إنّ النعم سـواء أكانت روحية أم مادية تمنح للناس من خالقهم وذلك ينبع من رحمتـه وفضله ولو أنهم كانوا شاكرين فسوف تحفظ لهم تلك النعم، بل إنما سوف تزداد ولكن لـو أنهم ارتكبـوا أفعـالاً تتسـم بـالجحود فـإنّ اللـه يعاقبهم بأن يحرمهم من بعض تلك النعم إن لم يكن منها جميعاً".

(منهج التحول إلى الإسلام ص : 16. مجلة المسلم المعاصر عدد (18) 1979 – الكويت)

ولقد أشار نفس الباحث إلى أن الهلاك أو العقاب لا يقع على أمة إلا بعد شروط أو مقتضيات معينة هي :

- أنّ الهلاك لا يقع إلا بعد الإنذار الكافي :
 وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (الشعراء : 208)
- أو تكون قد بلغت حدا من الفساد والظلم إلى درجة أن تقر هذه الأمة بأنها وحدها الملومة وأنها هي التي جلبت على نفسها الهلاك : ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (الأنعام : 131)
- أن الهلاك لا يأتي مباشـرة ذلـك أن اللـه يعطي بلا مقابـل وبلا حدود ولكنه لا يأخذ ما وهبه دفعة واحدة.

إن الله سبحانه وتعالى يرفع بأسه عن القوم في حالـة تضـرعهم ورجوعهم إليه :
 فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ
(الأنعام : 43)

إن العدل ميزان كوني يلمسه الإنسان في كل شيء وخلـق اللـه الإنسان على درجة من الشعور بهذا الميزان :
 وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8)
(الشمس : 7 - 8)

إن معـنى ذلـك أن الإنسـان يـدرك أن العـدل نظـام فطـري وأن الظلم فســاد وباطــل على المســتوى العقلي والعملي والشــرعي والكوني.

ونريد أن نقول قـد يجهـل الإنسـان شـريعة اللـه العادلـة ولكن لا يعطيه ذلك مبرراً للظلم والفساد بل نجـد أن الإنسـان حسـاس جـداً لسلوك (الظلم) فهـو يحـاول بكـل مـا أوتي من إدراك أن يبحث عن الصورة الحقيقية للعدالة. مسترشداً بالميزان الكوني – ومن هنا فإن دولـة غـير مسـلمة تقيم العدالـة بين النـاس وتحـترم حقـوق الأفـراد وتسعى لتنفيذ قانونها على أساس المسـاواة لا التميـيز فهي جـديرة بالاستمرار والبقاء، ودولة مسلمة ظالمة، لا تحترم حقوق الأفـراد ولا تنزلهم في درجة واحدة عند تنفيذ القانون ولـو كـان قانونهـا شـريعة

إلهية فهي غير جديرة بالبقاء والاستمرار وصار تطبيق الشـريعة فيهـا لا معنى له كما أشار حديث الرسول **(صـلى اللـه عليـه وسـلم)**: "إذا سـرق فيهم الشـريف تركـوه وإذا سـرق فيهم الضـعيف أقـاموا عليه الحد".

ومن هذا نفهم أن لمعـنى العـدل مسـتويين المسـتوى الشـرعي، والمستوى الفكـري الكـوني، والإنسـان مطـالب بـأن يجعـل سـلوكه مطابقاً للقرآن، وهو القانون الناطق والمعـبر عن المـيزان الفطـري والكوني للعدل.

إن العدل مطلوب بصـورة أساسـية في هـذا الكـون ليمضـي في استقامة : لَا الشَّـمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُـدْرِكَ الْقَمَـرَ وَلَا اللَّيْـلُ سَـابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

(يس : 40)

وهذا النظام الكوني يقتضي على الإنسان أن ينهجه في حياته مـع أخيه الإنسان، فيلـتزم كـل امـرئ حـدوده حيث لا يعتـدي على حـدود غيره. ويمارس حريته في حدود مجاله الذي يسبح فيه، وأهم مسـألة هنا أنّ هذا القـانون الفطـري والكـوني للعـدل يسـتفيد منـه المـؤمن والكـافر على السـواء. إلا أنّ الشـريعة الناطقـة بالعـدل قـد يخطئ فهمها وتنفيذها المؤمن عندما يفقد إحساسه بمعناها، وعندما يجعلهـا تخضع لهواه فالشريعة ذات معنى ومقصد في كليتهـا وفي كـل مـادة من موادها، وأساس المقاصد التي وجـدت من أجلهـا هدايـة وإصـلاح الحياة البشرية. ولذلك أمر الله بتنفيذها :

 وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

(البقرة : 179)

فتنفيذ الشريعة محبة في الإنسان لا محبة في الشريعة فإذا كـان تنفيذ الشريعة متوخياً هذا الهدف فسوف يكـون تطبيقهـا رحمـة وإذا كان إحساس الناس بالمعنى والهدف قد تلاشى وأن الشريعة صارت

في فهمهم مواد خالية من المعنى، وتطبق لمجرد الامتثال الظـاهري لها فإن تنفيذها سـوف يكـون على غـير الاسـتقامة المطلوبـة وربمـا تحولت بذلك إلى مطية فساد بعد أن كانت مطية رحمة وعدل.

فلا بد من إدراك أن الـذين يطبقـون الشـريعة يقتضـي أن تكـون لهم صلاحيات لذلك، ومن هـذه الصـلاحيات خشـية اللـه ورغبتهم في تحقيق العدل ولو كان على حساب أنفسهم وعواطفهم :

﴿ وَلَا يَجْـرِمَنَّكُمْ شَـنَآنُ قَـوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْـدِلُوا اعْـدِلُوا هُـوَ أَقْـرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾

(المائدة : 8)

إنّ الله سـبحانه وتعـالى جعـل هـدف الشـريعة العـدل فـإذا كـان العدل بمعياره الفطري والكوني قد طبق في دولة غير مسـلمة فـإن الله سبحانه وتعالى يضمن استمرارها وإن انحرفت الدولة المســلمة وسلكت سبيل الظلم فسوف لن يضمن اللـه اسـتمرارها ولـو كـانت في الظاهر تدين بشريعة الله، وهذا ما عناه الفقيه ابن تيميـة عنـدما قال : "إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا يقيم الظالمة ولو كانت مسلمة".

(رسالة الأمر بالمعروف ص : 40)

إن وجــوب تطــبيق الشــريعة الإســلامية على المســلمين الــذين يملكـون حريـة الاختيـار في مجتمعـاتهم أمـر لا جـدال فيـه، ولكن لا يكفي مجرد الإشارة إلى مـواد الشـريعة في القـرآن والسـنة لإقنـاع الناس بأن الإسلام يحكم بالعـدل عنـدما يطبـق، لأن مهمـة التطـبيق نفسها يقوم بها دائمـاً الإنسـان، والإنسـان لا يسـتطيع أن يتخلص من ضعفه في كل الظروف، لأن ضعفه ملازم لطبيعته :

﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾

(النساء : 28)

ومن هنا كان ينبغي دائماً الاحـتراس من الانسـياق وراء المنـادين بالشعارات ذات المضـمون الـديني المثـالي، ويجب النظـر إليهم في ضوء الحقيقة الثابتـة وهي (بشـريتهم) الـتي تسـمح لهم بكـل شـيء

عندما يمتلكون السلطة، ولو كان ذلـك السـلوك ينجم بـدون وعي أو شعور أو بمنطق تبريري.

طبيعة السلطة

إنّ السـلطة في حقيقتهـا عمليـة بشـرية بالدرجـة الأولى وإن الرجوع إلى النصوص القرآنية – لا يحول دون تدخل العنصر البشـري في تفسـيرها بالطريقـة الـتي تلاءم ذهن المفسـر ودليـل ذلـك أن المودودي الذي يطلب إقامة حكم اللـه فسـر القـرآن بمجـرد الـرأي وبمـا لا يتفـق مـع إجمـاع المفسـرين، والحقيقـة أن أخطـر حكم هـو الحكم على كتاب الله. ولهذا فإن الصدّيق رضي الله عنه قـال : "أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي وفي روايـة مما لا أعلم"

(تفسير الطبري 1 / 77 – 79)

وعندما شعر بعض المثقفين المعاصرين خطورة نظرية الحاكميـة أشـاروا في كتابـاتهم إلى ذلـك منهم حسـن الهضـيبي قـال : "يجعـل بعض الناس أساساً لمعتقدهم مصطلحاً لم يرد له نص من كتاب الله أو سنة الرسول أساساً من كلام البشر غير معصوم وارد عليه الخطأ والوهم".

(دعاة لا قضاة)

ولقد كتب الهضيبي مؤلفه السـابق رداً على فكـرة التكفـير الـتي نجمت من تفسير المودودي لمعنى الحاكميـة وبعـد أن تلقاهـا (سـيد قطب) وطبقها تطبيقاً واسعاً على المجتمعات الإسلامية المعاصرة – وتأثر بها جيل من الشباب وعنها نجمت جماعات التكفير والهجرة ... ومن النقـد الـذي وجهـه المستشـار حسـن العشـماوي من أنّ هـذا الشعار يسند الفوضى : "إذ ترى كل فئة نفسها قيمة على حكم اللـه في الصغيرة والكبـيرة ... فتسـعى إلى تنفيـذه ... فتتفـرق الجماعـة ويقتل بعضنا بعضاً".

ولقد أيّد د.محمد سليم العوا هذا الرأي مستدلاً لما ترتب عليه من نتائج عند الخوارج: "يكفي لبيان مدى مساندة هذا الشعار للفوضى أو تسببه لها – أنه بجانب ما ارتكبه الخوارج بناءً عليه من مظالم أدّى إلى تفرق الخوارج أنفسهم إلى أكثر من عشرين فرقة وذلك ما دام (لا حكم إلا الله) على النحو الذي فهمه الخوارج – مادام الناس بطبيعتهم لن يتفقوا على قبول فهم معين في كل مسألة تعرض للنقاش أو يعرض فيها الخلاف فإن اختلاف الرأي سوف يعتبر دائماً (مطية) لتقاتل أصحاب الآراء المتباينة إذ يرى كل منهم إنما يسعى لإقرار حكم الله في الأرض".

(في النظام السياسي للدولة الإسلامية ص : 106)

ولقد ورد أن رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** يقول لمن يرسله في جيش أو سرية : "إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله فيهم ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك".

(رواه مسلم)

ومثل هذا النص يدل على الفرق بين الحكم الشرعي والحكم الذي ليس فيه نص مثل الحكم السياسي والذي يقوم على الاجتهاد : "إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن اجتهد فأخطأ فله أجراً".

كان من آخر وصايا أبو الأعلى المودودي والتي اطلعت عليها في إحدى المجلات العربية (مجلة المجتمع الكويتية 1979) أنّه كان قد حرّض المسلمين أن يكونوا مع حكومة (الخميني) لأنها في ظنه تمثل الحكم الإسلامي "ولقد ظهر بهذا أن ما كان يبشر به المودودي خلا حياته كلها عبارة عن (حكومة كهنوتية)، وأن (حاكمية الله)، ليست سوى حاكمية الذين يحكمون باسم الله، وليس حكم الله نفسه، ويا خيبة من يظن أن الله سوف يكون هو حاكم الدولة التي يبشر بها المودودي إذا كان الذين سوف يحكمون هم بشر فيهم كل ضعف ونقائص البشر، إلا أنهم ينسبون (بصورة غير مباشرة) النقائض إلى

(دين الله) (واسم الله) لأنهم غير مستعدين أن يعترفوا أنهم الذين يحكمون في النهاية وليس هو الله. وهناك فرق عظيم بين من يعترف أنه لا يحكم باسم الله فهو لا يدّعي هذه الدعوى الخطيرة فلا يكون فتنة للناس في الدين، ويضع مستوى الحكم في نطاقه السياسي والبشري البحت، وليس في نطاق المسائل الدينية المقدسة، إن أعظم جريمة عند الله هو أن يحكم أحد ما (باسم الله) ثم يكون هذا النظام أسوأ من أي نظام حتى أن الإنسان الذي يعيش في نطاقه يصرخ إذا كان هذا هو النظام الإسلامي، فإننا لا نريد حكم الله ويفر إلى حكم البشر، ولو كانوا من الكافرين.

إن أخطر التباس يقع فيه الذين يتبنون نظرية (الحاكمية) أنهم يلبسون الخطأ البشري الذي هو ملازم لطبيعتهم ﴿ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (بدين الله وشريعته) فسيكون بذلك قد وضعوا رسالة الدين في موقف حرج وسوف يكون عملهم هذا قد أحدث في نفوس البشر عقبة عظيمة لقبوله واعتناقه وهي الجريمة التي ما بعدها جريمة وهكذا سيظهر عمل الذين يجاهدون باسم الله هو عمل ضد الله، وضد الدين بصرف النظر عن نواياهم أو غفلتهم لأنهم قد تجرؤوا على أمر في غاية الخطورة وهو زعمهم أنهم يطبقون حكم الله، وأنهم يطبقون كتاب الله، وهو الأمر الذي لم يستطع حتى عمر رضى الله عنه، أن يدعيه وهو من اشتهر في التأريخ الإسلامي بهذا الأمر على وجه خاص. فلقد روى ابن جرير قصة تعبر عن تواضع عمر "قال ابن جرير عن الحسن : أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها لا يعمل بها، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين في ذلك فقدم وقدموا معه، فلقى عمر رضي الله عنه، فقال : متى قدمت ؟ فقال : منذ كذا وكذا، قال أبإذن قدمت ! قال : فلا أدري كيف ردّ عليه. فقال : يا أمير المؤمنين أن ناساً لقوني بمصر، فقالوا : إنا نرى أشياء في كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها، فأحبوا أن يلقوك في ذلك، قال :فاجمعهم لي، قال فجمعتهم له قال: أبن عون أظنه قال في بهو، فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك،

أقرأت القرآن كله ؟ قال نعم قال : فهل أحصيته في نفسك ؟ فقال اللهم لا، قال : ولو قال نعم لخصمه، قال فهل أحصيته في بصرك ؟ فهل أحصيته في لفظك ؟ هل أحصيته في أثرك ثم تتبعهم إلى آخرهم، فقال : ثكلت عمر أمه أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات قال :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾

(النساء : 31)

ثم قال هل علم أهل المدينة بما قدمتم قالوا : لا، قال : لو علموا لوعظت بكم.

أخرجه ابن جرير وقال ابن كثير إسناده صحيح ومتنه حسن

(مختصر تفسير ابن كثير للصابوني 1 / 381)

إنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مستعداً لأن يعترف بذلك لأنه كان يعرف نفسه معرفة جيدة، وأعظم معرفة هي معرفة الإنسان لنفسه، أنه مجرد عبد يخطئ ويصيب فيقول : "أصابت امرأة وأخطأ عمر" وهو كان مستعداً في كل لحظة أن يعترف بخطئه عندما يظهر له ذلك كما وصف الصحابة : "ما كان عمر بأعلمنا ولكن أسرعنا رجوعاً إلى الحق" إن عظمة الصحابة ليس لكونهم لا يخطئون بل في كونهم يعترفون إذا أخطؤوا ولقد كان عمر رضي الله عنه عنده سرعة عجيبة في الاعتراف بالخطأ بمجرد شعوره بذلك يقول د.محمد حسين هيكل: "فعمر وغيره من الصحابة لم يكونوا يفتون برأيهم على سبيل الإلزام ولا على أنه وحده الحق، بل على أنه رأى إن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمن صاحبه فهو يستغفر الله منه. لقى عمر رجلاً له قضية فسأله: ما صنعت ؟ قال : قضي عليٌّ وزيد بكذا، قال عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا" قال فما يمنعك والأمر إليك ؟ فأجابه عمر : لو كنت أردك إلى كتاب الله أو سنة نبيه **(صلى الله عليه وسلم)** لفعلت. لكني أردك إلى رأيي، والرأي مشترك لهذا لم ينقض ما قضى به عليٌّ وزيد وأبدى عمر يوماً رأياً، فقال قائل: هذا ما رأى الله ورأى عمر، فانتهره عمر،

بقوله بئسما قلت ؟ هذا ما رأى عمر، فإن يكن صواباً فمن اللــه وإن يكن خطأ فمن عمر. وأمسـك هنيهـة ثم قـال : السـنة مـا سـنه اللـه ورسوله لا تجعلوا الرأي سنة للأمة.

(انظر الفاروق عمر جـ الأول ط الخامسة – دار المعارف بمصر ص 285)

وهكذا لم يكن عمر يسمح لنفسه بأن يقول أنه يحكم باسـم اللـه أو يجعل رأيه ملزماً للناس وكان يعـترف بخطئـه إذا أخطـأ بـدون أي عقبة نفسية، ومثل نفسيته المتواضـعة كـانت أعظم ضـمان للعـدل، وبذلك كان فرداً لا نظير له في التأريخ.

(11) خطة الله

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68)﴾
(ص : 67 – 68)

إنّ أهم شيء بل وأصـل المسـائل بالنسـبة للـداعي إلى اللـه أن يعرف خطة الله بالنسبة للنـوع البشـري ولا يمكن للـداعي الحقيقي أن يدرك معنى الدعوة ومنهجها بدون ذلك والحقيقة أن هـذه الخطـة ليست قائمة على مجرد الظن أو القياس، بـل هي واضـحة وصـريحة وثابتة في كتاب الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

1- إن بداية الخطة الإلهية : كانت مع وجود الإنسان نفسه، وذلـك أن الله بعد أن خلق السماوات والأرض، عرض على الملائكـة عزمـه على خلــق الإنســان ﴿ هُــوَ الَّذِي خَلَــقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (29) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَـةً قَـالُوا أَتَجْعَـلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَـدِّسُ لَـكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَـةِ فَقَـالَ أَنبِئُونِي بِأَسْـمَاءِ هَٰـؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَـادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) ﴾

(البقرة : 29 – 32)

وبعد أن خلق الله آدم أمر الكون بمـا في ذلك ملائكتـه باسـتقبال هذا المخلوق بالتحية والإكرام فسجد الجميع عدا إبليس
﴿ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾

(البقرة : 34)

خلــق اللــه الإنســان بيــده ونفخ فيــه من روحــه وأمــر الملائكة بالسجود تحيـة لـه وهـو في المنظـور المـادي لا يسـاوي شـيئاً أمـام الكون الرهيب، لكن الفارق بين الإنسان والكون يكمن في الوظيفة،

وهـو فـارق عظيم يتمثـل في الفـرق بين الطاعـة الشـعورية وغـير الشـعورية، والطاعـة الشـعورية هي الوظيفـة الـتي خلـق من أجلهـا الإنسان.

2- الإيمـان بـالغيب : إن الاختبـار البشـري هـو الإيمـان بـالغيب والإيمـان بـالغيب يعـبر عن التصـديق بحقـائق الغيب مـع حصـول الخشية.

وبهـذا وصـف اللـه المؤمـنين: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِـالْغَيْبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾
(البقرة : 3)
﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾
(يس : 11)

فهم يوقنون بحقـائق الغيب الـتي أعلنهـا القـرآن كالإيمـان باللـه، والملائكة، والنبوة، واليوم الآخر، والجنة والنار دون مشاهدة مباشرة لهـا، لكن يـوم القيامـة ينقلب بسـاط الواقـع فتصـبح حقـائق الغيب مشـهودة وحينئـذ : ﴿ لَا يَنفَـعُ نَفْسًـا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْـلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾
(الأنعام : 158)
وعلى ذلك فالفرق واضح بين المؤمن والكافر، فهذا سوف يخضع للحقيقة حينما يشـاهدها بعينيـه يـوم القيامـة أمـا المـؤمن فهـو يعلن تصديقه للحقيقة الغيبية في الـدنيا واللـه سـيكافئه على هـذا الإيمـان الغيبي بالجنة، أمّا الكافر فالنار الأبدية مثواه إن المؤمن قد استسـلم لعظمة خالقه عن طريق الغيب فدلل بذلك على نجاحـه في الاختبـار الإلهي أمّا الكافر فإنه قد دلل على فشله في الاختبار، لأن ذات اللــه مختفية وليست ملموسة في المنظور المـادي فهي عظمـة من وراء ستار، وتظهر عن طريق الحجة والآيات، وكل ما في هـذا الكـون آيـة على عظمـة اللـه، والمـؤمن هـو من ينجح في إدراك ذلـك، وبالتـالي يستسلم لعظمة الله دون أن يراه، ولقـد غيب اللـه سـبحانه وتعـالى

ذاته وأفعاله المباشرة عمداً لاختبـار الإنسـان وسـوف تظهـر صـفاته وأفعاله مباشرة يوم القيامة روى مالـك الأشـعري حـديثاً عن رسـول الله **(صلى الله عليه وسلم)** يبين هذه الحقيقة : "إن اللـه تعـالى يقول : ثلاث خلال غيبتهن عن عبادي لو أراهن رجل مـا عمـل بسـوء أبـداً : لـو كشـفت غطـائي فـرآني حـتى اسـتيقن، وعلم كيـف أفعـل بخلقي إذا أتيتهم وقبضـت السـموات بيـدي ثم قبضـت الأرضـين ثم قلت : أنـا الملـك من ذا الـذي لـه الملـك دوني فـأريهم الجنـة ومـا أعددت لهم فيها من كل خـير فيسـتيقنوها وأريهم النـار ومـا أعـددت لهم فيها من كل شر فيستيقنوها ولكن عمداً غيبت ذلـك لأعلم كيـف يعملون وقد بينته لهم."

(تفسير ابن كثير 6 / 109)

3- الإنسان والأمانة : إن موقـف الملائكـة من خلـق الإنسـان هـو موقــف من حيث المبــدأ طــبيعي عنــدما علمت جانبــاً من الســلوك البشري كسفك الدماء والفساد، وهي قد خلقت في الطهـارة التامـة والتقديس الكلي للخالق. ولكن الله بعد أن خلق الإنسـان (آدم عليـه الســلام) أطلـــع الملائكـــة على الجـــانب الآخر للســـلوك البشـــري (استعمال الإنسان لحريته في طاعة وعبادة الله وهي جوهر الصفات التي حملتها ذرية آدم الصالحة والتي لم تعلمها الملائكة في حينها:
﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

(البقرة : 33)

والحكمـة في ذلـك أن اللـه خلـق الإنسـان حـراً مسـؤولاً وجعلـه يتحمل مسؤولية اختياره ثواباً أو عقاباً يقول الله تعالى :
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾
(الأحزاب : 72)

يقول الإمام ابن عباس أن معنى الأمانة هي الطاعة ولكن كما يتضح من الآية ليست كطاعة السموات والأرض والجبال ولكن الطاعة الشعورية التي تقوم على أساس الإرادة والاختيار والوعي، وهذا هو الفرق بين طاعة الكون وطاعة الإنسان فطاعة الكون كله طاعة غير شعورية، فتجد أن كل الكون ينقاد لله ويستسلم له فلا يتمرد فيه شيء على النظام الذي فطره الله عليه:

 وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

(آل عمران : 83)

بينما المخلوق الذي يسلم لله طواعية وبإرادة حرة هو الإنسان، ولهذا كان عمل الإنسان أعظم قيمة عند الله من عمل هذا الكون، ولهذا السبب فإن الإنسان وحده الذي ينال عقاباً على تضييعه الأمانة، وينال مكافأة على قيامه بها.

ولكن ما هي العقبة التي تحول بين الإنسان وإستسلامه لله ودخوله في طاعته كما دخل فيها الكون كله ؟ إن أخطر عقبة (الكبر) وهي الناجمة عن تعظيم الذات مقابل تعظيم الخالق وفي تعريف الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** : "الكبر بطر الحق وغمط الناس".

(رواه مسلم)

بطر الحق بمعنى رفضه وعدم قبوله وغمط الناس بمعنى ازدراؤهم واحتقارهم وانتقاص حقهم ويروي مسلم عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** : "إن الله تعالى أوحى ألي أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد ولا يفخر أحد على أحد" ولهذا قال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** : "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر".

فالكبر هو المانع من قبول الحق والخضوع له وهو في نفس الوقت أكبر الدوافع على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وأنتقاص حقه ومن أجل دخول الانسان الجنة لا بد أن يكون قلبه سليماً من الكبر :

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89)﴾

(الشعراء : 88 – 89)

إن موقـف الشـيطان يعـبر عن الكـبر، وهـو أسـاس الخـراب والفساد، لأن الكبر مانع من الاعتراف بالحق، والتصديق بـه، كمـا أن التواضـع هـو أسـاس الصـلاح والإصـلاح، وهنـا كـان اختلاف الموقـف الإنســاني (آدم وحــواء) من الخطيئــة عن موقــف إبليس المصــر والمستكبر، لقد أخطأ إبليس ورفض الاعـتراف بخطئـه واعـترف آدم ومعه حواء:

﴿ قَـالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَـنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِـرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُـونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(الأعراف : 23)

ولقد وجد آدم المغفرة، ووجد إبليس اللعنة الأبديـة، واجتـبى اللـه آدم للنبوة، وتحول الشيطان إلى مخلوق قبيح وداعية إلى النار، وبـدأ حربا شعواء على النوع البشري:

﴿ قَـالَ فَبِمَا أَغْـوَيْتَنِي لَأَقْعُـدَنَّ لَهُمْ صِـرَاطَكَ الْمُسْـتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـانِهِمْ وَعَن شَـمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17)﴾

(الأعراف : 16 – 17)

﴿قَــالَ رَبِّ فَــأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَــوْمِ يُبْعَثُــونَ (79) قَــالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَـرِينَ (80) إِلَىٰ يَـوْمِ الْـوَقْتِ الْمَعْلُـومِ (81) قَـالَ فَبِعِزَّتِـكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83)﴾

(ص : 79 – 83)

وهكذا تدور معركـة مسـتمرة لا تهـدأ بين إبليس والإنسـان إلا أن الله منبع الرحمة والعدالة جعل خطته مستمرة لإنقاذ النوع البشــري من النار عن طريق الرسـالات الـتي أرسـلها تـترى في كـل العصـور

وفتح باب رحمته لكل من يسلك سبيل الاعتراف والخضوع له وحــده ولقد حذر الله بصورة مستمرة الإنسان من عدوه الأبدي :

 يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَـنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)

(الأعراف : 26 – 27)

4- النبأ العظيم : إن الله سبحانه وتعالى قد جعـل يـوم الحسـاب للفصل بين عباده إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (النبأ : 17)

يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويقف النبيين والشهداء ليشـهدوا على النـاس، ويسـئلوا عن تبليغهم رسـالة اللـه كمـا سـيقف النـاس للحساب :

 فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (6) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَـائِبِينَ (7) وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (9)

(الأعراف : 6 – 9)

وكانت المفاجأة العظيمـة عنـدما يتحـول كـل شـيء شـاهداً علي أعمالهم :

 وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (19) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (20) وَقَالُوا لِجُلُـودِهِمْ لِمَ شَـهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَـالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَـقَ كُـلَّ شَـيْءٍ وَهُـوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَـرَّةٍ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ (21) وَمَا كُنتُمْ تَسْـتَتِرُونَ أَن يَشْـهَدَ عَلَيْكُمْ سَـمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَـارُكُمْ وَلَا جُلُـودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِـيرًا مِّمَّا تَعْمَلُـونَ (22) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِـرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْـبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِـرِينَ (23) فَـإِن يَصْـبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ (24)

(فصلت : 19 – 24)

هــذه الحقيقــة هي أهم خــبر يجب أن يصــل إلى النــاس، لكي يستعدوا بالإيمان والعمل الصالح قبـل فـوات الأوان، إنّ السـعيد من أقام الحياة الدنيا على معنى التوحيـد في كيانـه والشـقي من عـاش غافلاً عن هذا اليوم الرهيب :

﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْـزَىٰ كُـلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَـبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17)ـ وَأَنذِرْهُمْ يَـوْمَ الْآزِفَـةِ إِذِ الْقُلُـوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18)﴾

(غافر : 16 – 18)

النّار

عندما وقف الرسول الكريم عليـه السـلام، على جبـل الصـفا في مكة المكرمة لأول مرة وتجمع الناس حوله من كل مكان صاح فيهم صـيحته المشـهورة : "أنقـذوا أنفسـكم من النـار" إن جهنم حقيقـة والساعة آتية لا ريب فيها ولا يمكن للعقل البشري أن يتصور مــا هي الأهوال الحقيقية الـتي سـوف يظهـر فيهـا عـذاب اللـه الأبـدي أمـام العصاة، ولقد أنذر اللـه عبـاده من هـذه الكارثـة الكـبرى بأوضـح مـا يكون في كتابه، ويوم يسوق الملائكة الذين كفـروا إلى جهنم سـوف يتلقاهم خزنة جهنم بالسؤال التالي :

﴿ وَسِـيقَ الَّذِينَ كَفَـرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَـرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَـأْتِكُمْ رُسُـلٌ مِّنكُمْ يَتْلُـونَ عَلَيْكُمْ آيَـاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَـذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

(الزمر : 71)

إن جهنم هي مأوى العصاة ليس لهم مهرب منها، ثيابهم فيهـا من النار :

﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19)ـ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20)ـ وَلَهُم مَّقَـامِعُ مِنْ حَدِيـدٍ (21)ـ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُـوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22)﴾

(الحج : 19 – 22)

وهم يعانون الهوان والذل في هذا العذاب الأبدي، فتكون أمنيتهم الوحيدة أنهم لو رُدوا إلى الحياة الدنيا ليعملوا أحسن مما عملـوا في السابق فلا يستجاب لهم :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُـوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُـورٍ (36)ـ وَهُمْ يَصْـطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْـرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَـلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَـذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (37)﴾

(فاطر: 36 – 37)

فهل هناك قضية أعظم من هذه القضية ؟ وهـل هنـاك نبـأ أعظم من هذا النبأ ؟

وكما أن الملائكة سوف تقـذف بالعُصـاة في قعـر جهنم، فسـوف تفتح أبواب الجنة أمام المؤمنين الذين صرفوا حياتهم في طاعة اللـه وأقاموا عظمته في نفوسهم :

﴿ وَسِـــيقَ الَّذِينَ اتَّقَــوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَـــرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِـدِينَ (73)ـ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَـدَقَنَا وَعْـدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَـوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (74)﴾

(الزمر : 73 – 74)

إنّ المؤمـنين سـوف يعيشـون متنعمين في الجنـة الأبديـة، وهي جنات عالية ، عظيمة الاتساع عرضها السماوات والأرض :

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَـةٌ (12)ـ فِيهَا سُـرُرٌ مَّرْفُوعَـةٌ (13)ـ وَأَكْـوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)﴾

(الغاشية : 12 – 16)

إن الجنــة دار المســرات الحســية والمعنويــة والروحية، فهي دار الخلود للجسم والروح معاً :

 مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُـونَ فِيهَا أَنْهَـارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْـرِ آسِـنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْـرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـارِبِينَ وَأَنْهَـارٌ مِّنْ عَسَـلٍ مُّصَـفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُـلِّ الثَّمَـرَاتِ وَمَغْفِـرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ

(محمد : 15)

إن هذه الجنة سيرثها الذين آمنوا بما عملوا من الصالحات :

 وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًـا إِلَّا وُسْـعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْـرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَـارُ وَقَـالُوا الْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِي هَـدَانَا لِهَٰـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43)

(الأعراف : 42 – 43)

الدعوة الربانية

إن الفــرق بين الــدعوة الربانيــة وغيرهــا من الــدعوات، إن منهج الــدعوة الربانيــة لا يقــوم أصــلاً على مبــدأ ردود الفعــل، الدنيويــة والوقتيــة، بــل يقــوم على أســاس الحقـائق الأبديـة الأخرويـة، إن أي حدث دنيـوي وقـتي سـوف ينتهي بنهايـة الإنسـان على الأرض، ولكن الآخرة حقيقة أبدية وهي الحياة الحقيقيـة، والفـوز أو الخسـران همـا نهاية جهود الإنسان عندما يقف أمام الله يوم الحساب :

 فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ (آل عمران : 185)

إنّ الله جعـل الـدار الآخـرة هي الهـدف النهـائي لجهـود الإنسـان المسلم، ولهذا السبب جعلها أساس الفوز والفلاح :

﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18)ـ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِـرَةَ وَسَـعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (19)﴾

(الإسراء : 18 – 19)

وأهمية الحياة الدنيا أنها مجال الاختبار الحقيقي، ونجـاح الإنسـان الحقيقي في هذه الدنيا هو أن يجعلها مجـالاً لإثبـات عظمـة اللـه في نفسه :

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾

(الملك : 2)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

(الذاريات : 56)

إن اللـه لم يجعـل الحيـاة الـدنيا دار كمـال بـل جعلهـا دار اختبـار وابتلاء ومن شأن ذلك عرضتها للنقص والخسارة والظلم، فهي مكان معهود لذلك الفساد لسوء اسـتعمال الإنسـان حريتـه، ولا يعـني هـذا عدم التوجه لإصلاح الحياة البشرية في برنامج الدعوة الربانيــة ولكن يكون هذا التوجه تبعاً لقناعة الإنسان بالدرجـة الأولى، بعـد اكتشـافه حقيقة الحقائق (معرفة الله). فالدعوة الربانيـة تـزرع بـذرة التوحيـد (خشية الله وعبادته) وتحبب الهداية لعباده، وهذه الدعوة تتوجــه إلى كيان الفرد وليس الكيان الجماعي، لأن الجماعـة أو الدولـة ليس لهـا كيان نفسي، إنما الإنسان وحده الذي يملك كياناً نفسـياً وبالتـأثير في إرادة الإنسان يبدأ الإصلاح الحقيقي.

الرسالة الربانية

ما هي حقيقية الرسالة الربانية ؟ والجواب على هذا السؤال، من القرآن الكريم وهو المصدر الأول للإسـلام، هو تنبيـه النـوع البشـري إلى الآخرة، فالهدف من إرسال الرسل هو الإنذار :

﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾

(غافر : 15)

فالحقيقة المهمة هي أننا نقف أمـام اللـه يـوم القيامـة لنحاسـب على أعمالنـا في الحيـاة الـدنيا : ﴿فَرِيــقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيــقٌ فِي السَّــعِيرِ﴾ ولأهمية هـذا الأمـر فـإنّ اللـه سـبحانه وتعـالى جعـل قضـية الإنـذار والتبشير وتبليغ رسـالة اللـه متواصـلة في النـوع البشـري يقـوم بهـا الرسل لكي لا يكون لأحد عذر أمام الله يوم القيامة :

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّـرِينَ وَمُنـذِرِينَ لِئَلَّا يَكُـونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء : 165)

وفي الحديث : "لا أحـد أحب إليـه العـذر من اللـه من أجـل ذلـك بعث المنذرين والمبشرين".

(متفق عليه)

إن المطلوب من الإنسان ليفوز بالجنة وينجو من عـذاب اللـه أن يؤسس حياته على التوحيد والتوحيـد ليس قضـية فلسـفية أو كلاميـة (نسبة إلى علم الكلام) بل قضية اختبارية بالدرجة الأولى :

﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

(الملك : 2)

فمن جعل حياته القصيرة في الخضوع للـه وحـده واسـتقام على الإيمان والعمل الصالح فسوف يكافئ على ذلك بالنعيم الأبــدي ومن اسـتعمل حريتـه في المعصـية والفسـاد والغفلـة عن الحيـاة الآخـرة فسـوف يكـون مصـيره العـذاب الأبـدي والخسـارة المطلقة، قـال تعالي :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾

(العصر : 1 – 3)

وفي ضوء الخطة السابقة أرسـل اللـه النـبي العـربي (محمـد بن عبد الله) صلوات الله وسلامه عليه للناس كافة :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾

(سبأ : 28)

ولقد قام الرسول **(صلي الله عليه وسلم)** بتبليـغ رسـالة القـرآن كمـا أمـره اللـه مبتـدئاً بقومـه العـرب ثم من يليهم من الأمم ومن المشهور أنه أرسل وفوداً ورسائل إلى ملوك وأمراء عصره يـدعوهم فيهـا إلي الإسـلام، وعلى سـبيل المثـال كتب إلى هرقـل إمـبراطور الروم وكسرى ملك فارس، ولقد حمـل اللـه في نفس الـوقت أتبـاع النبي الخـاتم مسـؤولية تبليـغ الرسـالة من بعـده لنفس الغايـة وهي إتمـام الحجـة على النـاس وهي نفس المهمـة الـتي قـام من أجلهـا الأنبياء، وبذلك انتدب الله الأمة الإسلامية لتكـون في مقـام الرسـول **(صلى الله عليه وسلم)**، وتبـذل أقصـى الجهـود في سـبيل هـذه المهمة كمـا ورد صـراحة في آيـات وأحـاديث كثـيرة، من ذلـك قولـه تعالى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُـوَ اجْتَبَـاكُمْ وَمَا جَعَـلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَـرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِن قَبْـلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَـهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُـوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَـوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

(الحج : 78)

وفي الحديث الصحيح ورد أنه جمع الرسـول مـرة أصـحابه فقـال لهم : (إن الله بعثني رحمة للناس كافة فأدوا عـني رحمكم اللـه ولا تختلفوا).

ولقـد بـذل الصـحابة في حيـاة الرسـول وبعـد وفاتـه كـل مـا في وسـعهم من أجـل تبليـغ الرسـالة ونشـر دين الهدايـة في كـل أنحـاء العالم، وقدموا في سبيل هـذه المهمـة العظيمـة أمـوالهم وأرواحهم وبفضل جهاد الرسـول وجهـادهم دخـل النـاس في دين اللـه أفواجـاً وانتشر الإسلام وظهر على الأديان كلها.

(12) الفتح المبين

إنّ أعظم فتح في تاريخ الإسلام تحقق عن طريق الإقناع والحوار العقلي، وذلك بعد إبرام معاهدة الحديبية بين الرسول وقـريش، حين نزلت الآيات السابقة :

 إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (1) لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (2)

(الفتح : 1 – 2)

إن العبرة العظيمة في هذه الواقعة التأريخيـة المهمـة هي إبـراز نتيجة العمل الذي يقوم على السكينة والتقوى مقابل الحمية العصبية الجاهلية، فالرسول **(صلي الله عليه وسلم)** رفض الاسـتجابة لشـتى استفزازات قريش وخطط في ضوء العوامل المسـتقبلية الحاسـمة، لأنه كان يدرك أنّ المقاومة القائمة على التعصـب تنهـار عنـدما تتـاح لأسلحة الفطرة أن تعمل عملها في النفس البشرية، فعنــدما يختفي الخوف والتعصـب ينتصـر الحـوار العقلي لدرجـة الفتح المـبين ولقـد صدق الصديق صاحب رسول الله **(صلى الله عليه وسلم)** حين قال : "ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية".

أنّ فتح الحديبية يقدم لنـا درسـاً هامـاً وهـو عـدم نسـيان الهـدف الأصلي للرسالة حتى في أوج الصراع، وأنّه لا بد من الالتزام بالمبـدأ والمنهج الذي انطلقت منه الرسالة وسارت عليه وهـو منهج الـدعوة إلى الله.

الفتح المبين

إنّ الداعية الرباني لا يبدأ عمله بالقتال أو بإصدار الفتاوي الفقهية على من حوله بالكفر أو الشرك، ولو بدأ عمله من هذه النقطـة لمـا تقدم في طريقه خطوة واحدة، ولكان عمله هـذا ذا مـردود عكسـي، ولكن الداعيـة الربـاني يبـدأ عملـه من حيث بـدأ الأنبيـاء، وهـو البـدء

بالدعوة إلى الله، والنداء إلى الإيمان به، والتبشير بجنته والإنـذار من عذابه، لقد بدأ كافة الرسل دعوتهم من هذا المنطلق، وكان هـذا هـو أيضـاً منطلـق خـاتم الرسـل (صـلي اللـه عليـه وسـلم). فعنـدما بـدأ الرسول دعوة الناس إلى الإسلام في مكة المكرمة كان وحيداً وكان جميع الناس في الطرف المقابل منه ولم يبدأ عمله بالحكم وإصــدار الفتاوي أواستعمال العنف، إنما بدأ بالـدعوة وتـأليف القلب، والنصـح وتبليغ الحقائق بأنصع الأساليب، وعن طريق الدعوة دخل النـاس في دين الله أفواجاً وسمعوا نداء الإيمان فاستجابوا لندائه :

﴿ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾
(آل عمران : 193)

ولقد شهد المؤرخون بالقوة الإيجابيـة للتسـامح الإسـلامي ودوره في جعل الشعوب تسرع لاعتناق الإسـلام عن طريـق الـدعوة ونـداء الإيمان فحسب، يقـول الفـرد كـانتول سـميت : "الإسـلام هـو القـوة الإيجابية الوحيدة التي انتزعت من المسيحيين أناساً دخلوا في الدين الجديد فأمنوا به".

(الإسلام في التاريخ الحديث. ط 4 (1966) ص : 106)

ويقـول المـؤرخ (تومـاس أرنولد): "يمكننـا أن نحكم من الصـلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب، بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل النـاس إلى الإسـلام، إن محمـداً قـد عقـد حلفـاً مـع بعض القبائـل العربيـة المسـيحية وأخـذ على عاتقـه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية".

(الدعوة إلى الإسلام ص : 48)

والواقع أن الدعوة ليس إظهاراً للنزعة العدوانية على البشـر بـل إن الدعوة إظهار لـروح المحبـة والتسـامح والسـلام، (**والله يـدعو إلى دار السلام)**، والحقيقة أن الرسول كان المثل الأعلى للداعية ومنبــع الرحمــة المهــداة للعالمين، **(ومــا أرســلناك إلا رحمــة للعالمين)**. يروي ابن كثير قصة دعوة الرسول لأهل الطائف عندما

لم يستجيبوا، ولما يئس الرسول من ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وقعد له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مرّ جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه فخلص منهم وهما يسيلان بالدماء والتجأ إلى بستان كان لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه وتحت تأثير الموقف الذي كان فيه توجه الرسول بالدعاء إلى الله : "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك". وثبت في الصحيحين "عن عائشة، قلت لرسول الله **(صلي الله عليه وسلم):** هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : "ما لقيت من قومك كان أشد منه يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام فنادى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك، وقد بعث لك ملك الجبال، لتأمره بما شئت فيهم، ثم ناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد قد بعثني الله إن الله قد سمع قول قومك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك ربك لتأمرني ما شئت، إن شئت أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال رسول الله **(صلي الله عليه وسلم)**: أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً".

(البداية والنهاية 3 / 137)

ما معنى هذا؟ أن المغزى المراد أن الداعية عليه أن يستلهم هذا المنهج فلا يقطع الأمل أبداً من أجل هداية الناس إلى ربهم، وأن

يفتح الحوار بكل حكمة مع الإنسان ليخـاطب فطرتـه بصـرف النظـر عن دينه أو معتقده التقليدي، لأن خطـاب الفطـرة خطـاب نـاجح مـا التزم الحكمة والموعظة الحسـنة، أمـا الـذين يظنـون أن العنـف هـو أداة الدعوة فهم لم يدركوا بعد مقاصد الرسالة الإلهية والـتي أرادهـا الله أن تكون رحمة للعالمين، لا نقمة عليهم، إن من يظن أن العنـف هو وسيلة الدعوة الناجحة عليه أن يراجـع سـورة الفتح ومـا تضـمنته من دروس مهمة، إنّ الله جعـل من الخطـوة الـتي اتخـذها الرسـول **(صلي الله عليه وسـلم)** في الحديبيـة "فتحـاً مبينـاً" ليس في تـاريخ الإسلام بل في تاريخ البشرية بأسرها، وما هي الخطوة الـتي اتخـذها الرسول سوى إيقاف الحرب التي أشعلها التعصب ضد الحق، ولماذا أشـعلها ؟ إلا ليحـول بين العقـل والاسـتماع إلى الخطـاب الإلهي، إن العنـف هـو أداة الشـيطان المفضـلة لأن يـدفع بـالحوار بين الداعيـة والمدعوين ليتوقف. إنّ مجـرد قبـول المـدعوين الحـوار مـع الرسـل خسارة فادحة للشيطان وحده وكيف يمكن له أن يجعل هـذا الحـوار يتوقف إلا عن طريق إشعال نار التعصب والعنـف الـدموي، والـدعاة إلى الله إذا كانوا على بصيرة يدركون جيداً لعبة الشيطان المـدمرة، وهم بالتـالي يحـاولون بكـل جهـد أن يعيـدوا الجـو السـلمي للحـوار العقلي ولو كـان على حسـاب عـواطفهم، هـذه هي جـوهرة النظـرة التي فتحت النصر أمـام الرسـول **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** في الحديبية رغم اعتراض الصحابة على هذه الخطوة في البداية : يقـول الإمـام ابن شـهاب الزهـري تعليقـاً على فتح الحديبيـة "مـا فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّـا كـانت الهدنـة ووضـعت الحـرب، وأمِن النـاس بعضـهم بعضـاً، والتقـوا فتفاوضـوا في الحـديث والمنازعـة، فلم يُكلّم أحدٌ بالإسـلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينـك السـنتين مثـل من كـان في الإسلام قبل ذلـك وأكـثر "قـال ابن هشـام : والـدليل على قـول الزهري أن رسول الله **(صلي الله عليـه وسـلم)** خـرج إلى الحديبيـة في ألف وأربع مائة في قـول جـابر بن عبـد اللـه. ثم خـرج عـام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف".

(سيرة ابن هشام : 2 / 322)

لقد أعطى الرسول **(صلي الله عليه وسلم)** كل ما أرادت قريش بما في ذلك فك الحصار الاقتصادي على تجارتها التي تمر على المدينة إلى الشام، ووافق أن يرد كل مسلم جديد يلجأ إلى الرسول من اضطهاد قريش، وأمّا من جاء من قبل الرسول فلا ترده إليه، وغير ذلك من المكاسب التي أخذتها قريش من الرسول، وأخذ الرسول في المقابل شيئاً واحداً وهو إيقاف الحرب لمدة عشرسنوات فماذا كانت النتيجة ؟ هو حدوث أعظم فتح في تاريخ الاسلام كما شهد الأولون والآخرون، أخرج بن عساكر..يقول : ما كان فتح أعظم في الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يعجلون والله لا يعجل كعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد".

(حياة الصحابة 1 / 229)

ولهذا كان الصحابة يعدون "فتح الحديبية" هو الفتح وليس "فتح مكة" كما هو شائع عند معظم الناس.

إنّ في أجواء القتال والخصومة يعلو التعصب وتحتد الكراهية وينتشر الخوف فيمتنع بسبب هذا الناس من الاستماع إلى دعوة الحق، والفتح المبين في الحديبية إيقاف لهذا القتال الذي كان يدور بين قريش والرسول (صلي الله عليه وسلم) ذلك القتال الذي أشعله التعصب والجهل على رسالة الإسلام، وبعد جهود مستمرة من الرسول والصحابة للدفاع عن الرسالة رضيت قريش أخيراً أن تعقد هدنة سلمية مع الرسول لمدة عشرة سنوات تلتزم فيها بعدم إثارة الحرب ضد الرسول وكانت لا تعرف أنها قد أبرمت معاهدة لإنهاء مقاومتها الظالمة للإسلام بصورة نهائية ليدخل جيش المسلمين مكة فاتحاً لها بدون قتال بعد سنتين فقط من إبرام المعاهدة.

وعنـدما دخلت جيـوش المسـلمين مكـة ولاحت أول مـرة فرصـة مواتية للانتقام هتـف زعيم الأنصـار أو حامـل رأيتهم سـعد بن عبـادة قائلاً : "اليوم يوم الملحمـة اليـوم تسـتحل الحرمـة" فأخـذ الرسـول **(صلى الله عليه وسلم)** الرايـة منـه وسـلمها لابنـه وهـو يقـول " اليوم يوم المرحمة اليوم تعظم الحرمة".

وقـدّم الرسـول **(صـلي اللـه عليـه وسـلم)** أعظم درس في التسامح للبشـرية بأسـرها عنـدما قـال لمن عانـدوا وقـاوموا الحـق، وارتكبوا كلّ جريمة ضد الرسول **(صلي الله عليـه وسـلم)** وأصـحابه قال لهم : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" ولم يجدوا ما يـردون بـه على هـذا الخلق العظيم إلا أن يدخلوا في دين الله أفواجاً، إن الأخلاق الإيجابية التي كان الرسول **(صلي الله عليه وسـلم)** ينتهجهـا هي الـتي فتحت قلوب أعدائه الأشـداء ليتحولـوا إلى أحبـاء لـه ومجاهـدين في سـبيل الله.

ومن المعاصرين الذين درسوا الحديبية بعمق المؤرخ محمد أحمد باشـميل إذ يقـول تعليقـاً على صـلح الحديبيـة : "إنّ نجـاح الرسـول الأعظم **(صلي الله عليه وسلم)** في عقد صـلح الحديبيـة مـع قـريش حقـــق للـــدعوة الإســلامية من المكاســب على كافـــة المســـتويات السياسية والروحية والمعنوية والعسكرية ما لم تحققه له أية معركة خاضها النبي محمد **(صلي الله عليه وسلم)** وأصحابه الكرام بالسيف والرمح والنبل ... إن صلح الحديبية هو حدث من أهم أحداث التأريخ، وبعقده تحول مجرى الصراع بين الإسلام والوثنية في جزيرة العـرب لصـالح الإسـلام والمسـلمين حـتى قضـى قضـاءً تامـاً على الشـرك والوثنية وكانت الغلبة التامة للتوحيد والتوحيد فقط".
(صلح الحديبية – دار الفكر – بيروت ص : 14 – 19)

ويقول المفكر وحيد الدين خـان تعليقـاً : "إنّ إبلاغ الرسـالة على درجة كبيرة من الأهمية وفي سبيل ذلك تهـون التضـحية بـأي شـيء، في السـنة السادسـة للهجـرة (628) عقـد النـبي **(صـلي اللـه عليـه وسلم)** مع أهل مكة معاهدة الحديبية، وكان شروطها أن يسمح لأهل

مكة بالمرور بالمدينة إلى مصر والشام والعراق بقصـد التجـارة وهم آمنون على أنفسهم وأموالهم فكـان النـبي بـإقرار هـذا الشـرط قـد سمح علانية لأعداء الإسلام بممارسة النشـاط التجـاري داخـل حـدود المنطقــة الإســلامية، أنّ هــذه المــادة وغيرهــا من المــواد الأخــرى المتشـابهة معهـا إنمـا وضـعت بغـرض منح هـؤلاء النـاس تسـهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصفو بذلك ميدان الـدعوة ويتمهـد الطريـق إليها".

(واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ص : 206 – 207)

إن الدعوة في جوهرها تحبيب هداية اللـه لخلقـه ليفـوزوا بالجنـة وينجو من عذاب الله، يقول الرسول **(صلي الله عليـه وسـلم)** "إنمـا بعثتم ميسرين لا معسرين" ويقول "بشروا ولا تنفروا".

إن اسـتعمال العنـف ينفـر البشـر من دين الله، بينمـا اسـتعمال الرفق واللين والتيسير يرغبهم في طاعة الخالق وهو الهدف النهائي من دعوة الرسول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(النساء : 64)

أما استعمال الغلظـة والتعسـير يـؤدي إلى نتـائج عكسـية تمامـاً، ويأتي سؤال لماذا استعمل الرسول القـوة مـع أعدائه؟! إنّ الجـواب على هذا السؤال أن الرسول (صلي الله عليـه وسـلم) لم يكن بادئـاً أحداً بقتال وإنما استعمل القـوة لضـرورة الـدفاع أو لضـرورة وقتيـة وهي إزالــة فتنــة الشــرك أو مــا يســمى بلغــة العصــر رفــع وإزالــة (الاضطهاد بسبب العقيدة) ولما زالت هذه الضرورة لاستعمال القوة وزالت عقبة الشرك الجارح وصارت حرية الاختيار للدين بدون خوف وكان الدين لله زالت الضرورة لاسـتعمال القـوة وسـالم من سـالمه وفي هذا الشأن يقول ابن تيمية : كانت سيرته عليه الصلاة والســلام أن كل من هادنه من الكفار لم يقاتله، وهذه كتب السـيرة والحـديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا وهذا متـواتر من سـيرته عليـه السلام فهو لم يبدأ أحداً بقتال، ويقول إنّا لا نكره أحـداً على الإسـلام

ولو كان الكافر يقاتل حتى يسلم لكان في هذا أعظم الإكراه على الدين.

(أنظر رسالة القتال من مجموعة الرسائل النجدية ص : 116 وما بعدها)

وبسبب منهج التسامح والدعوة السلمية دخل الناس في دين الله أفواجاً في كل بلد حتى وصل الدين إلى أقصى المعمورة وكان يقتضي على الدعاة أن يمضوا على طريق النبوة في الدعوة :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾

(النحل : 125)

لقد استسلمت المدينة المقدسة (مكة المكرمة) لعشرة آلاف صحابي دخلوها بدون عنف في السنة الثامنة للهجرة بعد سنتين من اتفاقية الحديبية، ولقد ألقى الرسول بعد فتح مكة خطبة تاريخية تبين شيئاً مهماً أن استعمال القوة ليس قاعدة بل استثناء، وإن الهدف الدائم هو فتح أبواب الرحمة الإلهية للإنسان والانتصار عليه بقوة التسامح والحب، فهذه القوة هي الوحيدة التي تستطيع أن تجعله يقبل على تغيير موقفه كلياً وأن تجعل القلوب المتحجرة تقطر رحمة، إن درس الحديبية قام في جوهره على قبول شروط الخصم وتغذية فرص السلام معه وتجويع الفرص التي تغذي الحرب، وهذا في الظاهر هزيمة حتى أن صحابة رسول الله الكريم لم يرضوا بذلك ويكفي أن نعلم أنّ أبا بكر الصدق الوحيد الذي وافق رسول الله **(صلي الله عليه وسلم)** منذ البداية على هذا الأمر مما يعني أنه من الصعوبة اكتشاف طريق الدعوة كعملية إيجابية أقوى من الحديد والنار، فلقد انتصر الإسلام في كل تاريخه بقوة الدعوة بالدرجة الأولى وكانت القوة المسلحة دائماً حالة استثنائية، ويكفي للتدليل على ذلك قول أحد الغربيين المنصفين في هذا الشأن : (إذا كانت عظمة الهدف، وبساطة الوسائل والنتائج العظيمة المحققة

هي المقاييس الثلاثة لعبقرية الأنبيـاء فمن الـذي يسـتطيع أن يقـارن محمد على الصعيد الإنساني، بأي رجل عظيم من كبار رجال العـالم، إن أعظم الرجـال لم يعـدوا أن شـهروا السـلاح، وحركـوا القـوانين وأنشئوا الممالك أنهم لم يؤسسوا -عندما أسسوا شـيئاً- سـوى دول مادية انقرضت أحياناً قبل زوالهم".

(مع الأنبياء ترجمة صالح البنداق ص : 456)

(13) النظرة الربانية

إن جوهر النظرة الربانية هو أن ترى الأشياء كمـا هي ولهـذا كـان الرسول (صلي الله عليه وسلم) يدعو الله ويقول: "وأرنا الأشياء كما هي" (مشـكاة المصـابيح) والنظـرة الربانيـة هي أسـاس التفكـير السليم، ومن كانت لديـه هـذه النظـرة يـرى الحقيقـة وراء المظـاهر البادية للناس، فيرى أن حقيقة التصرف والمشـيئة والملـك والقـدرة والقوة والحكم كله لله وحده في هذا الكون، ولا يرى أن هنـاك قـوة عظيمة غـير قـوة اللـه فلا يعطي للبشـر أكـثر من حجمهم الحقيقي. وهذا هو جوهر التوحيد الذي يجعله بمنأى من الخـوف والارتيـاب، فلا تتسلط عليه فكرة أن العالم يتآمر عليـه، أو يسـعى للقضـاء على مـا يراه عزيزاً لديـه من دين أو فكـر ولا يعـني هـذا أن العـالم يخلـو من

التـآمر أو يخلـو من الأعـداء، ولكن المطلـوب هـو أن لا يقهـره هـذا الخوف حتى يسيطر على عقله، ويدفعه بالتـالي إلى فقـدان النظـرة الموضوعية والقدرة على الحكم الصحيح على مـا حولـه من الأشـياء وعندما يضـيع الحكم الصـحيح يـتردى الإنسـان في حضـيض الأعمـال الطائشة وردود الفعل الغامضة وتسيطر عليه أفكار جنونية ليس لهـا صلة بكتاب الله وتعاليم رسوله وربما يقضي على نفسه بـالهلاك في الدنيا والآخـرة. وهـو يحسـب أنـه يحسـن صـنعاً والحقيقـة أن عقليـة الداعية لا يمكن أن تكون على منوال هذه العقلية، ونعني به الداعيـة الرباني الذي يقوم فكره على المنهج الإيجابي والنظرة الموضـوعية، وأكمل مثال على ذلك يتمثل في حياة وسيرة الرسول الخاتم (صـلي الله عليه وسلم).

لقد بدأ الرسول الـدعوة في مكـة المكرمـة في جـو من الحصـار الفكـري والاضـطهاد بلـغ حـد التـآمر على قتلـه حـتى جـاء أمـر اللـه للرسول **(صلى الله عليه وسلم)** بـالهجرة، وكـانت الفـترة الـتي قضاها في مكة قبل الهجرة سجلاً حـافلاً بـالمؤامرات، وفي طريقـه إلى المدينة تعقبه أعداؤه وطلبوه حياً أو ميتا مقابل مائة ناقة.

كل تلـك الأحـداث كـانت حقيقيـة، وليسـت وهميـة أو افتراضـية، ولكن أنظر كيف كان رد فعل الرسول **(صلى الله عليـه وسـلم)** على ذلـك في أول مقالـة أو خطبـة قالهـا في المدينـة عنـد وصـوله سوف يدهشك أن هـذا الرسـول الكـريم لم يشـر إلى أي شـيء من الأهوال التي واجهها وأنجـاه اللـه منهـا وكأنـه جـاء من السـماء، ولم يعرف شـيئاً عن الظلم والاضـطهاد والعـدوان والتـآمر بـل كـان كـل حديثه عن الحقيقة الأبدية حقيقة الآخرة الجنة والنار.

ولو أحاطت برجال العالم الإسلامي الذين يتصدون لقيادة الدعوة في هذا الوقت نفس الظروف التي أحاطت بالرسـول **(صلى اللـه عليه وسلم)** وواجهوا مثل هذه الشـدائد الـتي واجههـا مـع أصـحابه كيـف سـتكون حينئـذ مقـالتهم وخطبتهم ؟ سـوف تكـون مقـالتهم أو حديثهم ليس عن الآخرة والأبدية بل عن الظلم والعدوان ومـؤامرات

الأعداء ومكائدهم والنقمة الجنونية ضدهم. مع أنهم في الحقيقـة في كثير من الحالات المعروفـة هم الـذين يبـدؤون بالعـدوان عن طريـق سلوكهم السبيل الجائر لإقامة الدين، ولو بدؤوا بالسـبيل العـادل في عصر حرية العبادة والفكر لنجحوا ولما وجدوا هذا الاضطهاد. فشـتان بين نظرة الرسول الربانيـة ونظـرتهم الانفعاليـة، وشـتان بين مقالـة الرسـول وخطبـه وبين مقـالاتهم وخطبهم. وفيمـا يلي أول خطبـة خطبها الرسول في المدينة بعد أن قام وأثنى على الله بما هـو أهلـه ثم قال **(صلى الله عليه وسلم)** : "أما بعـد. أيهـا النـاس فقـدموا لأنفسكم تعلمُنّ والله ليصعقنّ أحدكم ثم ليدعنّ غنمه ليس لهـا راع، ثم ليقولن له ربه – ليس لـه ترجمـان ولا حـاجب يحجبـه دونـه – ألم يأتك رسولي فبلغك وأتيتك مالاً وأفضلت عليك فما قدمت لنفسـك ؟ فينظر يميناً فلا يرى شيئاً، ثم ينظـر أمامـه فلا يـرى غـير جهنم فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل، ومن لم يجد فبكلمة طيبـة، فـإن بهـا تجـزى الحسـنة عشـر أمثالهـا إلى سـبعمائة ضعف، والسلام على رسول الله ورحمة الله وبركاته".

(البداية والنهاية لابن كثير)

ولا تستطيع إدراك هـذه الخطبـة حـتى تـدرك من هـو المتحـدث، وماذا جرى له قبل هذا الحديث. كـان رسـول اللـه عليـه السـلام في مكة المكرمة، وقد هاجرحديثاً منها بعـد أن قضـى فيهـا ثلاث عشـرة سنة يواجه الأذى والاضطهاد من قومـه حـتى وصـل الأمـر إلى تـدبير مؤامرة لاغتياله أو سجنه، فلما وصل المدينة سـالماً كـانت هـذه أول خطبة خطبها، ولكن الأمر العجيب والمدهش أنك لا تجـد أيـة إشـارة إلى الأحداث السابقة التي مرت عليه، وكأنـه عليـه السـلام جـاء من السماء، وقام تحدث. وكان حديثه – كمـا تـرى – يـدور حـول الآخـرة والاستعداد لها وهي الحقيقة الأبدية التي كانت تشغله دائمـاً. بـل هي أساس وجوهر دعوته ودعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ولو تمعنت جيـداً في الخطبـة وهي في وسـط مسـلم (المدينـة)، وتذكرت أول خطبة – في مكة – وهي في وسط غير مسلم لوجـدت

تشابهاً كاملاً. فعندما صعد على جبل الصفا ونادى قومه، قال لهم بصوت منذر : "أنقذوا أنفسكم من النار" وفي أول خطبة بالمدينة يقول : "فمن استطاع أن يقي وجهه من النار ولو بشق تمرة فليفعل".

فما هو يا ترى - الفارق الكبير بين عقلية هؤلاء – مفكري العالم الإسلامي - وعقلية الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** "إن الإنسان يتكلم دائماً عن الذي يعتبره أكبر من كل شيء يشغله أو يهمه، ولقد كان الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** والصحابة يعيشون ويتحدثون عن أهوال الآخرة، ولهذا السبب نسوا الظلم والخسارة الدنيوية، ولو كان الذي يشغلهم مكانتهم الشخصية لكان حديثهم عن هذه المكانة ولكن لا نجد لذلك ذكراً، فهذا من أدب الدعوة، وصفات الداعية، وإذا أردت أن تكون داعية إلى الله فلا بد أن تكون لك مثل هذه النفسية الإيجابية، ولا يكن عندك رد الفعل، ويجب أن تنسى كل شيء، وأن تتحمل الخسارة والظلم، ولو كان ذلك على حساب نفسك أي أن ترضى بإنهاء النزاع من طرف واحد، كما نجد ذلك في السيرة : حين هاجر سيدنا صهيب الرومي إلى المدينة وكان صاحب ثروة، فأرادت قريش أن تمنعه من الهجرة فطلب منهم أن يتركوه مقابل أن يعطيهم ثروته، فقبلوا ذلك، وهاجر صهيب إلى المدينة، وحين وصل المدينة، علم الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** بما فعل صهيب، فقال: "ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى".

وهكذا أنهى صهيب النزاع بينه وبين قريش على حسابه ... وهذا معنى إنهاء النزاع من جانب واحد، ولو تمسك صهيب بثروته لما انتهى النزاع، ولكن الداعية الحقيقي يرضى بمثل ما رضي به صهيب، ويتحمل دائماً – بصبر عظيم – الخسارة من جانبه.

إن الذي يعيش حياته في تذكر الحقائق العليا، كعظمة الله تعالى، وأهوال الآخرة، فسوف يعتبر ما يواجهه في الدنيا من أهوال وشدائد لا يعني شيئاً.

وهكـذا كـان الرسـول **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** والصـحابة يعيشون في ذكر عظمة اللـه، وأهـوال الآخـرة، ولعـل الخطبـة الـتي خطبها الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** بالمدينة خـير مثـل على ذلك، والمفكرون المسلمون يقرؤون هذه الخطبة بدون تمعن وتفكر في ظروفها. وبدون ربط بينها وبين الظروف التي كان يعيشها قائـل هذه الخطبة، فهم يقرؤونها مجردة فلا يتفهمـون معانيهـا كمـا ينبغي. ولو عرفوا كيـف يقـرؤون السـيرة، ويتـدبرونها لأدركـوا أدب الـدعوة الحقيقي ولكان الرسول **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** بالنسـبة لهم أسوة حسنة كما أراد الله.

إن الداعية الصـادق هـو الـذي يتحـرك ويتصـرف في كـل أمـوره بدافع الآخرة، ومن كانت الآخرة غايته فقد سلك طريـق الأنبيـاء كمـا بين الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (45) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (46)﴾

(ص : 45 – 46)

يقول المفسر البيضاوي تعقيباً حول هذه الآية :

"جعلنـاهم خالصـين لنـا بخصـلة لا شـوب فيهـا هي ذكـرى الـدار تذكرهم للآخرة دائمـاً فـإن إخلاصـهم في الطاعـة بسـببها وذلـك لأن مطمع نظرهم فيما يأتون به ويذرون جوار الله تعـالى والفـوز بلقائـه وذلك في الآخرة وإطلاق الدار للإشعار بأنها الدار الحقيقية".

(البيضاوي / 604)

ومن جعلوا الآخرة مناط سعيهم صارت الـدنيا عنـدهم ذات قيمـة تبعاً للهدف الأخروي وبالتـالي خلصـت لهم الطاعـة وصـاروا يعملـون بـدافع الفـوز بالجنـة والنجـاة من النـار فـأدركوا حقيقـة عظيمـة هي العيش في رحاب اللـه، وتـذكر عظمتـه فوجـوده هـو الوجـود الحـق، ومناجاته وتمجيده هو أغلى قيمة من كـل شـيء في دنيـاهم، وبـذلك اطمأنت نفوسهم:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

(الرعد : 28)

ويقول الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾

(آل عمران : 79)

يفهم من هذه الآية الكريمة أن الربانية هي نتيجة العلم بالكتاب ودراسته و﴿ رَبَّانِيِّينَ ﴾ جمع رباني وهو المنسوب إلى الرب وقال الطبري : معناه "كونوا حكماء علماء".

(الطبري 6 / 540)

والربانية في تحليلها النهائي هي أن يكون للإنسان المستوى الرباني في النظر للأمور، فالرباني من ينظر بنظرة الله، وهي رؤية الشيء كما هو، ولقد ورد في الحديث الشريف: "اللهم أرنا الأشياء كما هي" وعامة الناس ينظرون للأمور في مستواهم الشخصي والمصلحي، أي أنهم يتأثرون فيرون الأشياء داخل حجب وغشاوات، ولكن الله سبحانه وتعالى لا يرى الأشياء من خلال حجب أو غشاوات والداعية يجتهد من أجل أن تكون له مثل هذه النظرة، وهذه الدرجة تتطلب أن يكون الداعية على مستوى عال من الإيمان وهو ما يسمى بالإيمان الاكتشافي، وفي عبارة أخرى الإيمان الذي يقوم على أساس المعرفة والإدراك الشخصي لا مجرد المعرفة السماعية التي يتلقاها المرء من المحيط، والداعية الرباني يقوم فكره على التأثر بالحقيقة لا على مجرد رد الفعل وهذا المعيار هو معيار المعرفة والنظرة الربانية. وفي تعبير آخر الإيمان الشعوري الذي يأتي نتيجة اكتشاف الله وعظمته في كل شيء وطريق ذلك التدبر في كتاب الله والتأمل في آياته إن القرآن كتاب الحقائق الأبدية، وهو عنوان آخر لما يسمى بـ "النبأ العظيم" فهو يحتوي على أهم نبأ

يقتضي على الإنسان الانتباه لسماعه ومعرفته، وهو نبأ الآخرة، وأعظم مأساة يعيشها الإنسان في هذه الحياة، هو غفلته عن الآخرة، وانشغاله بالعلم الظاهري :
﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾
(الروم : 7)

إن الانشغال بالمستوى الظاهري من العلم يولد في نفسية الإنسان الإقبال على الحياة الدنيا وتفسير كل أحداثها في نطاقها المحدود، وهو لا يعدو القيمة الظاهرية فيكون للإنسان فكر سطحي ولو كان ذلك الفكر يستخدم ألفاظ الدين، فليس العبرة بحضور هذه الألفاظ على اللسان ولكن العبرة الحقيقية في ظهور الخشية في قلب الإنسان وملازمتها لعقله. إن هذا وحده يجعل لمعنى الآخرة حقيقة في نفس العبد فتكون له بالتالي وجهة أخروية، ومن ثم يصبح تقويمه للأحداث في ضوء الحقيقة الأخروية.

والفرق الحقيقي بين النظرة الربانية والنظرة التي تستغرق معظم الناس هو فرق في الحقيقة ليس في الشكل واللفظ :
﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾
(العنكبوت : 29)
إن أخلاق الداعية ينبغي أن تكون على مستوى عال، ولا يكون ذلك إلا عن طريق إيمان عظيم، فالداعية لكي يتحمل الخسارة يتطلب صبراً، وبدون الصبر لا يمكن أن ينجح الداعية في دعوته، ولهذا نجد الداعية الحقيقي يتحمل الخسارة الدنيوية مقابل تأدية رسالته وليس المقصود بالخسارة التي تأتي نتيجة حماقته أو تأتي ثمناً لرد فعل ولعدم صبره ولكن التضحية المقصودة هي بالعكس تماماً ناجمة من قدرته على تحمل الحياة في عالم مليء بالتناقضات حتى أن الكافرين يجدون فرصة فيها طبقاً لمشيئة الله الذي جعل الحياة اختباراً : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الملك : 2)
لأن أصل الحياة وسرها هو الابتلاء وبالتالي فإن سنة الأنبياء هي الصبر والصبر ليس موقفاً سلبياً بل هو موقف إيجابي من جميع

الوجوه إنما الانفعال والطيش والاستعجال أو عـدم تحمـل الأذى ورد الفعـل كلهـا علامـات على فقـدان القـدرة على ضـبط النفس وذلـك خلاف سنة الأنبياء :

 وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَـدَانَا سُـبُلَنَا وَلَنَصْـبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (إبراهيم : 12)

وهي السنة التي أمر الله بها خـاتم الرسـل ومن بعـده أتباعـه أن يتحلوا بها :

1- فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ (الأحقاف : 35)

2- (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَــيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (النحل : 127)

3- قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَـإِنَّهُمْ لَا يُكَـذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَـاتِ اللَّهِ يَجْحَـدُونَ (33) وَلَقَـدْ كُـذِّبَتْ رُسُـلٌ مِّن قَبْلِـكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) وَإِن كَـانَ كَبُـرَ عَلَيْـكَ إِعْرَاضُـهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (35) (الأنعام : 33 – 35)

(14) الداعية المثالي

يقدم لنا تاريخ الإسلام أمثلة ونماذج غنيـة للأسـلوب الصـحيح في العمل الإسلامي في كل وقت والحقيقـة أن أعظم مثـل وأسـوة هـو رسـول اللـه **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** ثم أصـحابه الأبـرار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وأهم صـفة كـانوا يمتـازون بهـا وضـوح الهدف ووضوح المنهج وهـذه هي الصـفة الـتي فقـدناها في العصـور المتأخرة، لقد فقـدنا الهـدف الأساسـي للرسـالة، الـدعوة : "العمـل على إنقـاذ النـاس من النـار وهـدايتهم إلى ربهم عن طريـق دعـوة التوحيد الخالص". وفقدنا منهج الهداية الذي يقتضي على الداعيـة أن يسـير فيـه – فقـدنا روح النصـيحة والشـفقة والتسـامح والصـبر والإعـراض عن الفتن والتركـيز على الهـدف، فقـدنا روح النبـوة في الدعوة الذي جعله الله لنا أسوة حسنة :

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَن كَـانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

(الأحزاب : 21)

إن الذين ساروا على منهج الرسول **(صلى الله عليه وسـلم)** غـيروا تـاريخ المجتمعـات الـتي عاشـوا فيهـا وكـانوا رحمـة لتلـك المجتمعات، ومن الأمثلة البارزة في التأريخ الإسلامي يقدم لنا وحيـد الدين خان نموذج (سيد علي همذاني) الداعية الـذي سـار على منهج الهداية الربانية للدعوة فوفق أعظم توفيق وفي نفس الـوقت يقـدم وحيد الدين النموذج العصري للعمل الإسلامي المطلـوب في مقالتـه (على طريق تاريخ جديد) وهي نموذج دولي جديـد للعمـل الإسـلامي اشـتركت فيـه دولتـان عربيتـان في مجـال (نشـر الإسـلام ونصـرة المسلمين).

ملحق (1) – سيد على همذاني

هنـاك مثـال على المنهج الإسـلامي، نجـده في تـاريخ كشـمير، وكشمير منطقة مشهورة بجمال طبيعتها، إلا أن فيهـا أجمـل وأعظم من جمال طبيعتها وهو نموذج المنهج الإسلامي الذي نجده في حيـاة سيد علي همذاني (1314 – 1384 م)

وقـد اشـتهر في كشـمير باسـم "أمـير كبـير" وقـد تـرك بسـيرته نموذجـاً قـابلاً للاحتـذاء، قـلّ أن نجـد لـه مـثيلاً في القـرون الحاليـة، فكشمير هي كالجنـة بطبيعتهـا الخلابـة وهي بــ "أمـير كبـير" قـدمت منهجاً للدعوة الإسلامية، وهـذا المنهج أعظم كثـيراً من جناتهـا، وقـد قال محمد إقبال (1877 – 1938م) عن الأمير همذاني :

"إن في يده منهج بناء الأمم". وهـذا الـرأي صـحيح مائـة بالمائـة. فكشمير المسلمة اليوم إنما هي ثمرة جهاده، الذي لم يتبـع أسـلوب "السـيف والـرمح" أو "التصـادم مـع الزمـان" بـل اتبـع فيـه أسـلوب الهدايــة غــير المحبب لــدى معظم القــادة المســلمين في الــوقت الحاضـر، لقـد حقـق الأمـير همـذاني النجـاح والفلاح بعـد أن تـرك " السيف والرمح" وكان أعظم درس قدمه في حياتـه هـو قولـه : "إن أردتم بقـاء الإسـلام حيـاً فـادفنوا إلى الأبـد فكـر التصـارع والتنـاحر، وتجنبوا تماماً إثارة الصراعات المذهبية والسياسية، وبعدها سـتنالون نصـر اللـه وتوفيقـه، وسـتتحقق للإسـلام العـزة والرفعـة ويعـز اللـه المسلمين بإسلامهم".

كـان الأمـير سـيد علي همـذاني – من سـكان إيـران – معاصـراً لتيمور لنك (1335 – 1405 م) وقد غضب عليه شاه تيمور لسبب ما، وأصـدر حكمـاً بنفيـه من إيـران، ولم يكن أمام الأمـير همـذاني من سبيل إلا إعلان الجهاد ضد تيمـور لنـك، والعمـل على إقامـة حكومـة صالحة في إيران، حتى ولـو كـانت النتيجـة الاستشـهاد، ولكن "أمـير كبير" ابتعد – في أسلوبه – عن التصـادم السياسـي، بـل أخـذ رفاقـه الأربعين وخرج من وطنه "همذان" ووصل بهذه القافلـة إلى كشـمير

سنة 871 هـ. ماراً بأفغانستان، وكان قد زار كشمير للسياحة من قبل في سنة 762 هـ.

ووصل إلى كشمير فواتته فرصة للإعلان عن حركة سياسية مناهضة للشاه تيمور وكان هناك في زمان تيمور من يكرهونه لأسباب سياسية، كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة التيمورية، إلا أنه تجنب – لأقصى حد – أي نوع من هذا العمل، وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة، وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمي ذلك الوقت، ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أن مسلمي كشمير كانوا يمثلون أقلية فقيرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع نذور للمعابد الهندوكية، وكان يمكن للأمير همذاني أن يقود حركة الزعامة التي تهدف إلى المطالبة بحقوقهم، ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية.

وهكذا اتجه "همذاني" إلى الطريق الذي ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم "الإنسانية" وأن يقدم عظاته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانة محببة لدى الفريقين المتصارعين في كشمير لأن الفريقين أعجبوا به، فقد راح يعمل على إيجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل وبطريقة لا يشعر فيها أي من الفريقين أنه خاضع لضغط ما.

وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب همذاني والأسلوب السياسي – إن النوع السياسي من الحركات مهما بدا ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب والشعارات، فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل، بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب ليست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية، وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على

قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيـه النـاس إلى قضايا الآخرة.

وبرنـامج "همـذاني" لم يكن قائمـاً على عمليـة رد فعـل مضـاد للشاه تيمور أو رد فعـل متـأثر بـالظروف الوقتيـة لمسـلمي كشـمير الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت حاكم مسلم هو "سـلطان قطب الدين" وكان يؤمن بالعديد من الاعتقـادات الفاسـدة ويـرتكب الكثـير من الأعمال السيئة، لكن همذاني أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصـح والإرشـاد اهتمت بضـرورة إصـلاح الأحـوال. وهكـذا لم يؤسس همذاني حركة ثوريـة تهـدف إلى عـزل السـلطان عن الحكم ووضع حاكم صالح مكانه، بـل ارتفـع "همـذاني" فـوق هـذه العوامـل وأقـام برنامجـه الإصـلاحي على أسـاس فكـر ثـابت، ولم يكن لهـذا البرنامج ميثاق فقد كان برنامجه عملياً، لقد انتشر هو ومن معــه من إخوانه في نواحي منطقة كشمير وبدؤوا يبلغون الإسلام لأهالي هــذه المناطق، تعلموا لغـة الكشـميريين وتـأقلموا مـع ظـروف المنطقـة، وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم.

وهكذا عاش "أمـير كبـير" حيـاة الصـبر والتحمـل، وقـام بحركتـه الإصلاحية في صمت وهدوء.

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بـدأ على يـد محمـد بن القاسـم الثقفي (66-96 هــ) فـإن انتشـار الإسـلام بـدأ بصـورة واضـحة في كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني)، وقبل سبعمائة سـنة كانت كشـمير إمـارة خاضـعة لأمـير بـوذي يـدعى (ريجن شـاه) وقـد أسلم هذا الأمير البوذي على يد سيد بلبل شـاه، ولمـا كـان النـاس – في ذلك الزمان – على دين ملـوكهم، أسـلم عـدد من الكشـميريين، وكان بلبل شاه تابعاً للمذهب الحنفي، وهكذا اتبع الكشميريين آنـذاك المذهب الحنفي في عباداتهم، وحين قدم (الأمير سيد عي همــذاني) إلى كشمير وبدأ الناس يسـلمون على يديـه ظهـرت مسـألة خلافيـة

تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم، فقد كان (همذاني) نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمي كشمير على مذهب أبي حنيفة !!

فإذا ما قام (همذاني) بتلقين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التي أسلمت على يده، ثم بقية مسلمي كشمير.

فقد كان الخلاف بين الحنيفة والشافعية يتعدى انفصال مدارسهما ومساجدهما إلى أصل عملية التبليغ في محاولة كلٍّ منهما إثبات صحة وأفضلية مذهبه الفقهي، فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين منفصلتين، وبدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فستضيع فيما بينهم تلك القوة التي كان يجب أن تبذل في سبيل نشر كلمة "الحق" وتمضي الأجيال ويستمر الاختلاف ولا ينتهي أبداً.

ولهذا قام (الأمير سيد على همذاني) بتبليغ أسس الدين فقط، ولم يثر أبداً أي بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية، ولقد احتاط حتى أنه أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعي، وكان يصلي مع المسلمين جميعاً بالطريقة الحنفية، وكان ينصح زملاءه بأداء العبادات طبقاً للمذهب الحنفي، وكانت النتيجة أنه وجد فرصاً مناسبة ليؤدي – دون نزاعات جانبية – رسالته في كشمير، ففاز بتعاون جميع الطبقات، وظل في أمن، بعيداً عن الدخول في متاهات القضايا الفرعية، وقد نجح في نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن، ولو قام (أمير كبير) بإثارة جدل حول المذهب الحنفي والمذهب الشافعي لما حالفه النجاح في تلك المنطقة، ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين متصارعين.

وليس معنى هذا أن الناس الذين يمضون على هذا لا ينشأ بينهم اختلاف، وأحوال الأمير "همذاني" نفسه تدل على هذا. فحين كان

في الثالثـة والسـبعين قـدم لـه بعض الأشـرار من منطقـة (بكهلى) بكشمير، السمّ فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف إنما يكون نتيجة لأسباب شخصية. تهدف إلى الإضرار الشخصي بالداعية فقـط، بينمـا إنشـاء فرقـة دينيـة عن طريـق تحويـل مسـألة غـير دينيـة إلى مسألة دينية يعد جرماً كبيراً، إذ يسلب الجماعة المسلمة جميع النعم الـتي قـدرها اللـه لهـا كجماعـة تحمـل كتابـه وتستمسـك بصـراطه المستقيم.

وحياة (الأمير همذاني) إنما هي مثال عملي ناجح تمامـاً لأسـلوب العمل الإسلامي، فالشيء الذي ركز عليه كفاحـه ونشـاطه من أجـل الدعوة كان قضية (التوحيد والآخرة)، ولم يثر على الإطلاق أية قضايا أخرى كالقضايا السياسية أو الاقتصـادية أو الفقهيـة، فقـد كـان يركـز أساساً على أصـل الـدين، وليس على فرعيـات الـدين. وليس معـنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنـده أمـور "خارجـة" عن الـدين، أو أنـه كان يعدها أموراً غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك، فقـد كـان يعرف أهمية كل منهـا، واتبـع كـل شـيء اتباعـاً عمليـاً إلا أن الشـيء الذي ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس "السـبل المتفرقة".

كـان (الأمـير همـذاني) يصـلي مراعيـاً جميـع شـروط الأحكـام الفقهية، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو إثبات خطأ مـذهب ما وترجيح مذهب آخر، وقد اتخذ - أيضاً – منهجاً اقتصادياً، وإلا فكيف يمكنه ورفاقه أن يعيشوا، ولكنه لم يجعل حل القضـايا الاقتصـادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركتـه، وهكـذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسـة إلا أنـه كـان يتبـع سياسـة عميقـة وراسخة ولو لم يتبـع هـذا الأسـلوب لمـا كـانت لكشـمير اليـوم هـذه المكانة، فهي الولاية الوحيدة بالهند التي بها وزارة مسلمة، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى، وهذه الهيبـة السياسـية الـتي تتمتـع بها كشمير إنما هي نتيجة لدعوة (الأمير همذاني).

ومع أنـه لم يمض حياتـه كلهـا على أي برنـامج سياسـي بـالمعنى المعروف، ولم يعترف به أحد "كقائد سياسي" ومع أنه لم يسـع وراء شيء كهذا، وقـام فقـط بالاستمسـاك بالحقيقـة المطلقـة. فـإن كـل الأشياء قد سعت إليه بعد ذلك، ونال كل ما أراد أن يحققـه من نشـر دين الحق بين أهل منطقة كشمير !!

والخلاصة أن أهمية الـدين تكمن أساسـاً في نجـاة الإنسـان كليـة من الشرك، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط، وهكذا تـدين له الحياة بأكملها. ومن الضروري لنا أن نؤكد قبل كل شيء على هذا الأمر، وأن نجعـل منـه أساسـاً للـدعوة والتبليـغ، وبعـدها يلـزم إتبـاع طريقة ما – تتطـابق مـع الظـروف – فيمـا يتعلـق بمقتضـات الدينيـة المطلوبة في المعاملات التفصيلية، وبالتالي لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساساً لحركـة الـدعوة، فالإنسـان حين يتخـذ من مسـألة مـا أساساً لحركة الدعوة فهو إنما يجعل للمسـألة الفرعيـة نفس مكانـة المسألة الأساسية، ومثل هذا النـوع من العمـل من شـأنه أن يصـيب نظام الدين بالاضطراب، ويدخل عليه الفوضى.

فإذا أعجبك مذهب فقهي خاص أو رأى ما فلتتخذه مـذهباً أو رأيـاً لك، ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجداً أو مدرسة، وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك ما تشاء، ولكن لا تجعلها أساساً أو ميزاناً إسلامياً تقيس به الآخرين، فإذا أقام حاكم مسلم نظاماً على أسـاس ما ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو أي نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد وإذا كانت لديك بصيرة، ورأيت حقوق أمتك الاقتصادية والاجتماعيـة قـد سـلبت فـاغرس لـدى أفـرد الأمة العاطفـة الـتي تمكنهم من القيـام بالـدفاع عن حقـوقهم بقـوة وأمانـة، ومن حـل قضـيتهم، ولكن لا تـثر فيضـانات الاحتجاجـات والمطـالب ضـد من تفـترض أنت أنهم ظلمـة، فمثـل هـذا النـوع من السلوك إنمـا هـو ابتعـاد عن سـبيل الـدين الواحـد، وهـو سـعى وراء السبل المتفرقة ومثل هذه المحاولات مهما كـانت تحمـل من حسـن النوايا فهي تنشر في الواقع الفساد فقط، إذ هي لا تبعد الإنسان عن

عبادة الله الحقيقية فحسب، بل تصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريـق الجماعـات، واللـه لا يحب بث الفرقـة بين أهـل أمتـه، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله إن فعلوا هذا أن ينـالوه مـرة ثانيـة، كمـا أن الفرقـة لا يمكن أن تعيد للأمة وحدتها السابقة.

(أنظر واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام ص : 110 – 114)

ملحق (2) – على طريق تاريخ جديد

كـان إعـداد جيش بقيـادة أسـامة بن زيـد لمواجهـة عـدوان دولـة الروم على المسلمين موضع اهتمام بـالغ لـدى رسـول اللـه **(صلى الله عليه وسلم)** قبـل وفاتـه، حـتى أنـه ظـل يـذكره في لحظاتـه الأخيرة، ويصدر التعليمات اللازمة لإرسال جيش المسلمين لمحاربـة الروم.

وبعد وفاة الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** أبدى خليفتـه أبـو بكر الصديق – اهتماماً شديداً بالأمر، فكان أول ما قام بـه بعـد توليـه الخلافــة أن أصــدر أوامــره إلى جيش أســامة بن زيــد للزحــف إلى منطقة الشام التي كان يسيطر عليهـا الـروم. وذلـك رغم المعارضـة العامة لاتخاذ مثل هذه الخطوة . وقد رافـق أبـوبكر الصـديق الجيش الصـديق الاسـلامي مشـياً على قدميـه مسـافة بعيـدة للإعـراب عن أهميته لديه.

ولكن ما السبب في هذا الاهتمام الزائد بالأمر ؟ ....

الواقع أنه كان يسـتهدف تحويـل الطموحـات الدينيـة للعـرب من الداخل إلى الخارج، لأنـه لـو لم تتخـذ مثـل هـذه الخطـوة في حينهـا لكان هنـاك خطـر شـديد قـد يـؤدي بالحمـاس العـربي الجـارف إلى تصادم داخلي واقتتال وتناحر فيما بين العرب، ولكان حالهم على حد وصف شاعر جاهلي قديم :

وأحيــاناً على بكــر أخينــا ... إذا مــا لــم نجــد إلا أخانــا

لقد اعتدى الروم على الحكومة الإسلامية بالمدينـة المنـورة ممـا أدى إلى غزوة مؤتة وقد استشهد فيها زيد والد أسامة مع عـدد كبـير من المسلمين، فبادر الرسول **(صلى اللـه عليـه وسـلم)** باتخـاذ إجراءات عسكرية ضد دولة الروم، وأمـر بإعـداد جيش من الصـحابة

تحت قيادة أسامة إبن زيد. وهكذا غير الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** مجرى التحرك العربي من الداخل إلى الخارج.

إننا نواجه الآن وضعاً مماثلاُ ... لقد انبعث الوعي الإسلامي لدى الجيل الجديد من المسلمين نتيجة لعوامل عديدة. وكان هذا الجيل على استعداد لتقديم تضحيات كبرى في سبيل الإسلام، إنها مرحلة حاسمة كانت تحتم تحويل هذا الحماس الإسلامي والخطوات العملية الناجمة عنه، من الداخل إلى الخارج، إلا أن هذا الأمر لم يتحقق في حينه. لقد تأثر المسلمون بالتفسيرات السياسية المتطرفة للإسلام، واحتدم الصراع بينهم وبين الأنظمة السياسية في بلادهم.

إن القوة التي كان من الممكن استخدامها لنشر الإسلام في الخارج بدأت تنهك قواها ... هذا الوضع يسود الآن كافة البلدان الإسلامية تقريباً.

إن هذا الوضع يحتم علينا بأن نسعى لخلق وعي جديد لدى الجيل الإسلامي الجديد لتحقيق غاية الحياة الأسمى، ونذكرهم بأن العمل لرفع راية الإسلام ونشره في العالم الواسع هو المجال لاستخدام المواهب والطاقات التي يتمتعون بها، لأن الصراع السياسي المستمر مع الأنظمة الحاكمة في بلدانهم لا يورث إلا الخراب والضياع للأجيال القادمة.

إن المسلمين في عصرنا الحاضر في حاجة ماسة إلى تحديد غاية واضحة لمجال أعمالهم وجهودهم. إن الإنسان يجد أمامه طرقاً عديدة ... طريقاً يؤدي إلى الضياع وآخر إذا سلكه تحققت غايته. إن الاختبار الحقيقي للإنسان هو أن يختار طريقاً صحيحاً بين عدة طرق مفتوحة أمامه. إن الإنسان الذي يحمل غايته يجد وجهة صحيحة لجهوده وأعماله، أما الذي لا تكون له غاية يفشل في أن يختار اتجاهاً صحيحاً.

إن أكبر ما فقده المسلمون في العصر الحاضر هو تحديد غاية واضحة. لقد كان هناك هدفان أمام المسلمين في العصر الحاضر ...

هدف سياسي، وهدف بنائي، إن الهدف السياسي يعني الـدخول في الصراع مع الأنظمة السياسية الحاكمـة باعتبارهـا مسـئولة عن كافـة المساوئ والفساد.

أما الهدف البنـائي فيقتضـي خلافـاً لـذلك – سـواء أكـانت الغلبـة السياسية لهذا الفريق أو ذاك – أن توجه جميع الجهود إلى المجالات التي ما زالت مفتوحة أمامنا، وذلك كالعمل للدعوة إلى الإسـلام في الجماعـات غـير الإسـلامية، وتثقيـف المسـلمين، وتوحيـد صـفوفهم وإعداد كتب إسلامية بأسلوب عصري، وما إلى ذلك ... هذا يبـدو في ظاهره الاقتناع بـ "القليل" إلا أن من رضـي بالقليـل يكسـب الكثـير، ومن يطمع في الكثير في البداية فلا يحظى لا بالكثير ولا بالقيل.

إن أكبر الأخطاء التي وقـع فيهـا المسـلمون في عصـرنا الحاضـر وخاصة المثقفون منهم أن أغلبهم اتجـه لتحقيـق الهـدف السياسـي، وكان ذلك مثل إقامة بناء بدون أساس وكان من الطبيعي أن تـذهب جهودهم سدى، إنه بالرغم من الكفاح السياسي الصـاخب منـذ قـرن تقريباً نجد أن مسيرة الأمة الإسلامية لم تتقدم خطـوة، ولم يكن من نصيبها سوى تضحيات غير مجدية. إن هذا الواقع لدليل تجريـبي بـأن الهدف المذكور لم يكن صحيحاً ويجب عدم تكرار هذا الخطأ والعمل لشق طريق للجيل الإسلامي الجديد ليصل إلى غايته الحقيقية، حـتى لا يضيع في صحاري التضحيات السياسية القاحلة.

لا شـك أن الـدعوة الإسـلامية أهم خطـوة على طريـق الغايـة الصحيحة، وأعتقد أن أفضل أسلوب للاستفادة من الجيـل الإسـلامي الجديـد المتحمس للعمـل أن نوجهـه إلى العمـل من أجـل الـدعوة الإسلامية ...

إن عمل الدعوة الإسلامية يتمتع بميزتين في آن واحد :

أولاً : إنه عمـل مطلـوب من اللـه سـبحانه وتعـالى وبـه يسـتحق المسلمون النصرة الإلهية.

ثانياً : إنه يخلق وعياً جديـداً للغايـة في الجيـل الإسـلامي الجديـد، ويمكنه من أن يوجه جهوده إلى الخارج ولا يضيع طاقاته ومواهبه في الصراع السياسي الداخلي .

إن الابتعـاد عن سياسـة الصـدام والصـراع، والعمـل في ميـادين البناء يأتي بنتـائج مذهلـة، وأوضـح مثـال لـذلك مـا يقـوم بـه المركـز الإسلامي بكيغالى في رواندا ... وما حققه هذا المركز من مكتسبات عظيمة يقدم دليلاً على أن الشباب المسـلم المتحمس للعمـل يمكن استخدامه في مجالات البناء المستمر لخلق مستقبل جديد للإسلام.

في شـهر سـبتمبر من العـام الماضـي (1982م) أقمت لمـدة أسبوعين بالمركز الإسلامي بكيغالى. ووجدت أن هذا المركز يقوم – بعيداً عن أسلوب العمل السياسي – بأعمال تستحق التقـدير، وذلـك تحت إشراف عدد من الشباب العرب إن هـذا المركـز بالإضـافة إلى مـا يقدمـه من خـدمات اجتماعيـة يقـوم بنشـر الإسـلام في غـير المسلمين، ولا شك أنه حقق نجاحاً كبيراً في هذا المجال.

إنني أعتقد أن أكبر عمل نقوم به هو أن تعمم هـذه التجربـة على نطاق واسع، وذلك لإبعـاد الشـباب المسـلم عن النشـاطات السـلبية وتوجيههم إلى مجالات العمل البناء المثمر..

إلا أن تحقيق هذا الهدف يتطلب جهداً وعملاً مخططاً.

إنني أقترح أن يتم إنشـاء منظمـة دائمـة .. وذلـك بهـدف تـدريب الجيل الإسلامي الجديـد للقيـام بأعمـال بنـاءة ومثمـرة ويمكن لهـذه المنظمة أن تقوم بعملين في نفس الوقت ..

أولاً : إنشاء شعبة لتأليف ونشر الكتب الإسـلامية بأسـلوب علمي هـادف تقـوم بـالتعريف بالإسـلام الحقيقي ولا تسـتخدم التعبـيرات المتطرفة وذلـك بهـدف إبعـاد الجيـل الإسـلامي الجديـد عن سياسـة الصدام والصراع وحمله على التفكير بأسلوب بناء.

ثانياً : إنشاء معهد للتربية لإعـداد نخبـة من الشـباب المسـلم من مختلـف أنحـاء العـالم وفـق منهج تربـوي خـاص في دورات تدريبيـة قصيرة.

لقد دعا الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** ربه أن لا تسـتعمل طاقات المسلمين ضد بعضهم البعض ولكن دعاؤه هذا لم يقبل، قال الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** "سألت ربي أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها" ويتضح من ذلك أن أكبر خطر يهدد المسلمين هـو أن ينشب الصراع بينهم تحت شعار أو آخر ولذلك حول الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** حماس المسلمين للمبادرة والعمل علي شعوب غير إسلامية، لاستخدام طاقاتهم في إصـلاح هـذه الشـعوب، ولتجنب الصراع الداخلي. وكانت نتيجة ذلـك أن الإسـلام احتـل مكانـه البـارز على الصعيد العالمي وصنع تاريخاً جديداً للعالم.

إن قافلة الإسلام تقف اليوم على منعطف الطريـق ذاتـه، والـذي بإمكانه أن يكون سبباً لصنع تاريخ جديد للإسلام شريطة أن ننجح في إبعـاد هـذه القافلـة عن جبهـة الصـراع الـداخلي وتغيـير اتجاههـا إلى الميدان الخارجي والداخلي البناء.

(نقلاً عن مجلة الدعوة – عدد 925 - 16 يناير 1984 (السعودية))

البداية الصحيحة

من وجد البداية وجد النهاية

عندما ضاعت البداية الصحيحة للعمل الإسلامي ضاعت كل النتائج المأمولة، وفي هذه المرحلة التي وصلت فيها كل الجهود إلى طريق مسدود يقتضي علينا أن ننهض من أجل حمل الرسالة الإلهية على الوجه المطلوب ونترك الألاعيب السياسية قبل أن يحيط بنا الغضب الإلهي.

إن الحل الوحيد هو أن نصرف جهودنا في سبيل الله حقاً وإظهار عمل النبوة من جديد على ظهر الأرض، وفي نهاية هذا الكتاب نريد أن نتقدم للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بمشروع يتضمن خطوات عملية محددة لمعالجة الأزمة الطارئة للعمل الإسلامي في العصر الحديث، ويسعد المؤلف أن يتلقى ردوداً إيجابية من كل الذين يرغبون نصرة الرسالة الإلهية بمنهج النبوة وهدايتها الخالصة تحقيقاً لوعد الحق:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

(الأنبياء : 107)

(15) البداية الصحيحة

أولاً / إيقاظ الوعي الرباني :

لقد وضح حديث رواه ابن عبد البر حقيقة هامة وهي اختفاء العلم على مستواه الرباني وإن بقي في مستواه الظاهري (المعلومات).

عن جبير بن نفير، عن عوف بن مالك الأشجعي، قال : بينما نحن جلوس عند النبي **(صلى الله عليه وسلم)** ذات يــوم إذ نظــر إلى السماء، فقال: "هذا أوان يرفع العلم فيـه، فقـال رجـل من الأنصـار، يقال له زياد بن لبيد: يرفع عنا يا رسول الله، وفينا كتـاب اللــه، وقـد علمناه أبناءنا ونساءنا، فقال رسول الله: إني كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، وذكر لـه ضـلالة أهـل الكتـاب وعنـدهم مـا عنـدهم من كتاب الله" فلقى جبير بن نفير شداد بن أوس بالمصلى، فحدثـه هـذا الحديث عن عوف بن مالك فقال : صدق عوف، ثم قال شـداد: هـل تدري ما رفع العلم ؟ قلت لا أدرى. قـال: ذهـاب أوعيتـه. قـال : هـل تـدري أي العلم يرفـع؟ قلت لا أدري. قـال : الخشـوع حـتى لا يـرى خاشعاً.

(جامع بيان العلم وفضله 1 / 184)

إن غاية الهداية القرآنية هي تزكيـة العقـل، ليكـون على اسـتعداد كامل للعمل الصالح، وكل عمـل من الأعمـال الصـالحة أثـر من آثـار العقل الخاشع وهو الوعـاء الحقيقي للعلم الربـاني، فـالعلم لا يختفي باختفـاء الـوحي لأن اللــه قـد تعهـد بحفـظ كتابـه القـرآن كـاملاً من التحريف، ولكن اختفاءه يتم في نفسية الـذين يرثونـه وهـذا معـنى : "ذهاب أوعيته". فليس اختفاء العلم إلا فقدانه على مستوى الخشوع "حتى لا يرى خاشعاً".

وتجديد الدين لا يبدأ من الخارج بل يبدأ من داخل النفوس بإيقاظ إحساسها بالحقيقة الأبدية وعدم بناء وعيها على أساس الأماني الفارغة والوعي الزائف :

﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

(النساء : 123)

إن بناء وعي غير زائف بالدين لا يمكن إلا عن طريق التفكير والتدبر في كتاب الله، وسنة رسوله **(صلى الله عليه وسلم)** في جو حر يعتمد المشاركة ليساعد العقل على النمو. لأن أساس الانحراف ينشأ في جو الجمود العقلي، وهو ناجم عن أسلوب التلقين والحفظ بدون تدبر، وأخذ المعلومات بدون الإحساس بها، كما يحدث في المؤسسات الدينية التربوية التقليدية، وأخطر من ذلك أن تكون المواد المقدمة للتربية نفسها غير مفيدة، وغير علمية، كما هي شأن تلك العلوم التي تركز على المسائل الخلافية، واستفراغ الجهد في كتب الفروع ذات الطابع الفني، والقياسي، مما جعل المتأثرين بهذا المنهج يفقدون روح الهداية القرآنية، فظهر الدين عندهم على مستوى القسوة، ونتيجة هذه القسوة يتحول الدين من رسالة تعتمد الحوار العقلي، إلى محكمة تعقد للحكم والإدانة، ومن خطاب للعقل والفطرة إلى خطاب يغذي العواطف السلبية، ومن دعوة للوحدة والتضامن والتآلف إلى دعوة للتمزق والتشرذم والخلاف.

وبدلاً من أن يرشد العقل العاطفة الدينية ويرسم لها طرق التعبير، والسلوك الصحيحة يتحول العقل أسيراً لعاطفة عمياء وسطحية في معظم الحالات.

والاغتراب مجال رحب لظهور وعي زائف بالدين، ذلك الدين الذي يقدم في شكل خرافي وقائم على الأماني والأوهام، وليس على الحقيقة والعقل .وحين يصل الأمر إلى هذا الحد يتحول الدين كأداة لعاطفة سلبية يقوم على التعصب. وما هو التعصب ؟ إنه قبول فكرة على أساس غير عقلي وحقيقي، ويتحول الدين الذي أخذ على

المستوى اللاعقلي مدعاة لأعظم انحراف فهو لم يتكون في الـوعي بطريق التفكير، والإيمان بدون تفكير يظهر في صورة عنف وقسـوة لأن ضياء الإيمان ونوره هـو التفكـر. وإيمـان الـدعاة على الخصـوص يقتضي أن يكون على مستوى التفكير لا التقليد.

والخطـوة التاليـة الـتي يقتضـي اتخاذهـا (وهي خطـوة تربويـة بالدرجـة الأولى) تتمثـل في تعميـق الـوعي الـديني، لأن المسـتوى السطحي للوعي هو الذي أنشأ أزمة فهم وتطبيق الـدين في العصـر الحديث، والأسلوب الأمثل، لذلك هو إعادة الاعتبار الرئيسي لدراسـة القرآن والسيرة وتعاليم الرسول وحياة الصحابة الأبرار، رضوان الله تعالى عليهم، وجعـل هـذه المصـادر هي المنبـع الحقيقي لـدين اللـه، بالإضـافة إلى ذلـك إدخـال مـادة طـرق البحث والمنـاهج العمليـة المعاصرة ومـادتي علم النفس والتربيـة، ودراسـة التوحيـد من خلال العلـوم الحديثـة بـدلاً من علم الكلام القـديم ويقتضـي أن يكـون القائمون على تدريس مادة التربية الدينيـة، من ذوى العقليـة الدينيـة العميقة والقادرين على التفكير العملي الإيجابي، وممن يمكنهم الـرد على التساؤلات المثارة والمتعلقة بقضايا وتحـديات العصـر الحـديث، وإعداد بحوث ودراسات في هذا المجال. إن أزمة التعليم الديني في الوطن العربي ناجمة عن أسلوب التدريس، وكذلك من نوعية المادة المقدمـة، فأسـلوب التـدريس الـذي لا يعتمـد المشـاركة والحـوار لا يمكنه أن ينجب عقولاً حية قادرة على التدبر والتفكير المستقل وهذا الأسلوب هـو نفسـه الـذي تسـلكه الجماعـات الدينيـة المغلقـة الـتي تستغل العاطفـة لاسـتهواء العقـول واسـتغلال روح النقمـة وظـروف الاغتراب الاجتماعي والحضـاري لتـدفعها في طريـق مسـدود وهي لا تريد أن تعتبر أنه ليس بطريـق الرسـول نـبي الرحمـة **(صلى اللـه عليه وسلم)**.

أما السبب الثاني، فيكمن في نوعية المـادة المقدمـة في مجـال التربية الإسلامية، فهي مادة في معظمها خالية من المعاني الحقيقة، وإما في أسلوب قياسي فني عقيم فارغ، وهو الأسـلوب الـذي دونت

فيه العلوم الإسلامية في العصور المتأخرة، وفي الحالة الثانية تكـون المادة في أساسها ذات أسلوب إنشـائي عـاطفي، وبلاغي أدبي، مـع أنهـا تتعامـل مـع حقـائق دينيـة في حاجـة إلى إظهارهـا في أسـلوب علمي حقيقي، وهو ما يعصم من الانحراف بها عن هدفها، وفي النوع الأخير ظهرت المشكلة على أعلى مستوياتها في الأشرطة العاطفية التي توزع سراً وجهراً، وتقدم دين الله في شكل حماسـي يقـع تحت تأثيره النشء في مقتبـل أعمـارهم عنـدما تكـون حساسـيتهم فائقـة للمثل العليا فيكون هذا التـأثير فيهم دافعـاً لهم إلى المبـادرة للعمـل بدون تفكير، ونتيجة لصدقهم يدفعون حياتهم ثمناً لـذلك بينمـا أولئـك الذين ملئوا تلك الأشرطة يعيشون متنعمين في ظل المكانـة الدينيـة التي أوجدتها الكتابات الإنشـائية أو الأشـرطة العاطفيـة الفارغـة من الحقيقة والهدف الصحيح.

إن أهم مسؤولية تقع على علماء الإسلام، ودعاته هي في تبصـير الشـباب بمغبـة الطـرق الـتي يسـلكونها، لإقامـة الـدين، والخطـوة العملية هي تقديم مادة علمية في مجال الـدين تعتمـد على الحقيقـة والنصيحة الصادقة وإلا فإن مستقبل الإسلام في الأرض سيدفع ثمنـاً باهظاً مقابل الأعمال التي تقوم عقبـة في سـبيل انتشـاره، فبسـبب تلـك الأعمـال يحـرم المسـلمون الـدعاة منهم على الخصـوص من الظـروف المواتيـة للقيـام بواجبـاتهم ويـتيح ذلـك الوضـع في نفس الوقت لسلطة إبليس أن تنتعش بسبب حماقة الذين يعملـون بـدون عقل وبدون مصداقية شـرعية وعمليـة وبـدون فهم لظـروف العصـر لأن سلطة إبليس على الإنسان تنشأ عندما يسود التعصـب، وانعـدام التسـامح وقطـع الحـوار بين الداعيـة والمـدعوين، وتذكيـة الكراهيـة والنزعـة العدوانية، باسـتغلال العواطـف الدينيـة عن طريـق القـدوة المزيفة، التي تنشأ نتيجة الانخداع بالمظهر الديني الخارجي، وفقدان القدرة على التفكير، واستخدام العقل في تبصر، واستقلالية.

كل ذلك يجعـل من الأباطيـل حقـائق ومن الحقـائق أباطيـل لمن ينساق بدون تبصر وراء دين الأماني، والأوهام الذي ينشأ من نفسـية

الفخر وتعظيم النفس بدلاً من دين التواضـع وتعظيم الخـالق وحـده، ويقدم اليهود أسوأ مثل على الأسلوب الخاطئ لفهم وتطبيق الـدين، ويقـدم صـحابة رسـول اللـه أروع مثـل، وأصـح طريـق، لفهم الـدين وتطبيقه، ولهذا جعل الله إيمان الصحابة مثلاً أعلى للإيمان :

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَـدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(البقرة : 137)

إن تقويض سلطة إبليس لا يتم إلا عن طريق زرع روح التسـامح، ليقوم الدين على أسـاس النصـيحة لا التكفـير، والتفكـير لا التعصـب والـدعوة لا الخصـومة السياسـية، والحـوار لا الإرهـاب، والتواضـع لا الفخر، إن هذا الأسلوب سـوف يظهـر عمـل النبـوة ويعطيـه مكانتـه اللائقة به كرسالة لإنقاذ الناس من النار ورحمة لهم، وتلك هي خطـة الله الدائمة، ولا ريب أن غضب الله سـيحيط بنـا لـو انشـغلنا بمنتهى الحماقـة في المعـارك السياسـية ضـد الأنظمـة السياسـية بـدلاً من القيام للعمل في مجال الدعوة إلى الله على منهج القرآن :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَـوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِـلَ صَـالِحًا وَقَـالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33)ـ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّـيِّئَةُ ادْفَـعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34)ـ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35) ﴾

(فصلت : 33 – 35)

بالإضـــافة إلى هـــذا الخطـــأ، نجـــد أن المفكـــرين المســـلمين المعاصـــرين أو زعمـــاء الحركـــات الإســـلامية الحديثـــة، لم يراعـــوا التطورات الحديثة الـتي وقعت لأول مـرة في التـأريخ البشـري وهي غلبة الفكر المادي والعقلية الإلحادية، إذ ظنوا أن سيطرة الدين على عقولهم كافياً لتطبيقه كنظام حضاري، ولم يتـبينوا أن هـذا الهـدف لا يمكن إتمامه في ظـل غلبـة الحضـارة الماديـة الحديثـة، وإنمـا الأمـر يتطلب إنهاء عهد تاريخي وبدء عهـد آخـر وإحلال الحضـارة المغلوبـة محل الحضارة الغالبة، والحقيقة أن الله قد رتب كل الأحوال لظهـور الإســلام مــرة أخــرى عن طريــق ســيادة التفكــير العلمي، وتأييــد

الكشوفات العلمية لقضية التوحيـد، ولم يكن المسـلمون بحاجـة إلى معجزة أكثر من معجزة الصمت والأعراض عن الفتن السياسية كليـاً لتظهـر كـل إمكانيـات وفـرص انتشـار الإسـلام في المعمـورة ولكن المأساة المحزنة أن الحركات الإسـلامية المعاصـرة عملت ضـد كـل الفرص والإمكانات، ولم تبصر خطـة اللـه وتـدبيره الحكيم وانطلقت من عاطفة سلبية وتخطيط تقليدي لتقحم الإسلام في معـارك زائفـة وتدفعه إلى مواجهة الظروف الصعبة نفسها التي قضـى عليهـا جهـاد الرسول والصحابة في بدء الإسلام، وصارت السلطات في كل مكان تنظر إليه في المنظور السياسي باعتباره عامل معارضة أو إرهاب لا عامل سلم : "الإسلام = الإرهاب".

إنه وفي نفس اللحظات الـتي وصـل فيهـا التطـور التـأريخي إلى منتهـاه وفتح لنـا آفاقـاً للـدعوة انشـغلنا بمنتهى الحماقـة في حـرب سياسية لن يخرج المسلمون منها بنتيجة ما دينياً أو دنيوياً. إن البديل الوحيد لتلافي هـذا الخطـأ هـو أن نـترك الألاعيب السياسـية بصـورة كاملة ونبدأ على الفور بالعمل على إبلاغ رسالة القـرآن والسـنة إلى سكان المعمورة لتأدية واجباتنا (كشهداء على الناس).

ثانياً / روح الحديبية :

إن الدعوة ليست نشاطاً جامـداً وسـلبياً كمـا يظن معظم النـاس إن الدعوة هي في جوهرها عملية إيجابية من كل الوجوه فهي عملية سلمية لأن في العملية السـلمية يكمن انتصـار الإنسـان على نفسـه، وعندما ينتصر الإنسان على نفسه يقضي بصـورة تلقائيـة على كافـة الشرور الخارجية الناجمة من الغضب وردود الفعل وبهذا فهـو يطفئ النـار الـتي يوقـدها الشـر بسـبب أو آخـر : إن الحـرب الـتي أوقـدها التعصب وذكاها إبليس على الرسول وأصحابه واضطر فيها الرسـول وأصـحابه إلى أخـذ موقـف القـوة والمواجهـة الجريئـة، وهي خطـوة سليمة من كل الوجوه ، هذه الحرب قد انتهت في (الحديبية) عندما أدرك الرسول إمكانيات جديدة لم تكن قد ظهرت من قبل في بدر – والخندق وهي إمكانية السلام. وكـان عقـد ذلـك الاتفـاق مـع قـريش

فتحاً مبيناً لأنه قد استنفد التعصب قـواه الحيوانيـة وبـدأت المعركـة مفتوحة في نطاق آخر نطاق الدعوة السـلمية وهي المجـال الـذي لا ينافس – لأن سلاحها الحقيقي أقوى من أسـلحة الحديـد والنـار وهـو سلاح الفطرة والعقل والقرآن – فمن يكون لـه قـدرة ومعرفـة على استعمال هذه الأسلحة يستطيع أن يقهر كل قوة، ولذلك كـان أعظم فتح الإسلام هو فتح الدعوة وليس فتح القوة :

إن درس الحديبية الذي قدمه لنا الرسـول الكـريم **(صـلى اللـه عليه وسلم)** في السنة السادسة للهجرة هو الحل الأمثل لقضـايانا الداخلية والخارجية فعلى المستوى الداخلي نـرى أن توفـير الفـرص للشـباب والنشـء الجديـد في مختلـف مجـالات العمـل والأنشـطة والتعليم هم أهم وسـيلة لتقليل المشـكلات الناجمـة عن الظـروف القائمة في معظم أقطار الوطن العربي والعـالم الإسـلامي، فعنـدما تموت المشكلات الاقتصادية والاجتماعية عن طريق تحسـين وتوفـير الفرص سوف يجـد الشـباب المتحمس مجـالاً لتصـريف طاقاتـه في البناء والتعمـير بـدلاً من العنـف والتخـريب. لقـد طبقت اليابـان بعـد الحرب العالمية الثانيـة روح الحديبيـة بعـد هزيمتهـا السـاحقة، وكـان الشباب الذي غذيت فيه الروح القتالية في الحرب أكـبر مشـكلة لهـا لأن الروح القتالية إذا لم تجد مجالاً خارجياً لتصـريف طاقاتهـا تتحـول إلى الـداخل في حركـات عنـف وتـدمير وتخـريب واختـارت اليابـان طريقـاً إيجابيـاً وهـو فتح الفـرص أمـام الشـباب في مجـالات البنـاء والتعمير الاقتصادي والصناعي واهتمت بالتعليم بالدرجة الأولى حـتى إنها وضعت مخططاً لذلك لتجلب أفضل الكفاءات العلمية إلى حقـل التعليم بـأن منحت المدرسـين مرتبـات الـوزراء وأعطتهم صـلاحيات واسعة وفتحت باب المنافسة على مصراعيه أمام الطلبة المتفـوقين وفي خلال ربع قـرن فقـط أعـادت هـذه الخطـة اليابـان إلى مصـاف الدول الكبرى وهذه المرة ليس عن طريق الحل العسكري بل الحل الصناعي والاقتصادي وهي قوة العصر بل لا يمكن أن تقوم أية قـوة بدون هذه الدعامة.

ثالثاً / تبين خطأ التفسير السياسي للدين:

إن خطورة التفسير السياسي للدين في العصر الحـديث جعـل – الإسلام – يواجـه للمـرة الثانيـة وضـعاً حرجـاً بعـد أن زالت العقبـات القديمة بفضل جهاد الرسول والصحابة وهـذا الوضـع الحـرج الجديـد نلمسه في تخوف الدول والحكومات الإسـلامية وغـير الإسـلامية من الإسـلام السياسـي حيث أصبح في نظـرهم يمثـل وجهـاً للمعارضـة والخصومة السياسية إن لم يكن الإرهاب، فإذا قام فرد أو جماعة مـا من أجل الـدعوة للإسـلام أو الإصـلاح الـداخلي فسـرعان مـا تراقب السلطات القائمة نشاطه وقد تقـوم باعتقـالهم، والسـبب يرجـع إلى الخلفية الجديدة التي كونها الصدام مـع السـلطات السياسـية باسـم إقامة الدين وهو النهج الـذي سـلكته الحركـات الإسـلامية المعاصـرة في كل مكان. ولقد نتج من هـذا أيضـاً تضـييع كـل الإمكانـات الغنيـة والمدهشة التي أوجدها العصر الحديث لنشر رسـالة الإسـلام، وبـدلاً من الاسـتفادة من هـذه الإمكانيـات قـام الزعمـاء المسـلمون في العصر الحاضر بتضييعها، ولم تستفد منهـا سـوى الحركـات المعاديـة للإسلام حيث كانت تخطط وفق مقتضـيات العصـر الحـديث فنجحت جهودها في توطيد أفكارها وأديانها على امتداد القارات ويكفي مثـالاُ على ذلك نجاح حركة التبشير المسيحي.

وعلى سـبيل المثـال ورد في دائـرة المعـارف المسـيحية أن الكنيسة المسيحية أنفقت عام (1985) فقط مائة وسـبعة وعشـرون بليون دولار في نطاق نشـاطها التبشـيري في العـالم وذكـرت دائـرة المعـارف المسـيحية أيضـاً أن الكنيسـة المسـيحية تصـدر (21,000) دوريـة منشـورة على ورق ممتـاز وطباعـة راقيـة وتبث برامجهـا من خلال (1580) محطـة إذاعـة مرئيـة ومسـموعة وقـامت بتوزيـع (64) مليون نسخة من الأناجيل عام (1984) فقـط وأن عـدد الـذين دخلـوا في المسـيحية في العقـود السـبعة الأخـيرة (115,900,000) نسـمة وكان لهـا عـام (1985) ربـع مليـون مبشـر في أفريقيـا وآسـيا فقـط يتبعون (3500) منظمة يساعدهم ثلاثة مليون ونصف مسـاعد مبشـر

من السكان المحليين وهكذا يتبين أنه لا وجه للمقارنة بين وعي الكنيسة المسيحية بالوسائل العصرية لنشر تعاليمها وبين وعي الحركات الإسلامية التي رصدت كل نشاطها في الجبهة السياسية وليس هناك وجه للمقارنة بين نوعية التمويل الذي يقدمه المسيحيون دولاً وأفراداً للكنيسة ومستوى التمويل الذي يقدمه المسلمون على مستوى الدول أو الأفراد لرسالة الإسلام بل إن الأمر أشد خطورة إذ أن مصارف الغرب تكنز مليارات الدولارات للأفراد والدول الإسلامية، ولا ينفق منها شيء في سبيل الله، فهل يا ترى ستنفع هذه الكنوز أصحابها في الآخرة عندما يحيط بهم وعيد الله الرهيب :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

(آل عمران : 180)

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (35)﴾

(التوبة : 34 – 35)

وبأي حق ننتظر نصر الله ونحن نبخل على دينه ورسالته بما يجود به أهل الباطل على أديانهم وكيف ننتظر نصر الله ونحن نضيع أموالنا في الترف واللهو ولا ننهض من أجل دفع الثمن الغالي من أجل نشر دين الله في الأرض، بل إن واقع الحال يدل على أننا قد نزل بنا الغضب الإلهي بسبب تخلينا عن رسالة الدعوة وانشغالنا بالمعارك السياسية الطاحنة بيننا وتضييع أموالنا في اللهو والترف.

رابعاً / منظمة عالمية للدعوة :

إن الاقتراح الرابع والأخير هو الاقتراحات التي أشار إليها الداعية الإسلامي (وحيد الدين خان) في شأن تعميم تجربة المركز الإسلامي بكيغالى.

(أنظر المقالة السابقة : على طريق تاريخ جديد)

إذ يقول : "إنني أعتقد أن أكبر عمل نقوم به هو أن تعمم هذه التجربة على نطاق واسع. وذلك لإبعاد الشباب المسلم عن النشاطات السلبية وتوجيههم إلى مجالات العمل البناء المثمر إلا أن تحقيق هذا الهدف يتطلب جهداً وعملاً مخططاً ... إنني أقترح أن يتم إنشاء منظمة دائمة وذلك بهدف تدريب الجيل الإسلامي الجديد للقيام بأعمال بناءة ومثمرة ويمكن لهذه المنظمة أن تقوم بعملين في نفس الوقت :

أولاً : إنشاء شعبة لتأليف ونشر الكتب الإسلامية بأسلوب علمي هادف تقوم بالتعريف بالإسلام ولا تستخدم التعبيرات المتطرفة وذلك بهدف إبعاد الجيل الإسلامي الجديد عن سياسة الصدام والصراع وحمله على التفكير بأسلوب بناء.

ثانياً : إنشاء معهد للتربية لإعداد نخبة من الشباب المسلم من مختلف أنحاء العالم وفق منهج تربوي خاص في دورات تدريبية قصيرة.

ثالثاً : تأسيس (مركز إسلامي عالمي للدعوة الإسلامية) يقوم بتنفيذ التخطيط لحركة الدعوة على أعلى مستوى عصري شريطة أن يكون مستقلاً على أي نفوذ سياسي وأن يبتعد كلياً عن ممارسة العمل السياسي لكي يقوم بنشاطاته الجبارة بدون عقبات محلية أو دولية..

"لقد أنشأ المبشرون النصارى مراكز لتبليغ دينهم يضم كل مركز منها مساحات عظيمة شاسعة. يمتلكون فيها محطة للإذاعة ومجموعة من الطائرات وجامعات بداخلها وما دمنا لا نؤسس مركزاً عالمياً على هذا المستوى وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجد عذراً نقدمه أمام الله في تقصيرنا في تقديم وتبليغ دعوة الحق. يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة تجهز بأعظم الوسائل اللازمة للنشر والتوزيع تمتلك جامعتها الخاصة بها ومكتبتها

الكاملة، وتمتلك هيئة كاملة تختص بالبحث والتأليف وداراً للنشر بكل اللغات ويجب أن تتوفر لها محطة للإذاعـة وعـدد من الطـائرات، أي يمكن أن نسـتفيد من جميـع مـا هـو على أرض اللـه ومـا يمكن الاستفادة منه في سـبيل نشـر الـدين. هـذا مجـرد حلم إلا أن الكـنز الذي فتحه الله على المسلمين جعل من السـهل عليهم إنشـاء مثـل هـذا المركـز، إذ أن قليلاً من الوسـائل المتـوفرة حاليـاً يكفي تمامـاً لإقامة مثل هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى.

وأهم هـدف للمركـز هـو إعـداد أفـراد على أسـاس مقتضـيات ومسـتلزمات العصـر الحـديث ولا يمكن أن يتحقـق هـذا عن طريـق معسكرات التربيـة المعروفـة حاليـاً بـل يسـتلزم الأمـر جامعـة على أحـدث أسـلوب وطـراز وأن تشـرف على أبحـاث عظيمـة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التي تتعارض مع الإسلام".

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المذهلـة من أجل تربية دعاتهـا وأنفقت الآلاف من الـدولارات، ومنـذ عشـرين سنة وجّه الداعية وحيـد الـدين خـان نـداءً للأمـة الإسـلامية من أجـل إقامة مشروع المركز الإسلامي العالمي للدعوة وحتى هـذه اللحظـة لم ينهض أحد لتلبية هذا النداء مع أنـه في نفس الـوقت قـد صـرفت الملايين من أجـل شـراء جـزر في بلـدان الغـرب لإقامـة مشـاريع للشيطان.

(كلمة أخيرة)

حين جمع الرسول **(صلى الله عليه وسلم)** لأول مـرة قومـه ونادى فيهم بمقولته المشهورة : "أنقذوا أنفسكم من النار" انبرى له عمه أبو لهب قائلاً : "تباً لك ألهـذا جمعتنـا !". فقـد كـان موقـف أبي لهب يعبر عن الاستهانة التامة بالأمر الذي جمع له رسول الله قومـه وهو "إنقاذ الناس من النـار" فـنزل القـرآن مباشـرة يتوعـد أبـا لهب بالهلاك :

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد : 3)

وهـذا الـدرس عـبرة لمن يسـتهين بقضـية الآخـرة الـتي هي أهم قضية ولخطورتها أطلق عليها القرآن اسم "النبأ العظيم" :

 قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ (67) أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (68)

(ص : 67 – 68)

بل ليس أمامنا لنيل نصرة الله الموعودة في القرآن :

 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ

(محمد : 7)

إلا توجيه جهودنا المتاحـة لمسـؤولية الـدعوة ونشـر الإسـلام بين الشعوب والأمم في كل مكان لإتمام الشهادة وإقامـة الحجـة عليهم. أما الانشغال عن هذه المسـؤولية فسـوف لن يفيـدنا شـيئاً، وسـوف تحيط بنا خسارة الدنيا والآخرة. ومن يتأمل أحوال زعماء المسـلمين وجهودهم خلال السـنين الماضـية يجـد أنهـا قـد صـرفت في ميـادين السياسة الحزبيـة أو الخصـومات الفقهيـة والكلاميـة، أو نشـر البـدع والخرافات الطرقية. بينما لم تنل الدعوة الحقيقية للإسـلام اهتمامـاً يذكر عندهم بل تركوا ساحة الدعوة لدين الحق خاليـة أمـام دعـوات الباطـل، فنجحت جهـود أعـدائهم وفشـلت جهـودهم. وعلى سـبيل المثال :

منذ مائة وخمسين عاماً فقط نشـطت جهـود التبشـير المسـيحي في أفريقيا واليوم يبلغ عـدد المسـيحيين في أفريقيـا أكـثر من مائـة وعشرين مليون نسمة حتى أصبحت المسيحية ظـاهرة أفريقيـة كمـا وصفها أحـد المبشـرين بعـد أن كـانت مقتصـرة على عـدد قليـل من الـبيض. وظهـرت عـدد من الـدول المسـيحية الـتي تكـونت بجهـود التبشـير مثـل : روانـد وزائـير وبورنـدي وأوغنـدا وملاوي وزامبيـا وكينيا .... وغيرها.

كما تُـرجم الإنجيـل إلى أكـثر من أربعمائـة لغـة أفريقيـة محليـة. وتعمل مراكز التبشـير المتعـددة لتحويـل البقيـة من الوثنـيين – وهم أكثر من مائة وعشرين مليون نسمة – إلى المسيحية، وتتنافس كافة البعثات النصـرانية في سـبيل هـذا الهـدف ليلاً ونهـاراً. وينفقـون في

سبيل ذلك الأموال الطائلة مستفيدين من وسائل العصر الحديث، فكانت أعمالهم تتقدم بالسرعة نفسها التي يتسم بها هذا العصر فهم يستخدمون أغلى الوسائل، فلهم مطارات، وطائرات خاصة مجهزة للعمل في المناطق النائية كالمناطق القطبية ولهم مطابع في كل مكان لطبع ونشر تعاليم الإنجيل بكل لغات العالم، وإذاعات تبث برامجهم بكل اللغات، هذا فضلاً عن مراكزهم الثقافية والاجتماعية ومؤسساتهم التعليمية المنتشرة في كل مكان لتخريج الدعاة وإعدادهم ونشر الأفكار. وتمثل حركات التبشير آلاف المنظمات الدولية التي تعمل وفق قوانين واتفاقيات دولية تنظم أعمالها، وليس لدينا نظير لهذه المؤسسات في العالم الإسلامي. ولا نملك الوعي الكافي للعمل في ميادين الدعوة، ولا نستفيد من وسائل وإمكانيات العصر لنشر الإسلام.

فجهودنا تحرث في صحراء السياسة القاحلة أو المجادلات الفقهية والكلامية. والحقيقة أن الدعوة إلى الإسلام ونشره بين غير المسلمين هو العمل الوحيد الذي لم ينل بعد اهتماماً يذكر عند القيادات الإسلامية مع أن نصرة الله لهذه الأمة متعلقة بتأديتها هذا الواجب الأساسي الهام.

فلو صرفت جهودنا في سبيل الدعوة لكانت البدء في إحياء رسالة الإسلام, وإظهار عمل النبوة من جديد على وجه الأرض. وهو سبيل نصرة الله الموعودة في القرآن، والسبيل الوحيد لإعادة سيادة الإسلام من جديد وإظهار دين الله على المستوى العالمي تحقيقاً لوعده الصادق :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾

(الفتح : 28)

نصرة الله

لقد تعهد الله بنصرة الذين آمنوا في الدنيا والآخرة بصورة قاطعة :

 إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51) يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (52)

(غافر : 51 – 52)

إن الله عندما تعهد بنصرة رسله والذين آمنوا بهم ونصروهم، أعطى بذلك أعظم دليل على توليه بصورة مباشرة قضية الدعوة إلى دينه وتبليغ رسالته وجعلها أساس العصمة لرسول الله ومن تبعه في هذا العمل:

 يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ

(المائدة : 67)

فالدعوة إلى دينه أهم عمل في نشاط المؤمنين أتباع الرسول بعد إقامة التوحيد في نفسهم، وهي العمل الذي ينالون به النصرة الدنيوية والأخروية وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ والدعوة هي العمل الذي يحرك نصرة الخالق سبحانه وتعالى وعندما يصل الأمر إلى خطورته القصوى على المسلمين كما هو الحال الآن فليس أمامهم إلا المبادرة إلى نصرة الله : إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ

(محمد : 7)

ونصرة الله لها شواهدها وأدلتها القرآنية من حياة الرسل وأتباعهم ومن يقوم بعملهم إلى يوم القيامة. والمقصود أن سبب الفتح والنصر له جانبان جانب من قبل المؤمنين بأن يكونوا على أعلى مستوى من الإيمان والاتحاد والتضامن وإعداد القوة المرهبة والقيام في نفس الوقت بنصرة دين الله النصرة اللائقة به في هذا العصر بأن تدفع الأمة جزءاً من إمكانياتها الاقتصادية النفطية وغيرها

التي حباها الله بها في سبيل نشر دينه وإعلاء كلمتـه في الأرض هـذا من جانبها ومن جانب الله وعده الحق:

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(الصف : 13)

أهم المصادر والمراجع للبحث :

- القرآن الكريم.
- ابن الأثير الجزري.
- جامع الأصول في أحاديث الرسول – تحقيق عبد القادر الأرناؤوط نشر دار البيان القاهرة 1969 م.
- تقي الدين أحمد ابن تيمية.
- مقدمة في أصول التفسير – تحقيق عدنان زرزور، بيروت مؤسسة الرسالة 1972 م.
- منهاج السنة، ط الأولى، القاهرة.
- رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – تحقيق صلاح الدين المنجد – ط (1) بيروت دار الكتاب الجديد 1976 م.
- اقتضاء الصراط المستقيم – مطابع المجد التجارية – السعودية رسالة العبودية : دار الكتب العلمية ط (1) بيروت 1981 م.
- الإيمان : نشر المكتب الإسلامي – دمشق.
- ابن عبد البر : جامع بيان العلم وفضله – جزءان – دار الفكر – بيروت.
- ابن القيم الجوزية.
- أعلام الموقعين : تحقيق عبد الرؤوف – دار الجبل – بيروت – 1973 م.
- ابن منظور : لسان العرب، طبعة دار صادر – بيروت.
- أبو داود : السنن، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط 2 مطبعة السعادة القاهرة 1950 م.
- الشاطبي : الموافقات الأصولية، ط 2 – دار المعرفة بيروت 1975 م.
- الطبري، محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل أي القرآن، تحقيق أحمد شاكر – ط الأولى – دار المعارف – مصر 1969 م.

- الصابوني : محمد علي :
- مختصر تفسير ابن كثير– دار القرآن الكريم بيروت 1981م.
- صفوة التفاسير (ط 4) دار القرآن الكريم – بيروت 1981 م.
- أبو الأعلى المودودي :

1- موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه : ط 3، دار الفكر الحديث، بيروت – 1968 م.

2- المصطلحات الأربعة – الناشر – دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، مصر.

3- نظرية الإسلام وهديه : تعريب جلال حسن الإصلاحي دار الفكر 1967 م.

- وحيد الدين خان :

1-قضية البعث الإسلامي – دار الصحوة – القاهرة – ط (1).

2-حكمة الدين – دار المختار الإسلامي – القاهرة ط.

3-واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام – دار الصحوة – القاهرة – ط (1).

4-التفسير السياسي. مكتبة الرسالة – دلهي – ط (2).

5-خطأ في التفسير. مكتبة الرسالة – دلهي.

6-الإسلام : مكتبة الرسالة – دلهي – ط (2).

7-إحياء الإسلام : مكتبة الرسالة – دلهي – ط (1).

8-الدعوة الإسلامية – مكتبة الرسالة – دلهي.

****

تم بحمد الله

****

محتويات الكتاب

التعريف بالمؤلف

محمد سليمان القائد

من مواليد 1949م، بمدينة يفرن، وهو من أهل الثقافــة والكتابــة، وكان خطيباً يؤم المصلين في صلاة الجمعة في أحــد مســاجد مدينــة طرابلس في التسعينات. وله كتب عدة في الفكر الإسـلامي، بعضـها نشر وبعضها لم ينشر.

كــان محمــد ســليمان القائــد داعيــاً إلى اللــه بالحكمــة والكلمــة الحســنة، وغــاب في غيــاهيب الســجن عــام 1991م، ونحســبه أحــد الشهداء في مذبحة أبو سليم 1996م.

وكــان رجلاً نــبيلاً وذمث الخلــق قــال صــديقه وزميلــه الكــاتب المعروف الدكتور أحمد إبراهيم الفقيه، في رثائه: (الكـاتب والمفكـر

والإنسان الجميل الخلوق الهادي والورع محمد سليمان القائد كان واحداً من ضحايا مذبحة أبو سليم ... إن الراحل رجل من أكثر من رأيت من البشر نبيلاً وسلاماً وجمالاً إنسانياً ولطفاً وعذوبة، حتى صوته لا يكاد يخرج من بين شفتيه إلا همساً، ولا أراه إلا والابتسامة تغطي وجهه، ولم أسمع منه يوماً كلمة نابية أو كلمة شكوى أو ضيق من زميل رغم ما كانت تملأ أجواء العمل من مشاحنات وخصومات، إلا محمد سليمان القائد الذي كان أشبه بأنسام هادئة عطرة عبرت هذه الحياة، رضوان الله على روحه).

قال عنه أستاذه العلامة وحيد الدين خان: (كان رجلاً ذو نوعيةٍ وكفاءة فريدة، فهو ليس بالرجل العادي لقد ولد بنفسية أستثانية وكان شخصاً على قدرٍ عالٍ من التعليم .. لقد كان رجلاً فذاً وعجيباً..).

سيرته العملية /

- ليسانس آداب لغة عربية / جامعة بنغازي.
- دبلوم عام في الدراسات الإسلامية / كلية التربية / جامعة طرابلس.
- ماجستير آداب لغة عربية / جامعة الخرطوم عام 1984م.
- رسالة الدكتوراه في (الطاغوت) توقفت بسبب اعتقاله.

الخبرات العملية /

- باحث ومحرر صحفي في شئون الفكر والحضارة الإسلامية 73-79م، نشر خلالها عشرات الدراسات والمقالات في الفكر والحضارة الإسلامية.

- مدير المركز الثقافي الإسلامي بالنيابة في روانـدا (79م-82م)، تم مدير الإدارة الثقافية بالمركز المذكور 83م إلى 86م. وقد مـارس نشاط الدعوة خلال عمله بالمركز وكـان سـبباً في اعتنـاق عشـرات الآلاف للإسلام في رواندا.

- اسـتاذ جـامعي ومؤسـس ورئيس قسـم الدراسـات الإسـلامية بالجامعة المفتوحة طرابلس.

ومن أهم الأنشطة التي تولاها خلال فترات نشاطه:

1- رئيس تحرير مجلة الرسالة التي تصدر باللغة العربيـة والكينيـة في رواندا للتعريف بالإسلام.

2- تدريس مواد التربية الإسلامية بمعهد المركز.

3- إعداد مناهج التربية الإسلامية بمدارس المركز.

4- الإشــراف على رســالة المســجد ورســالة الــدعوة والــدعاة والمعلمين الدينيين ومتابعة نشاطهم لنشر الثقافة الإسلامية وتعميق الوعي الديني.

4- الإشراف على مكتبة المركز والمساهمة في إعداد الدراسـات والبحوث والمحاضرات والندوات واللقاءات الدينية المختلفة.

5- مؤسس ورئيس قسم الدراسات الأسلامية بالجامعة المفتوحة 1988 حتي 1991م.

- إضافة إلى اللغة العربية يتحدث اللغتين الإنجليزية والفرنسية.

من أهم أعماله الفكرية:

- كتاب منهج الهداية .. طبع في القاهرة 1991.

- دراسـة حـول دخـول الإسـلام إلى روانـدا نشـرت بمجلـة كليـة الدعوة 1991م.

- سلسلة رسائل وكتيبات إسلامية نشرت بالقاهرة 1991م.

- سلسلة من الأشرطة والمحاضرات حول الوعي الفكري الديني.

كتب أعدها ولم تنشر:

- كتاب التربية القرآنية.
- كتاب وثائق حضارية.
- كتاب رسالة الإيمان.
- مقدمة في علم التفسير.
- رسالة الطاغوت.
- مجموعة رسائل فكرية.

رحم الله الفقيد ووهب أهله جميل الصبر والسلوان.

في الختام نشكر الأخوة الذين عملوا من أجل ظهور هذا العمل، وهم كثر وأخص منهم الشيخ والاستاذ أمحمد خليفة حفيانة والأستاذ السنوسي بوزيد ود.عبد اللطيف بونوراه، على جهدهم في مراجعة الكتاب، وكذلك الاستاذ هشام شرف الدين الذي أسهم معهم بصورة غير مباشرة، فبارك الله فيهم جميعاً وجزاهم عنا خيراً.